

عبد المحليم الجندى

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الإسلام

الطبعة الثانية

مركز الطباعة والنشر
دار سعد مصر للطباعة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة الطبعة الثانية

لقيت الطبعة الأولى منذ ظهورها في سجنبر الماضي من كريم قبول القراء في
مصر والأقطار العربية ما هداني الى تقديم الطبعة الثانية ، شاكرا للذين كرموا
« أبا هنيئة » بسانهم أو بقلهم من أئمة الفقه في العالم الاسلامي ، وأساطين
الأدب العربي ، وكبار الكتاب
ولعلني ان أورد في خاتمة هذه الطبعة قدرا مما أسلفوه ، الى أن أكون قد سجلت
فضلهم ، وشكري لهم .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام .
وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حادثاً ضخماً في تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأي وحده جحفاً لجباً ، فليس كهذا الإمام مصداقاً لهذا الكلام .
فإلى الجيل الذي يتلقت يمنة ويسرة يبعث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح .

إن أبصارنا في أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضي معاً ، لأن الماضي مركز الثقل الذي يحفظ توازننا ، فلا نُقبل على المجهول إلا وفي أيدينا قدر كاف من المعلوم ، ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرها وارتويتنا ، وإذا كنا إلى اليوم لم نفترق من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات ، فانرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذا كرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بأنماض القوى الذاتية للجسم الحي .

لنقل المترددين مقالة البحارة في سفينة بالمحيط الأطلسي للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل ، فرغ منها الماء العذب فصاحوا في طلبه وأجابهم بحارة المحيط « ألقوا دلوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء . وكان الجواب دائماً . . . « ألقوا دلوكم حيث أنتم » حتى إذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذباً فراتاً لذة للشاربين ، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون حيث يدفع النهر ماءه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون .
لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزرخ الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارىء فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أوفى كسيف الإسلام خالد بن الوليد إذ أنقذ الإسلام من ردة المرتدين فكافت يده فى حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها .

وإذا كان نابليون قد فخر « بقانون نابليون » أكثر مما فخر بمواقفه الستين التى أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهده ، فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الإسلام ، والإمام الأعظم للأئمة والمشرعين ، فى كل نبضة من نبضات قلبه هداية ، بالعلم وبالقدوة ، إلى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جات للناس عمله فى بناية الحضارة الإسلامية وحياتها بما أشاعه فى كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يصرون من الجلال ويصيبون من الخير فى الحياة الدنيا إذا أزيقت لهم بتصباح الفقيه . ولما تعارض الفكر والسلطان ، أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هى العليا .

ألا إن لنا فى الإمام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسياً فى التضحيات ، ونحن فى مفترق الطرق ، فلنقتد بهداه ، ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها ، وهو السمو على ماديات الحياة . ولنتمط بما اتهم به أصحاب الحضارة الغربية التى أوشكت أن تعلن إفلاسها فى الحربين الأخيرتين خلوها من عنصر الروح .

ولنتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا . لقد اعتز الإسلام بأسبابه ، عند ما استمسك أبناؤه بآدابه ، فلما ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات ، فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارىء هذا المثل للرجل العظيم الذى أجرينا ذكره على الصفحات التالية .

الباب الأول

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام »
« التي لم ينفرد عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا »
« كالفجر الطالع واملأوا آفاق الوري بالنور »

« انتهى »

أقبل السيد في تؤدة ورزاقية ، طويل القامة ، ممتلئ السميت عظيم الهامة ، حسن الطامة
واللهجة ، تعلمه سحر ، في وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت إذا مشى ، يمتة أو يسرة ، يوضع
المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشتيع الأرج إذا خرج من داره فتعرف أنه القادم
إليك قبل أن تراه .

فإذا طالعك ودنا منك رأيت رجلاً لباساً غاليه بزة فاخرة تباهى بذوق صاحبها في قماشها
وطرازها ، كأن قماشاً تخير بنفسه أحسن مالدیه فاجتمع ذوق المشتري وذوق البائع على ذلك
الوجه المشرق ، تعلمه قانسوة طويلة سوداء ، رداؤه وقيمه بأربعمائة درهم ، في زمن كانت فيه
ثمانية أرطال سمن بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم ، ولحم
الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم ، بل السكبش بدرهم . . . !

ومن جبة سنجاب إلى جبة ثعلب يصلى فيها ، إلى جبة فنك « نوع من جراء الثعلب التركي »
في زمن لم يك يلبس الفنك فيه إلا الأقيال والدهاقين والسروات ، إذا ألفيت فيه أو فيما قبله
رجلاً يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكاة ابن عباس : ابن عم النبي ، ونائب أمير
المؤمنين على ، والجد الأعلى لهرون الرشيد .

هذا السيد الذي يتم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبئك مخبره عن مقام في قمة المملأ الأعلى من
المخلصين ، مجاس هو الوقار بعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة في عنفوانها ، وجنان ثابت
لا يطيش لدى القارعة ، إذا سمع اللغو أعرض عنه ، هيو بالاً يتكلم إلا جواباً ، حتى إذا دعت
إلى الحديث دواعيه افتتت شفاه عن ثلثتين فائتين ثم انبثق النبع سلسلاً من سائل ، كأن ماكا
من الملائكة بوحي إليه ! مضرب المثل في وفائه ونداه ، وبسطه وإيناسه وحده على أعدائه
وأوليائه . لا تاهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة ، رزقه ربه
رزقاً حسناً فجعله كله زلفى لله وقربى ، فتبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه فجعله للناس آية في الدنيا
وفي الدين .

فمن ذلك الذي هو كل ذلك . . ؟

إنه النعمان بن ثابت المسكنى بأبي حنيفة . الذي يقبى عقله من منطقته ومشيته ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر تتردد عباراته إلى جوار أساطين المسجد الجامع في الكوفة فتتردد أصدائها في المسجد الحرام بالمدينة ، وفي المسجد الأقصى بيت المقدس وفي البيت الحرام بمكة ، وفي جامع عمرو بالنسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظام ولا يصطنع الخلفاء ولا الأمراء ، فإذا ذهب إلى المسجد أنجفل الحضور إليه ياتمسرون وقع الدر من فيه ، يضالهم كل آن بجلال العلم الذي ينحني له الأفاضل من العلماء ، ولو أتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا - بمدرسة الله وبضعة من صحبه - أخذ الرجال في تاريخ الإسلام بإمكان الشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار فظلت كما أنزلها الله عصرية في كل عصر ومصر وغداً الدستور الشرعى في أحدث الأمم الإسلامية حضارة يتحصل في كلمة يسيرة المبني كبيرة المعنى هي : « أرجح الأقوال من مذهب أبي حنيفة » الرجل الذي أعلن الحرية في كل مكان ، وفي كل زمان ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي التجارة وفي الملك ، وفي التصرفات وفي حقوق النساء ، وفي حقوق الرعية ، حرية وتسامح في كل شيء يسعون باسمه في ممارج الخلود يقاوم صاحبهما طفيان الشرطى وطفيان الأمير وطفيان الخليفة وطفيان التقاليد وطفيان التعصب ولا تنال منه الهزاهز ولا القنن وينشئ مدرسة الرأي في الإسلام لتكون أم الفقه الإسلامى ومنبعه على مر الدهور . . .

كان قتي طوالا فيه سمرة منحدره إليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده في الأفغان - فلقد ولد في سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تيم ، فهو باسمه سمي ملك من الملوك في العراق « النعمان بن المنذر » وهو بمولده مولى من الموالى ، لم يتلق العلم في مدرسة ولا جامعة ، وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج في مدرسة الدنيا .

وكانت الدنيا في ذلك الزمان والمكان أحفل مانكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية في قمة المجد في حكم الملك بن مروان وكانت الكوفة كاثنون مستعمر ، وكان أمير العراق في

طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفي رجلاً ما يزال اسمه يجري في التاريخ العربي بما يجري به اسم نبيرون في التاريخ الغربي ، فالنعمان لم يسلم في بواكير حياته ليلة واحدة ولا نهراً دون أن تصطك مساهمه بأحاديث هذا الطاغوت الناشئة برائته في أعناق جبرته وعشيرته يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم في العراق عامة والكوفة خاصة - وحمل الطاغية في عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل في سنة ٩٥ شهيداً « مات ما على ظهر الأرض رجل إلا ويحتاج إلى علمه » هو سعيد بن جبير ومن بعد ذلك بعام في سنة ٩٦ مات أستاذ العراق إبراهيم النخعي مخنفياً عن عيونه !

ولما دفع الفتى الموهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه إليه جبار السماء فرحل إلى الدار الآخرة مخلفاً في الدار الفانية أحاديث مآسيه .

لاحت على الحدث الناشئ مخائل النجاسة وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضي الكوفة وزعيم محدثيها في عصره الامام الشعبي فلما مر به يوماً دعاه قائلاً : إلى من تختلف ؟ قال « أختلف إلى السوق » وسمى له أستاذه في السوق . قال الشعبي « لم أعن الاختلاف إلى السوق بل عنيت الاختلاف إلى العلماء » قال « إلى قليل الاختلاف إليهم » قال الشعبي « عليك بالنظر في العلم . ومجالسة العلماء . فاني أرى فيك يقظة وحركة » .

ووقع في قلبه من قوله وترك الاختلاف إلى السوق وأخذ في العلم منذ حدائته الباكرة . بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد ، والجدال في العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه ، والجبر والاختيار ، وإن شئت فقل إنه علم التشريح الفكري للمسائل المسماة لانكارها أو إقرارها بالدليل العقلي .

وكان العراق إقايماً مستوفزاً يدفع كل شيء فيه إلى شبوب الخواطر وفي الطبيعة البشرية اتجاه غريزي للدفاع عن النفس يدفعها إلى الثورة على العسف ، مواجهة إن استطاعت ، ومن حواله إذا هي لم تستطع ، فتفرغ شحنتها من الحماسة في اتجاهات يظهر بادي الرأي أنها لا تمت بسبب إلى الحرب المشبوبة على الظفيان ، لسكرتها في الواقع كفروع النهر تتلاقى حيث يجري العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار .

ولقد يظهر من ذلك أن الإقبال على الجدل إنما هو في الواقع إقبال على التفضال ، إقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته ، لم تمسه همزات الفتن ، ولم يفض في الخلافات المصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلفي بأن يقارب السلطان ، وإنما نزل إلى معارك العلم واستقام على طريقته طيلة حياته في بلد كانت السياسة فيه هي الخبز اليومي يطعمه كل كوفي .

وسنرى من بعد أثر هذا التعليم الأولي حين راح في كهولته يصدع برأيه في شجاعة دونها شجاعة السيوف .

قالوا رأى النعمان في حديثه من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة وامرأة وقيل خمسة وامرأتين — منهم أنس بن مالك — وإنه سمع منه حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم وحديث الدال على الخير كفاعله . وحديث أن الله تعالى يحب إغاثة اللهفان وقالوا إنه لم يسمع من الصحابة أحداً ، وإنما تمحضت حديثه لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه إلى الأسفار في سبيل العلم ، فسكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ في « الكلام » مبلغاً يشار إليه فيه بالبنان أو كما قال : « كنت أعطيت جدلاً في الكلام ، وأصحاب الأهواء في البصرة كثير ، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة وربما أقيمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظناً أن علم الكلام أجل العلوم » . لكن ماركب فيه من عقل عملي كان حقيقاً أن يغير مجراه وأن يهديه إلى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ، وخليق بمنزلة أن ينصرف إلى ما ينفع الناس فيهمجر المتكلمين إلى الفقهاء أو كما قال « فلما مضى مدة من عمري تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم يتصبوا مجادلين وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا وتناظروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سياء الصالحين قامية قلوبهم غليظة أفئدتهم . . »

كان فتى ذواقة يختار من كل شيء أحسنه وما دام قد تخير الدرس فقد كان عليه أن يختار المدرس وليس إذاً إلا الخلقة المجاورة لأنها أكبر الخلق ، وأستاذها أكبر الأساتذة : أبو إسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفي الأشعري الذي يعقد جلساته في المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال « نعلم العلم » قال « تعلم كل يوم ثلاث مسائل »

وأنحدر في سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويسيدها في الغداة فيخطئ ، الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويأج في الجدل حتى ليحمار وجه حماد . لكن حماداً يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن ضلته بالله . قام يوماً من مجلسه فقال حماد لجاره « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحويه . . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد « كنت أكثر السؤال فرما تبرم مني ، ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري . . » .

لم يلبث إلا قليلاً حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بأزائه وطبقاً يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثالهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكميل زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى أن ابن حماد ليسأل أبيه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أي الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس إلى قلب الجده هو الحفيد لكنه أجابه : إلى أبي حنيفة ولو أمكنني أن لا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدث التلميذ نفسه في نحو الثلاثين من عمره أنه أوتي حظاً من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤتي الناس مما فتح الله عليه نخرج يوماً بالعشي تنارعه نفسه طالب الرياسة ، ويتم شطر المسجد وأوى إلى ركن سيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى فلم يكذب يدخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد في حلقة ، فهاجته الذكر ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ العظيم الذي قال عنه إبراهيم النخعي إذ مثل عن خلف بعده للناس إنه خلف حماداً للناس ، فكيف يترك النعمان حماداً ؟ كان حماد آية في الزهد والورع يفطر كل ليلة في شهر رمضان خمسين إنساناً فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوباً ثوباً . .

وانصرف الفتي كاسف البال منكسراً ولسكنه كان منتصباً . إذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته في دأب وتعمق وحاسة زادته بسطة في العلم وسعة في الفهم حتى إذا نعى إلى حماد بعض أهله بالبصرة عن مال لا وارث له دونه ، رحل إلى البصرة شهرين وأتاب أبا حنيفة في أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ — الصغير — يستفتونه في أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وهانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب : واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، والإسلام : تلك أنه دون إجاباته ليمرضها على أستاذه إثر عودته ، فلما راجعها حماد أقرّ منها أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور الإسلامي يعرفه معه ، وآنس التأنيذ من نفسه ضعفاً إذ منعه الحياء العلمي أن يعتد بأنه أصاب ضعف ما أخطأ ، وتماقب عليه الجديدان في حلقة حماد ، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار في العلم وفي الدين واشتملت عليه عناية الله تتعهد بما تتعهد به من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر ، ودار الفلك دورات وانسلخت سنوات ثان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوماً ولا بعض يوم ، بل إن كثيراً من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفاً من الليل .

كان يسهر مع جماعة من أصحابه في دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ ديك يصبح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصبح الديك فإذا صاح قام حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة « يالك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، إن شر الديكة ما صاح أول الليل . »

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه ، وبلغ به استقلاله ، ما بلغ بأستاذه جلاله . أنه لم يكن يجد في مخالفته له حرجاً . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حماداً : إني على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء . قال له : تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل . وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ . وهكذا لم يُعجز للرجل أن يتيمم مادام يقلب على الظن وجود الماء وفي الوقت سعة ، طيباً للسكال بالطهارة الأصلية .

وهي أول فتوى خالف فيها أستاذه ..

لما اكتملت دراسات الفتى المكتمل ، وبلغ نُضجه العلمي واستوى في سن الأربعين — سن الرسل — فأضحى يستطيع أن يؤدي رسالته وهيئات له السماء كل الظروف .
ففي سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد إلى بارئها واجتمع الناس إلى ابنه إسماعيل ، وكان

أغلب علم إسماعيل في التاريخ والأدب فلم يلق الناس عنده كبير غناء فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يهتمونه وإن لم يكن فارهاً في الفقه ، لأنه لقي المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجاً فجلس الناس إلى أبي بكر النهشلي فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، وخطى بين المجلس وبين أبي حنيفة فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم في كل الأبواب نفاذاً وعلماً بارهاً فآزموه وتركوا سواه .

وجاء إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد ، ولم يزل الناس يختلفون إليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكم أمره واحتاج الولاة إليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علواً وغدت حلقة أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها في الجواب وانصرفت وجوه الناس إليه وأكرمه الحكام والأشراف ، فقوى ذلك ذلك بالعلم الواسع والجدة وأسعدته المقادير وكثر حماده .

وظلت في نفسه ذكريات حماد يرددها مشيداً بنداها على الناس وجدوا عنده وتقواه لله حتى يقول « إني لأعود لحامد مع أبوي » بل إنه ليخلد ذكراه في نفسه وفي داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم إسماعيل كما كان لحامد ولد اسمه إسماعيل .

ذلك حماد أستاذه في الفقه ، وأبوه في الفكر ، وأولئك آباء حماد الفكريون :

كان حماد تلميذاً لعلية الأستاذين جرى اسمه في التاريخ على أنه راوية إبراهيم النخعي وناهيك بإبراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبي عندما نعى إليه « هلك الرجل ... إنه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله ... » وقال : ... دفنتم أفقه الناس . قيل ومن الحسن « الحسن البصري » . قال « أفقه من الحسن ومن أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل الحجاز » فلقد كان في الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين — أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذي كان الصحابة يستفتونه والذي قال عنه ابن عباس إذ مات ... « مات رباني العلم » كما أخذ عن ابن أخي علقمة الأسود بن يزيد النخعي وهذان النخعيان أخذاً عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة وقرين أبي بكر وعثمان وعمر وعلي ، وصاحب النبي

الذى قال فيه « من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذى كان أخاً في الفكر والرأى لعمر بن الخطاب .

قال عنه أبو موسى الأشعري « لا تسألوني مادام هذا الخبر فيكم . » ولما أرسله عمر إلى أهل الكوفة بعث إليهم يقول « إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي » وقدر له بأرو مساعديه ٦٠٠ درهم في الشهر ١ ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته وجرى في خلده وفي منهاجه نهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة ، إذا أيسح لنا أن نستعير هذا التعبير العربي عن أرسطو . . . وبهذا تستبين صلة أبي حنيفة بالصحابية المقربين وبالسلام عندما نشأ الإسلام .

سأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له في إحدى جوامع الكلم قال : « . . قال تعالى ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، كان علمي به أنه شديد الذب عن المحارم شديد الورع أن ينطلي في دين الله تعالى بلا علم يحب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما في أيديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . . إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، وإلا قاس مستغنياً عن الناس ، لا يميل إلى طمع ، ولا يذكر الناس إلا بخير . . » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرة عينه في الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلي ويبكي ويدعو ربه قائلاً « رب إرحمني يوم يبعث عبادك ، وقني عذابك ، واغفر ذنوبي يوم يقوم الأشهاد » . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن في رمضان ستين ختمة ، ختمة في بياض النهار وختمة في سواد الليل ، ولطالما ذاعت في الناس أحاديث تقواه ، فقل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة أو ركعتين في الليل ، وقل إنه كان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاماً .

سئل عنه جاره له شيء فقال « لا يمنعني خلا في إياه أن أقول فيه الحق إنه لجاري منذ أربعين سنة ما ينني وبينه إلا حائط ، ما كان يصبح كل ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير »
ولس كثرة قيامه بالليل وتهجده سمي الوقد ، روى مسهر بن كدام أنه أتاه في مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة .

كان إذا أراد أن يصلي من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثراً أن يسجد لله وهو في زينته ولو كان مستخفياً في الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه في بعض الأحيان إذا ينزع لباسه الذي يكون عليه والناس نيام ، ثم يشطر ويقوم إلى الصلاة فليل له إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطاناً أو اجتمعوا في مجمع عظيم فقال التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم ، وألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء إذ هو لم يعلمه من الكتاب إلا فاتحة الكتاب فقال له « لا تستحقر ما علمت ولدي لو كان معاً أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن » .



كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته . يسهر الليل نشوان يذكر الله وفي جوار داره إسكاف يحيي الليل منشياً بلذاذات الشراب يعمل طول النهار حتى إذ جن الليل حمل لحماً فطبخه أو ممحكة فشواها فإذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه بشعر الشاعر :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
كأنني لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو
أجر في المجمع كل يوم فيا لله مظمتي وحسبيري

وذاث مساء فقد الجار المتعبد جاره المعربد وقيل له إن العسس اقتادوه إلى السجن منذ ليال ، فصلى صلاة الفجر من الفسح ودعا بواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بقلته وقصد إلى دار الأمير — عيسى بن موسى — يسأله المغفرة للجار اللصق فأكرم الأمير مشواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة إلى ذلك اليوم وقفل الرجلان راجعين ، هو

إلى داره ، والإسكاف إلى جواره ، قال لصاحبه وهو يحاوره : يافتي . هل أضمتك ؟ فأجاب قائلاً : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً .

كان ذلك الصنيع لفظة بارعة تاب بعدها الفتي عن شرايه ولزم الحلقة حتى صار فقيهاً من فقهاء الكوفة .

فلا تنسادل كيف جثم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة في طلب العفو عن سكير ، فالجواب في السؤال : إنه رجل الفقه الذي لا يتحرك في قوالب من الجبس ، أو في مقامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحي الذي لا يضيع جاره . فهدى نفسه كانت ترتع في الفساد وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية .

وقديماً صنع مثله سعد بن أبي وقاص فاتح العراق في صقع قريب من أصفهان العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابي الخمر فحبسه سعد وجيء به ليقيم عليه الحد . . . فلما التقى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحائم .

كفى حزناً أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقها

وقال لامرأة سعد : أطلقيني ... ولك - والله - على إن سلمني الله أن أرجع حتى أضمر رجلى في القيد ، وقبلت السيدة عهداً وحلت قيده فوثب على البلقاء فرس الأمير وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وطلب لب القائد ، حتى خالوه ملكاً من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه . نفلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه في سبيل الله .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمر « قد كنت أشربها إذ يقام على الحد وأطهر منها . فأما إذ بهر جثتي - أهدرتني باسقاط الحد - فوالله لا أشربها أبداً . »

كان أبو حنيفة إذا جمع المال تسابقت كفاه في تفريقه . . . ذلك تلميذ يسد خلته ، وذلك امرأة ذات خصاصة وهذا فقيه في أسوأ حال . إن مال أبي حنيفة إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا

كان المال ، وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بثلاثها وإذا اكتسى ثوباً جديداً فليتكس بثمن ثمنه الشيوخ العلماء .

أصاب رجل من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتهما . أن أجذب الفناء وصفر الأناء فس كبده من ذلك كيداً وخرج على عزم السؤال وقصد إلى مجلس أبي حنيفة حيث جلس ملياً تقيمه الحاجة ويقعده الحياء . ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدى من أمره ما أخفى ، وعاد إلى داره وكان أبو حنيفة قد قرأ في وجهه أشياء تجري دلائلها بين قسماته فاقبمه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة في كفه خمسة آلاف درهم ودق الباب ، وقال « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هو لك . » ورجع مسرعاً لئلا يرى ذل الأخذ في وجهه ، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحل عقدها خشية أن تكون صدقة ذمى - فلقده - كان الذايمون يتألفون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعطيات - ولكن زوجته أهابت به « حل عقدها أهل الله يحل عقدها » . . . فلما حلها قرأ كلة أبي حنيفة « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك . . . »

وحبس إبراهيم بن عيينه - أخو سفيان بن عيينه الفقيه - على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتبابا فلما صاروا إلى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاءه رجل فقال إن على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر غنى ، ويؤخرنى بها فكلّم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هي له أبرأته منها ، قال الذى عليه الدين : لا حاجة لى فيها : قال أبو حنيفة « ليست الحاجة لك ، وإنما الحاجة لى قضيت »

تلك صدقات ونفحات فى المناسبات ، لكن العطاء كان يجرى جريان الزمان فى كل الأيام ، إذ يأمر ولده حماداً بأن يشتري فى كل يوم بعشرة دراهم خبزاً يتصدق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف إلى بابه ، وكان يجرى على الكثير من أصحابه جارية فى كل شهر عدا ما كان يواسيهم به فى عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للموزين لا يخاف عيلة ولا يستبقى لداره ولا لأهله إلا قدر نفقتهم والباقي كله طعام للبائس والمعسر وفي ذلك يقول « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فما دونها نفقة ، ولولا أنى أخاف أن ألبأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهما واحداً » وسسترى كيف كان ثراؤه عريضاً لترى كيف كان سخاؤه عجيباً ، بل لترى كيف كان إدباره عن الدنيا مصداقاً للقوة في ذاته وأثراً لها في نفس الوقت كالقوى تولد القوى فتتوالد منها ، وسسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم في حياته وبعد مماته فبلغ في الدنيا وفي الآخرة ما شاء ، بل ما شئت له السماء .

ثم إنك لترى الأريحية كلها إذ يهدى إليه : أهدى إليه منديل قيمته ثلاثة دراهم فحوض المهدى قطعة خز قيمتها خمسون درهماً . وجاءته هدية من الفاكهة فبعث إلى المهدى متاعاً مرتفعاً كثير القيمة .

وأهدى إليه يوماً ألف نعل ففرقها على إخوانه ، وروى بعد ذلك بيومين يشتري لولده نعلاً . . . فلما سئل في ذلك قال « إن مذهبي في الهدايا تقويمها باللغة ما بلغت والمكافأة بنائها أو مثل ضعفها وتفريق الهدية بين إخواني لما قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أهدى إلى الرجل مجلساً أو شركاً ، وإخواني جلسائي فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبهم لهم . . . وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف » ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويحبب الدعوة وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها . » ولقوله تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » . وأهدى إليه مرة فكافأ المهدى بأضعاف ما أهدى إليه . قال الرجل : لو علمت أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك . قال « لا تقل هذا فان الفضل للسابق ، ألم تسمع إلى ما حدثني به الهيثم عن أبي صالح يبالغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فائتوا عليه . . . » .

بلى ، فليسعد النطق إن لم تسعد الحال . . .

رأى على أحد جلسائه منجيباً فلما هم بانأروج قول له : ناوأتى هذا المنجيب فتناوله وقال :
ما أطرفه . وطلب من صاحبه يبعه فسر صاحب المنجيب أن أعجب الأستاذ بالمنجيب . لكن
الأستاذ سأله عن الثمن فأجاب : سبحان الله أبيعك لك ! هو لك هبة منى وتذكرة . قال الأستاذ
إن بعته منى بقيمته وإلا فلا حاجة لى فى الهبة فإن بعته منى بقيمته كان أعجب إلى وأفعل ، ذلك
لأننى محتاج إليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرأ بالأذى والسمامة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة
والحسد والتعصب وأن السبيل إلى الظفر بحملة هذه الأسلحة هى تجريدكم منها ، بالحلم والصبر .
كان فى المسجد فتام رجل فى ناحية فجعل بسبة فما قطع حديثه وقام إلى داره فتبعه الرجل يشتم
ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلاً « هذه دارى أريد الدخول فإن
كنت تستقم باقى كلامك فأنه حتى لا يبقى شىء مما عندك حتى لا تخاف الفوت » فاستحى
الرجل . وقال : اجملنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديماً كان فتى مهين يساقى بركايس بألجنة حداد على ملا من الناس فظل الرجل العظيم فى
عمله لا يلقى إليه بالاً حتى أوت الشمس إلى الغروب فسار إلى منزله ، والفتى على أثره يردده
سبابه ، فبدأ دخل بركايس بهت خادماً يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته إلى داره .
وهذه أمه يبجلها ويدللها ، كانت كبهض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى
سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه لا تثق بالفتيا إلا إذا جاءتها واردة من الخارج . . .
حلفت يميناً واستغفته فأفتاها ، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت إلا أن يفتيها زرعة القاص
« الواعظ » فلم يضق ذرعاً ، وحملها إلى دار زرعه ، وهناك قال لها صاحب الدار : أأفتيك
ومعك فقية الكوفة . . . ولو أنك كشف أمامه لوح المستقبل لقال . فقيه الدنيا .
وأسر أبو حنيفة لزراعة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها إلى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة « ثلاثة أميال »
ليصلها التراويح خلفه وليستمها إلى وعظ هذا الزاهد الجليل . وليدعوا الله كما يدعوه « أتمدنا
يارب ووفى جو فناء التوحيد . . . لا أراك تفعل » وهو دعاء يواشم قاعدة أبي حنيفة فى الإيمان كما سترى بعد

فأى رقة تفيض من هذا القلب الكبير . . . ! وأى دار كنتك الدار تشيع في أجوائها الزهادة والتبتل والايان . وأى ذوق كذلك الذى يلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية فاخرة للوجود .

ولما أوجعته الشياطين وهو فى قمة المجد ، معى بالنكال الذى يصبه عليه ملوك الأرض . لم يكده يفتح فاه بالكلام إلى جاره إلا ليقول عن أمة « والله ما أوجعنى السباط قدر ما آلمتني دموعها » وقالت له أمة : ماخير علم يضيمك هذا الضياع .

قال : يأماه إنهم يريدونى على الدنيا ، وإننى أريد الآخرة وإننى أختار عذابهم على عذاب الله قال نابغة الأدب الدينى فى فرنسا « بوسويه » فى رثاء عبقرى الفن الحربى « كونديه » « ألا بعداً لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم ! إنهم قد يستحقون احترامنا وإعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة . لسكن قلوبنا ليست معهم . . . » .

فى أى سلك من الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى الإسلام أرسنتراطيات وظبقات لسلك مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا خلقاً وخلقاً ، صمتاً ونطقاً . صلة بالناس وصلة بالله كل أولئك ثم هذا نسبه الأدبى الذى يسمو به إلى السابقين من أصحاب النبى ، فقيم إذن أجهد الأشياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسباً غير أنساب الموالى ، ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك وأن اسمه أو معناه ورد فى التوراة . وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدمه ؟ إنما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسامون سواسيه كأسمان المشط وكالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وهم سواء فى الحج ، وفى الصلاة ، وفى الزكاة ، وفى الجنايات عين يعين وسن بسن ، والجروح قصاص .

سوى النبى بين نفسه وبين مولاه زيد ، وأمر أسامه بن زيد على الجيش وهو حدث ، وفى الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص وغيرهم فله أبو بيع لأبى بكر قبل رحيل الجيش كلم أبو بكر خليفة اليوم أسامة فى عمر خليفة الغد ، ليأذن له فى التخلف ففعل . وطل عمر يناديه كما لقيه : السلام عليك أيها الأمير ويقول « إني لا أدعوك إلا به لأن النبى صلى الله عليه وسلم مات وأنت على أمير »

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليت .
 في تلك الأمة التي لا تعرف شريفاً ومشروعاً نهض الموالى بأفدح الأعباء في الحرب
 والسياسة وفي العلم والفقة .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبدالله بن عباس يذكرو ويذكر معه مولاة عكرمة
 وظل عكرمة رقيقاً حتى مات ابن عباس فباعه ولده على بأربعة آلاف دينار فقال لعلى « بعت
 علم أليك بأربعة آلاف دينار » ! فاستقال على من بيعه واعتقه ! .

وكان عقد الله بن عمر كثيراً ما يذكرو ومعه مولاة نافع ، وأنس بن مالك لا يكاد يذكرو إلا
 ومعه مولاة ابن سيرين ، وأبو هريرة لا يكاد يذكرو إلا ومعه مولاة عبد الرحمن بن هرمز !
 بل كانت دولة الفقه للموالى في بعض الأمصار ، كما لبصرة حيث كان على رأسهم الحسن
 البصرى ، وفي مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان وكثيرون
 من الموالى .

وفي سوق الفخار هذه علاصوت السوداني فتولى الفتيان بمصر يزيد بن أبي حبيب بأمر عمر بن عبد
 العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دقله ، وهو الذي تعلم عليه إمام مصر العظيم الليث بن سعد
 ثم من هم الموالى ؟ الموالى هم القوم المنتسبون إلى بيوت العرب بعقد ولاء ومنهم الأرقاء
 ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا في الأغلب الأعم من أهل البلاد المفتوحة كمصر وفارس وبلاد
 الروم وكان العرب يستطيعون أن يملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحراراً ، وجرت كلة
 الموالى في إطلاقها على أن تشمل من ليسوا عرباً من أهل هذه البلدان لأنهم كانوا يسمون على أيدي
 المسلمين ، فمن أسلم على يد مسلم كان مولاة ، وكثيرون منهم أسروا أطفالاً رباهم المسلمون وعلموهم
 وغدوا مواليتهم . ولم يك بدعاً أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فقال إن الفقه
 بعد موت العبادلة الأربعة - أبناء عباس وعمر وعمر و الزبير - قد انتقل إلى الموالى إذ كان الموالى
 أهل حضارة رفيعة لم يسخها الغزو ، لأنه لم يك غزواً بربرياً ، وإنما كان غزواً فكرياً ، فتح الله
 به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة ، فأُنزل رحمته عليهم في شريعته إليهم . وأبداحت مع
 الموجة الفاتحة موجة من الايمان غدت من بعد تياراً من التفتح الذهني أخرج للأمة ما أخرجت

من الآيات وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه في الواقع هو الدين نفسه ، أو القدر الأول من الدين وتلاقى العاملان ، وتبادل المتبادلان ، ففتح العرب الشموخ المفزوعة دينهم قياماً ، وفتحهم فصيحاً ، وقدم المولى من جانبهم أسباب حضارات فاخرة ، وأصول تفكير عميقة ، واشتاع الشريك أن أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندججا . وتضافرت القوى الإسلامية على الانتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعاً قوية جديدة الطراز .

وإذا كان ثمة وقائم تشير إلى البفرة بين العرب والمولى فقد صارت حديثاً في التاريخ بعد أن توجّج الازدواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه في فاتحة القرن الثاني : هل لك علم بماء المصهار ؟
قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قال : نافع مولى ابن عمر .

قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قال « عطاء بن أبي رباح قال : مولى أم عربي ؟ قال : مولى !

قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قال « طاووس بن كيسان » » » »

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قال « يحيى بن أبي كثير » » » »

قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قال « مكحول » » » »

قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال « ميمون بن مهران » » » »

قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قال « انصحاك بن مزاحم » » » »

قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قال الحسن وابن سيرين قال « موليان أم عرييان ؟ قال موليان !

قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قال إبراهيم النخعي قال : مولى أم عربي ؟ قال لا بلى عربي !

قال : كادت نفسي تخرج ولا تقول واحد عربي ! ...

قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعراقه ، لكن الخليفة الذي كان في طبيعة من حملوا ميزان العدل في الاسلام قال غيره ... فلما سمع عمر بن عبد العزيز أن بعض الناس

أنفرا أن تكون الفتيا الموالى صاح فيهم ... : (ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها سهداً وأتم لا تسمون ؟)

والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله (لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئوننى بالأنساب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقف رجالان مولى وعربى على بحاس لبنى المنبر ، والعربى على حمار والمولى على ناقدة . وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب ، فلما سلما على القوم قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا إلى العربى ، فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة ! بدأتم بالصفير قبل الكبير . وبالمولى قبل العربى فأسكتوا ، فانهبرى واحد منهم فقال له : بدأنا بالكاتب قبل الأعمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى ينظر به الاسلام إلى عنصري كيانه قد أنطق الله به فتى بنى المنبر .

كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمدة الدولة العباسية حتى استقرت بها الأسباب . والأولى ترجعوا ، وألفوا ، ولقمحوا الحضارة العربية بفتح الفرس ، واليونان ، والنبطيين ، والسكندانيين ، والآشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ، وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة إسلامية جامعة . وفى هذا العهد العباسى كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى ، كان عمارة بن حمزة بعيد الصوت فى بلاد الميذى فدخل عليه يوماً فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذى أعظمته الأعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاي . فسمعها عمارة فرجع يقول : يا أمير المؤمنين جعلتنى كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكانى ؟

وهؤلاء طائفة من الغزاة والمهرك : كافور - الأسود الزنجى كما يقول المتنبي - وأبو المسك - كما يناديه أيضاً - كمان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبي كذلك ، وطارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، وموسى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان الموليان اللذان يقصر دون مجدهما كل مجدهما السادة هما اللذان منحا الانسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجعما طرفى

التاريخ قديمه وحديثه ، ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الاسلامى وحروف الهجاء فى آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبى حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذى سعدت به الدنيا فوضعهم فى التاريخ حيث يرضع .

فلا تسل إذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما نثار ولدهما إذ يقال إمامهما مولىان وفتاها نثار هذه الأمة الاسلامية على الزمان بل قل لثابت وزوطى ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقالة المتنبي جلدته :

ولو لم تسكونى أكرم والد فان أباك الضخم كونك لى أما
ودع النعمان ينشد نشيد ، واطنه مهيأ :
وأبى كسرى عملاً إيوانه أين فى الناس أب مثل أبى
قد جمعت الفضل من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

إن هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب . ولئن ساغ ذلك النبوغ فى السياسة أو فى القيادة أو فى الفن ، فإنه فى الفقه ، وللهمة الأولى ، يستوقف النظر ، وبخاصة فى فجر الاسلام ، فى الفقه نصوص القرآن والآخديث والسنة ، فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية فى سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتذكر أسرار لغتها حتى تبرز الخلف من بينها .

هؤلاء الموالى الذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، وهذا ابن حنبل أصله من مرو ، والطبرى من آمل بطيرستان ، وابن جريح رومى المنبت وربيعة الراى فارس الأصل ، والشعبى علامة التابعين كانت أمه من سبي جلولاء ، والحسن البصرى كان أبوه من سبي ميسان ولو عمدنا إلى الحصر لشمل الكثرة الغالبة من أئمة الفقه والعلم ، ولكننا نقتصر على بعض الأمثال . إن اللغة نفسها قد سعدت بالفرس ، ولما سعدت بأربابها هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان

من الموالى ، وهذا سيبيويه الفارسي الأصل يضع قواعد النحو ! والكسائي وارت علماء البصرة في اللغة فارسي الأصل ، وتلميذه الفراء كان ديلمياً كهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والفارابي كانوا فرساً أجمعين ومن قبلهم كان ابن المتفيع الفارسي الأصل سيد النقلة إلى العربية .. وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية إلى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحي في شبه الجزيرة كالغيت ، وسال من قممها إلى الوديان الإسلامية طراً حيث قر قراره واحتمل السيل في فيضانه تلك المدنية الراية لا تفقها الحدود ولا السدود فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب في المحيط الأطلسي : بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تلقى اللواء في مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر ، فأبقى الجامع العظيم على حضارة الاسلام ألف عام لبؤديها إلينا في القرن الرابع عشر وإلى كل القرون .

إن هذا الدين متين كما أوغل الداخل فيه اشتدته فيوض النور ، فخلبت لبه قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة ، والعصاة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوي العام إلى جوار بيت الله الحرام والمؤتمر الأسبوعي الخاص في يوم الجمعة في كل مكان ، وحرمت البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ، ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما إليه من خصائص الاسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه ، وكما تغافل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجباً .

وبهذا تثلت السريعة الإسلامية الملل والنحل الشقي فصارت أمه واحدة هي الاسلام ، لا فضل فيها لعربي على أعجمي . ، وإنما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربية ، قد استبدت بهشام بن عبد الملك فانما هي جاهلية ذمها النبي بقوله « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاضها بآبائها ، فالناس رجالان برّقى كريم على الله ، وفاسق شقي هين على الله ، والناس بنو آدم ... » ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب وأن الاسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها وأن نبوغ النوابع من أفتان الدولة إنما هو أنخر التحايا للدين الجديد في مطالع سعده وفاقحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وقاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شيء ، ولم تبق للناس من دونهما شيئاً .
فاته أنها أخرجت محمداً بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها هو ... ولو أنه ليس لها
وإنما هو للدنيا جميعاً ...

لقد اعتز الإسلام بأهل البلاد المفتوحة وتألفت في سماواته حضارة دمشق وبغداد والقاهرة
والقيروان وقرطبه والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائماً في وسط الجزيرة وحيثما
كان المسلمون ولوا وجودهم شطره مبتهلين إلى صاحب البيت الحقيق بمكة مهملين على صاحب
القبر الشريف بالمدينة .

الباب الثاني

الشمس

« لا تشاور من ليس في بيته »

« دقيق فإنه مولد المقبول »

الشافعي

كان أبو حنيفة خزازاً يبيع الحرير الخالص أو المخروط بالصوف ، وقديماً كان نبي الله إدريس أول من خاط الثياب ، وكان الصديق أبو بكر خزازاً ، وكثيرون من جملة الصحابة كانوا تجاراً . ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في التجارة ويقول « أريد الثراء ولكني لا أريده من الظلم » ، ويبيع الزيت في مصر ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان إسبنوزا يصنع العدسات .

كان أبو حنيفة تاجراً صناعته الفكر ، ومفكراً يعمل في التجارة ومن ثم كان توفيقه التجاري ، الذي انحدرت إلينا أنباؤه مع التاريخ ومردده قطعاً إلى دراية ذات شغب ، وأسلوب كأحدث ماتكون أساليب العصر الحديث يسمو عن الإعلان ، وهي ذرائع تكفي إحداها للنجاح فكيف إذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة ، وأناقة ، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ، وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا في الأرض مراغماً وسعة تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الأغنياء مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم في معترك الحياة بالخروج إلى السوق العام في صميم الميدان ، أو في عرض الخضم ، بالسكندرية والدأب والغوب . وبهذا حل أبو حنيفة العقدة التي يقف بإزائها المفكرون حزني مبلسين ، عقدة الفقر الذي عود الناس أن يلازم الفكر ، والمفكر الذي يرتحل رحلة الحياة الدنيا جوعان تفسأ تهدير المسغبة مزاياه ، يقدح فكره ألمعية ولو ذعية ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة إلى ثمن بخس دراهم معدودة ... ! ويتراءى له يريق النماء ويعجز عن الدنو منه والدلف إليه فتتحالف عليه مركبات النقص ، وتضيق به المسالك المتناحرة ، فينوء بالحياة مثلاً ناعت به الحياة . . . ويخرج منها محروماً مقتراً عليه في الرزق :

وفي حالتنا كان فقير الكوفة تاجراً من أكبر تجار الكوفة فلم يك ممن يجلسون إلى الأرض ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء فان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، أو يمدونها إلى الأمراء فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم ، أو يرقبون أن تنهض حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ في حابة من الطلبات ليروا مبلغ ماتسكبو أو نهضلى أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم إبراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فمن ابن الأغلب عليهم بعتائه فقال أسد « لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي . . . » ولم يكن أسد ليقلها إلا وهو القاضي العامل في القيروان والفاصح الغازي الذي مات على رأس الجيش في حصاره لسراقوسة بصقلية سنة ٢١٣ . عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله ، وكما أغناه الخلق عن الخلق أدناه إلى الحق وإذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله . وأدرك الشافعي ذلك من بعده بنصف قرن فقال « لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه موله العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه إلى البأساء والضراء بأمراس كتان من الرهينة المشيعة ، والتبتل المؤذى ، في حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وفي أمة يقول رسولها إن أفضل الكسب (بيع مبرور وعمل الرجل بيده) و (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) . و (نعم المال الصالح للرجل الصالح) كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد — إمام مصر — ذا ثراء عريض يضع الدنانير في الفالودج فمن أكل من صحبه أكثر ناله دنانير أكثر . . . ! وكان صاحباً لمالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه (حدثني من أرضي به من أهل العلم) ومع ذلك كتب إليه في تثريب يقول (بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق) ،

وأدركت ضفاف النيل لدع الضربة الموجهة إليها من شمس الصحراء فاستعان الليث عليها بالله ، يدفع عن نفسه مذمة لبس الرقاق أو أكل الرقاق ، فكتب إليه يقول (قال تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وعاش الليث في جاهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه الشافعي إنه (أفقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به) .

كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكان العراق آمناً جوهرة في التاج ، فيه ست كور ، أولها كورة الكوفة . وكان له شأن أي شأن ، فيه النهران يجريان ، بالرخاء وال عمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس وحضارة الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد كما تلاقى رجال من كل رأى يجاهدون في سبيل الملوين وفي سبيل الأمويين وفي سبيل ابن الزبير وفي سبيل بني العباس ، وفي سبيل الأمة . أو في سبيل أنفسهم ، فأى جيشان بمناصر الحياة ، ونوازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت تحيثه هذه الكورة ، وأى مضطرب للفتى النقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة إذا كان يبتغى النجاح بمعناه الانساني لا المالى ، وبمعناه الذى أراد الله لا بمعناه الذى يخصى ويمد بمقدار ما ينتج من النقد ، بل همه وكبر معناه أن يسمف لنفسه عند خالقه قدم صدق بما قدمت يداه .

بدأ أبو حنيفة حياته في التجارة بطبعه الطابع العلمى ، فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة سماه للإمام الشعبي يوم وجهه للدرس الفقهي كما مر بنا ، وهى ظاهرة تترامى لك في حياة أبى حنيفة في غير موضع مردها إلى ما فيه من مزاج جامع بين العلم والعمل ، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو على محض حتى إذا كان في ريعان حياته قدم إليه رجل تاجر فقال له (أراك تتجر ، التجارة إذا كانت بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب) ولئن كان ما عنده هو العلم العام ، إن الطابع العلمى يثبت به مثلاً يثبت لو كان ما عنده هو الفقه ولعل الفائدة التى يفيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى فى العمل التجارى .

وهكذا دخل إلى السوق مدخلاً كريماً فأضحى فيه من المجددين والمجدودين ، اختار له مكاناً من أبرز أمكنة الكوفة في دار ليست هينة على التاريخ ، هى دار عمرو بن حريث — الصحابى — يلتقى بها المؤرخ حيث يجد الجد في حياة العراق ، وحيث يكون للأماكن شأن . ففى سنة ٨٢ سارا ابن الأشعث من البصرة إلى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بوالهم ، ومالوا إلى ابن الأشعث وسبقت إليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث . وفى سنة ١٢١ خرج زيد بن على وخرج أهل الكوفة معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث ، فهى لا مرية كانت من أظهر مهاهد الكوفة حيث يستقبل

الفاطمون وتدور أرحاء الممارك ، وحيث سوق الحرير .

وإنك لتتصور مظاهر الذوق في ترتيب دكانه بما كان عليه في خاصة شأنه ، حسن هيئة ، وبزة وتفكير وتعبير ، بل إنك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تتنسم العطر يتأرجح من أردانه وزوايا دكانه ، وتصور النساء إذا أقبلن أو أدبرن ، بائعات أو مشتريات ، يفضضن من أبصارهن ولا يبدن زيقتهن . يدلفن إلى الدكان كأنما يقدن إلى الدرس ، ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كنن من الدكان في المحراب .

كان صاحب هذا الدكان يقول : « من وصف خف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً » ويقول : « إذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » وكان رحمه الله إذا مشى في الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأة : قال في وصية لأحد مريديه « ... وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر إلى الأرض ... ولا تماكس بالحببات والدوانيق ... » فيأله من رجل رفيع وتاجر رفيع ... يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه فلا يخسرها بانفاقها في المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحببات والدوانيق أم بغير الحببات والدوانيق .

جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوباً وتوسلت إليه بسننها أن يرفق بها .

قال : دونهك هذا الثوب بأمام ...

قالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لا تسخر مني وأنا عجوز لا حيلة لي

قال : إنه لكذلك . لقد اشتريت توبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلا أربعة دراهم . وهذه

الدراهم الباقية هي ما أطلبه منك ثمناً للثوب الباقي

أضف إلى هذه الصورة وإلى آداب التجارة ، أن الحانوت ليس محلاً للمدارسة : وإن تولى

التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة ، وهكذا بقيت دار ابن حريث خالصة للتجارة ، أما العلم فبقي دائماً في مكانه . لا في السوق ، ولا في الطريق .

في ذلك الحانوت يجلس سيد مكث غير عجل ، مخبور التجارب ، يتقبل الناس بقبول حسن ، وضياء الحياء ، منبسط الطبع ، ميمون النقيية ، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لا يبايل ، ولا يتخيف ، ولا يستكبر ، ولا يستنكف ، يقصده فظ القاب فيألفه ، ويعر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا محالسة ، فإذا قام سأل عنه فان كانت به فاقة وصله ، وإن كان به مرض عادة ، حتى يحضره إلى مواسلته ! — أما صدق الماملة والنفرة من الماكسة ، فكانتا كلمة السر في دكانه ، لكأننا كانت كل ألواح « الثمن محدد » مرسومة في مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن نشد إلى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الأساتيد في الجدال ، إن لكل مقام مقالا . . . وليس هنا مقام الجدال .

وهو لا يهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الإنسان ، بل إنه ليقطع أبعاد الأشواط في مضمار النصفية ، فلا إعلان ، ولا شبهة إعلان ، لما قد يكون في الاعلان من إيهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس في ذلك العصر حديثي عهد برسالة الرسول تأسرهم الكلمة إذا سبقت ولو في السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفي دكانه طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد ، يا حماد أخرج ثوبا ، فأخرج حماد ثوباً ونشره قائلاً : صلى الله على محمد . . .

قال أبوه : مه قد مدحته . . .

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد إلى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة إلى الثوب . وأظهر ما يكون استعداده لدفع الثمن ، ولكن الشيخ في غير محاشنة ولا مشاقة ، بل في سماح وإسجاح رفض أن يبيع . وعاد المشتري أحراجة .

وفى ذلك الحانوت بضاعة لا تعرضها الحوانيت الأخرى فى سوق الخرازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة إلى الكوفة ليشتري لبنته جهازاً ، فينبه الناس على الجهاز فى دكان « الفقيه الخراز » وإن الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من الماكسة ، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشترى فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدي أستاذه بما صنع رد الأستاذ ما زاد على الثمن ، بعد إذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتمامها . وكما كان التفكير أداته فى الفقه ، كان الفكر أداته فى التجارة . كان الثمن فى دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف إليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بقياس العدل والعقل ، فكما كان القياس الأعظم فى تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المنصف فى ثياب الخراز فى دار ابن حريث .

حقاً ، إنك لا تستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجارى قد جاءه عن الفقه أم أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده ، لكن ثمة قدراً مقيماً تستطيع أن تقرره بين الجوابين ، هو أن الصدق والحزامة فى التجارة قد هيا له من النجاح أسباباً مواتية للتفرغ لدين الله ، فى روحانية المتعبد يستقبل تلك اللامحات التى يبعثها الإلهام فى الكون كوميضات النور ، والسعيد السعيد من رآها ، وكانت ملكاته متحفزة لتلقاها ، كما تستطيع أن تقرر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقيه ودنيا الناس فى أفكاره ، فغداً فقهه فقد الحياة التى نحيهاها ، ورحم قلبه ضعف الإنسان وكان التسامح كبرى قواعده . وتحمل مسئولية المخاطرة فصنع بالرأى فى مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول ، وامتد بصره فشمل المستقبل ووضع لاحتياجاته ما يحكمها من الأصول متحرراً - كما قال - من البلاء قبل نزول البلاء .

وكما أثرت فى الفقه التجارة ، أحدث الفقه فى التجارة آثاره . فلمن كانت فى الفقه العبرى مقولات مسالمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصبح معها العقد وإن كانت تستزيرها قواعد الآداب ، إن الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليعتم مكارم الأخلاق .

بمئذ بمحتاج إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجارة وأعلمه أن في ثوب منه عيباً فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمنه كاملاً لثوب غير كامل - وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً أو خمسة وثلاثين ألفاً - فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكافئه أن يبعث عن المشتري ، ولكنه لم يهتد إلى الرجل فأبى أبو حنيفة إلا فصلاً من شريكه وتاركا . بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملاً .

ذلك مثله لانصاف المشتري من نفسه ، وهذا مثله إذ ينصف من نفسه البائع : جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ، قال بكذا . قال إنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف ١١ بل جاءته امرأة يشوب خز يبيعه بمائة فقال فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربع مائة . قال هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بي ؟ قال هاتي رجلاً فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة درهم .

وصدقت المرأة أنه لم يتخذها سخرية . وصدقت كذلك أنه لم يك يريده الاحسان إليها ... وإنما نفع الله به البائع والمشتري .

فهو ينصف المشتري منه . والبائع له ، وينصف من لا يبيع له ولا يشتري منه ، كل أولئك ونظائره في لين وخفض جناح ، وسلاسة طبع ، وسلامة أسلوب ، فإذا راح يقتضى دينه من مدينه لم يجلس في ظل جداره ١١ قالوا إنه لا يريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن يفيء إلى ظلاله إذ يجيئ إلى داره ، وهو الورع الحق ، ولكنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تضيف إلى عسر المدين الحاج الدائن ، إذ يترصده ... فلا يجزى المطال بالاحتلال وإن كان الاحتلال مجرد فيء إلى الظلال .

تري هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذي وصفوه بأنه كان رجلاً وسيماً وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يالونه لغير واحد من الأمر ، لهامه وتجارته ، وحسن مجالسته ... » ١

ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفة ، وقد كان بينهما تواصل ذهني يتراعى خلال ذلك التشابه . في العمل وفي الطباع ، حتى أن أبا حنيفة كان يأخذ بأبي بكر وأفعاله وخصاله .

و ذات يوم بعث إلى فتية يقول لهم : إن أباكم أودع عندي مائة وسبعين ألفاً نخذوها . . . !
ولم يشهد عليهم ، فإنه لم يكن أشهد عليه ، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال .
فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفاً ردت لذويها .

وازدهرت تجارة أبي حنيفة أيما ازدهار ، إن هذا الإنفاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم
كما ستري بعد ، وهذا التصديق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها ، لا تسمح به إلا البيوت
المالية الوطيدة الأركان والناجحة كل النجاح ، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل إن بعض
أعداء أبي حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبي حنيفة أستهملت في تقوية إبراهيم بن عبد الله
(بن الحسن بن الحسين بن علي) إذ خرج على أبي جعفر وإنه لهذا حبس أبا حنيفة .

إلى هذا القدر بلغت هذه الأموال . . . أن تساعد في إدالة دولة وإقامة دولة . . . !
بهذه القواعد التي بسطنا منها بعضاً كانت دار ابن حُرَيْث تضرب الأمثال كريمة للناس .
إنك لا تستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالدنيا مدرسة مكبرة ، والحقائق لا تفهم
مصورة ، ولا بجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق ، والناس في الدنيا كالتلاميذ في المدارس لن يفهموا
شيئاً إلا إذا صنعوه بأنفسهم ، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الاداء ، — والكلام لا يهدي
قدر ما يهدي العمل ، وما تهدي القدوة ، والقدوة في العلم هي أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما
تصوغه للناس من قواعد أو نصبه من قوالب .

أذن النبي لصحبه وهم على سفر في الإفطار شهر رمضان وبقي هو صائماً فلم يقطعوا صومهم
حتى عمد إلى الفطر ، فخفوا إلى الاقتداء بفعله وأفطروا

ونظر فتیان من أسباط الرسول عليه الصلاة والسلام — يجرى في عروقهما دم الهدى والرسالة
— إلى أعرابي على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما ، لو قلنا له غلظت ربنا انتفخت
أوداجه ، ولا ينقاد إلى الحق فقاما إليه ، وقالاه : نحن شابان وأنت شيخ ربنا تكون أعلم
بالوضوء والصلاة منا ، فمتوضأ ونصلي عندك ، فإن كان عندنا قصور فعاونا ، فتوضأ وصليا
كما عرفنا عن جدنا عليه الصلاة والسلام فتاب الشيخ ورجع غن صنيعته .

إن قاعدة الإصلاح في كل جيل هي أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث في إصلاح سواه
فالنفس هي التي تسمع لا الأذن . وفي الناس لاجبة تبتعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن
النفس تسوقهم إلى الاستمساك بما هم عليه والاستسلام إليه .

خطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟ قال سلمان :
لا نسمع . قال عمر . ولم -- يا أبا عبد الله -- قال إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً . وعليك ثوبان قال
لا تعجل ونادى يا عبد الله ! فلم يجبه أحد . قال يا عبد الله بن عمر -- ابنه -- قال لبيك يا أمير المؤمنين
قال نشدتك الله الثوب الذي اثترت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم .

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع .

ذلك سلمان الفارسي أو الناس جميعاً . . ومع الخليفة الذي خطب عندما تولى . ألا وإني
أنزلت نفسي من مال الله بنزلة وإلى اليتيم إن استعنت عفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف
تقرم البهمة الأعراية القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الأكل بأقصى الأضراس)
وقديما قيل : خير من الخير فاعله . وشر من الشر فاعله .

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسمود أجيالها اللاحقة هذه الآراء فقال (إن الناس
أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه ، ومن خالف فعله قوله فإنما
يويخ نفسه) ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام (إن في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء ، فيشرف
عليهم من كان يعرفهم في الدنيا فيقول ما صيركم في هذا وإنما كنا نتعلم منكم . قالوا كنا نأمركم
بالأمر وننهيكم عن غيره) .

وقال (تعلموا ما شئتم أن تعملوا فلن يأجركم الله حتى تعملوا) .

من أجل ذلك كان الزعماء المالميون قوماً زاهدين ، وخاض القادة المبرزون . ماركم في
الصفوف الأولى وفي الطليعة : كخالد بن الوليد ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ،

وغاندى فى الشرق ، وكرومويل ، وسالازار وديكاليرا فى الغرب .

ومن ثمّة تدرك أثر القدوة فى عمل التاجر الكريم النفس والكريم الفعال .

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاماً وكان رجلاً صالحاً روى عن شريكه الحديث والفقه ، ولا ينيك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلة من خلجات الضمير التجارى للزميل التاجر . وما أدراك ما فى الضمير التجارى : الخالب المحضبة تقطر من دم الضحايا ، والمخارج ، والحيل ، والسعار المعذب المنفعم نحو كل مادي وماوى 100 إلى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة .

فلنستمع إذن لحاصل التقرير الختامى عن الشركة حيث يقول حفص (جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنسك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحداً أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة) .

ولئن سمعت أحاديث الورع فى مجال الورع فمن العجب حقاً أن يباهى الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وبزهده ونسكه وعلمه ، مجتمعة ، كل أنواع الفقاء والزهاد والنسك مجتمعين . ولنستمع إليه مرة أخرى يقول بعد أن تشاركاً (فى طول ماصحبت ، أبا حنيفة وخالطته لم أراه بمان بخلاف مايسر ولم أر أحداً يتوقى مما لا خطر له . ثم ما كان يتوقاه ، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شيء أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله) .

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يبطن مثل مايعلم ، ولا يصنع فى السر إلا ما يصنعه فى الجهر ، فيرى الله أمامه ولا يرى البشر .

ولئن جاء فى الحديث أن التجار يبعثون يوم القيامة فجراً إلا من اتقى الله وبر وصدق أو كان من أصول فقه أبى حنيفة أن الشك لا يزيل اليقين فإن هذه الأصول للناس وليسست له . ولو كلفته جميع ماله .

إن أبا حنيفة قدوة للناس فى علمه ، فليكن قدوة للناس فى عمله ، وأياخذ نفسه بالشدائد ، حتى إذا نقلوا عن الأصل ، وخف الأثر فى النقل ، وصل إليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبى يوسف «ولا ترض من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك فإن العامة إذا لم يروا منك

الاقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها يمتدنون فيك سوء وقلة الرغبة فيها ويعتقدون أن علمك لا ينفعك ولا يفيدك إلا ما أفادهم الجهل الذي فيهم . . . وكن من الناس على حذر ، وكن لله في سررك كما أنت له في علانيتك فلا يصلح أمر العلم إلا بأن تجعل سره كعلانيته .

ولما نهى الأمير عن الفتيا فانتهى ، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في داره فلم يجبه ، قال يا أبت مالك لا تخبيني قال « أخاف أن يسألني السلطان هل أجبت أحدا فلا أستطيع أن أقول شيئا » ولقد كانت لديه مندوحة في أن يفتي ، لكن الرجل التدوة لا يرى لنفسه الرخص ولا المنادح ، وإنما يؤثر في حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حر في الوفاء :

على هذه القواعد وأشباهاها قام ذلك البيت التجاري في دار ابن حريث بضلع عشرات من السنين تكفي للتمكين لتاجر صيت زاكى الاحدثة نقب في البلاد ذكره وذكر عروضة من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحف به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطاعة ، والوجه المصبوح خطاب توصية فيه القبول .

جاءت تكاليف الاسلام للناس كفاة وكان صاحب الرسالة أول المسؤولين عما يسأل الناس عنه كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بر ويأتي على أهله الليالي ما يجدون فيها عشاء ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهي مسندته إلى صدرها يا عائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هي عندي ، قال فأنفقها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها فلما أفق قال هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة ؟ قالت لا والله يا رسول الله . فدعا بها فوضعها في كعبه . فدعاها فاذا هي ستة دنانير فقال : ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم .

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يوما درهمين هما كل التخصيمات العمرية لهذا استطاع أن يضرب ولاته بالدرة ! ويضرب عامله على البحرين « أباهريرة » حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله ما بهتناكم لتتجروا في أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص : من أين آت إليه المال ويشاطره أمواله .

مر يوماً ببناء بينى بأجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعمري من عمالك قال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . وشاطره ماله ! ولما أخذ يستخاف قالوا له لو أنك عهدت إلى عبدالله - ابنه - فقال » بحسب أهل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد . . . ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لالى ولا على . »

لكن صاحب هذه النفس العنيفة يرى في فحمة الخلك أطفالاً جباعاً فيحمل إليهم الدقيق من دار الدقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم والدخان يخرج من خلال لحيته ! ! !
هذه العمریات التي تذر المفكر في ذهالة المتحير ، وهذا التوفيق الذي سددت به العناية الالهية خطي أبي بكر وعلى وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم في كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء جميعاً من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التاريخ الاسلامي ، ليست إلا أصداً متفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأهل من الرسول عليه الصلاة والسلام . ما يزال يدوى خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب السيار عن أن يدور . . . وإنما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المدى فهتزه النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة لأن الصوت الأصيل الذي يدوى في الأرض هابط إليها من السماء تصيب نفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا فانتقلوا من الجاهلية إلى هدى الاسلام وغدوا حكاماً وحكماً وعلماء وشرعين وشعراء ومخترعين وفنانين وأبطالاً في الوغى يجدون الأبطال . ليس ما أحدثوه إلا آثاراً مما أحدثه الصوت الأول فيهم فلما صعدت روحه إلى بارئها كانت كوعاء العطر إذا فضّ قدماه فاض العطر في كل مكان وانتشرا

مأمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعي ، ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ولا طارق بن زياد وأترابهم في كل فن من فنون العلم أو السياسة أو الحرب إلا رجال تضرع جذوة الايمان فيهم حرارة الرسالة التي كانت تغمر قلوبهم بالنور .

إنما هي الزعامة الصحيحة الملائم باليقين تخلق الناس خلقاً جديداً وتنعكس على أنفسهم شتى الانعكاسات ، فتحدث الأحداث متقاربة أو متباعدة ، في العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلاتهم

المصافة الزمنية والمكانية ، وإنما بهم الايمان الصحيح الذى يخاف القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان .

وسترى بعد كيف كانت حياة أبى حنيفة قدوة للفحول والأبطال .

كان أبو حنيفة خزازاً ، كما كان كثير من رجال الفقه بعده تجاراً وصناعاً . هذا الامام الخفاف احمد بن عمر بن مهران ، أبوه قهيس بن محمد والحسن صاحبى أبى حنيفة ، كان الخفاف يؤلف للمهندى بالله كتاب الخراج ، ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال ... وهذا الكرايسى يبيع الكريدى ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فاذا على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملى فى الابتداء « صناعة الاقلال » وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطاً ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب إلى العمل فى الجص ثم هؤلاء الصغار من يبيع الأوانى الصفيرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع المطر) والخولانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى ، والنعالى ، والبقالى ، والقندورى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبجهد أن انفجر فجر الحضارة الاسلامية ، أن هذه الأمة حققت فى المصور الأولى ما جاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه ، ولما يكذب يحققه ، أن ليس ثمة من ربيعة وأخرى وضيفة وإنما ثمة رجال رفيعون وآخرون لارفعة فيهم ، ويشهدون بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس سننه ، وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجعلت لها سهمها المسلم به فى أسمى الذرى ، فترى فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى : الفقهاء الصناع . والصناع الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معاً ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوبا .

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ، كان العلماء عنده تلامذة كما قال ميمون بن مهران وعبد الملك بن مروان الذى قال عنه ابن عمر : إن لمروان ابناً فقيهاً فاسألوه ، والمأمون عبقرى التاريخ الاسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبنى الذى يضم كتاب الرد على الخطيب البغدادى سنة ٦٢١ هـ ينضح به عن إمامه أبى حنيفة .

تلك شريعة أمية تنسج لجمهور الخلق في كل الأمم وكل الأعصر فهماً وتطبيقاً ، يفهمهما
 الأميون ، كما يفهمهما الأعلون من الخاصة لأنها (فطرة الله التي فطر الناس عليها) قوامها انصاف
 والسهولة والصراحة ، ففي حلقات البحث مضمار للافذاذ وللأفراد ، وللملوك أيضاً . كل ميسر
 لما خلق له ، فلا غرو أن يرقى إلى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها الرجل بهيمته
 لا بهيمته في حضارة لحمتها وسداها الإخاء ، يحب المؤمن بها لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه والمؤمنون
 فيها كالجسد الواحد ، (إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

تلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التي نشهدها في الحضارة الإسلامية تصدر عن أصل عميق
 يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الاسلامى بتاريخ الفقه فى سائر الأمم : فهناك يصدر فقه
 العبادات من الصوامع والبيع ، وهذا يصدره رجل الدنيا ... وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات
 مجتمعان . وهنالك بين المعاملات والعبادات خلاقات أى خلاقات ، فلا يتحدث عن العبادات
 فقهاء كفقهاء الاسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولسكن قسيسون ورهبان يستمرغون فى عزلتهم
 الفاخرة نعمة القداسة ويستنزلون فيوض الاطام ، أما الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة
 حقاً ولسكنها لا تعرف الرهينة ولا الطقوس ولا المراسيم ، وهى إذا كانت جهاداً ضد النفس وضد
 الكفر فهى أولا وبالذات دين إجتهد .

الباب الثالث

في المسجد

« الشعلة من الشرارة »

« يوسفين »

نحن الآن في المسجد الجامع . وإن شئت فقل جامعة الكوفة ، مسجد بنى في أهلك مكان من المدينة ليسع أربعين ألفاً و بنيت له ظلة تبلغ مائتى ذراع من أساطين رخام اتخذت من قصور الأكامرة . مال ميزان النهار ، وأخذت الكرة الصفراء المعلقة بين الكواكب كالمساعة ، يدب عقرباها إلى يوم المساعة ، تحدد مواقيت الناس . فيفدون للصلاة ويتطهرون بالوضوء ىر حضون أطرافهم ويفسلون وجوههم ، وينتعثون بعد ما عانوه فى سبيل المعاش ، إذ ينتقلون من الدنيا إلى حضرة الخالق فى ركعات معدودات . هنالك تسمع زجلاً للناس قد ألفوه بعد كل صلاة : إذ يأوون إلى ركن أو يلتفون حول واحدة من أساطين الجامع باحثين عن العلم وعن الفصل فى خصوصياتهم واستفتاء قضائهم .. هنالك حلقات عدة على القرب وعلى البعد . . . هذه حلقة مسهر بن كدام للقرآن والحديث ، وتلك لابن شبرمة يتقضى ويفتى ، وتلك لمحمد بن عبد الرحمن بن أبى لىلى قاضى الكوفة . وتلك حلقات أخرى للشعر أو للرواية أو للأدب واللغة ولحفظ القرآن أو لذلك كله مجتمعا . . يكاد المسجد لا يخلو من درس ، فأكثر الفقهاء يصاون أكثر الصلوات فى المسجد الجامع .

وحتى فاتحة القرن الميلادى الحالى كانت الجامعات فى العالم الاسلامى هى المساجد الجامعة ، فى الحرم النبوى كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس ويتحلق الناس حوله يعلمهم ويهديهم ، وفى الحرم المكى كان مجلس ابن عباس إلى جوار الكعبة أكرم المجالس . أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم فى واد واحد . وفى مصر وفى البصرة وفى الكوفة ودمشق وبيروت والقيروان وقرطبة وسوى هذه المدن التى خلع عليها الاسلام غلالات الحضارة كانت الفصول الدراسية هى حلقات الدرس فى صحن الجوامع ، بل كان الناس يجلسون فيها للمراء فتشتغل مجالس العزاء بقراءة الشعر ومناظرة الفقهاء فى المسائل الفقهية والأدبية والتقصصية وما إليها .

ولم يعرف نظام إنشاء المدارس لتدريس العلم خاصة إلا فى سنة ٢٨٣ هـ فى بغداد عنده ما أنشأ نظام الملك مدرسته ، وفى سنة ٤٠٠ أنشئت مدرسة نيسابور ، وتلتها مدارس قليلة لم تتسع لطالب العلم جميعا . وعلى هذا ظلت المساجد بيوتا للعلم كما هى بيوت الله .

كانت إلى جوار تلك الحلق في جامع الكوفة حلقة أخرى تحف بأبي حنيفة النعمان. لا يقبل إليها من صومعة أو خلوة ولسكن من سوق الكوفة أو دار ابن حريث ، أو من داره ، أو من أسفاره ، أي من صميم الدنيا ...

في هذا الجامع جلس من قبل رهط من الفقهاء منهم حماد بن أبي سليمان إلى أن وافته المنية في سنة ١٢٠ للهجرة ، وعاصم بن شراحيل الشعبي حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٠٤ ، ومن قبل ذلك جلس إبراهيم النخعي إلى سنة ٩٥ ، وجلس الأسود بن يزيد النخعي إلى نفس العام ، وجلس عبيد بن عمر حتى سنة ٩٢ ومن قبلهم جلس علقمة النخعي عم الأسود وخال إبراهيم يرتل القرآن أعذب ترتيل ويفتي الصحابة أنفسهم حتى سنة ٦٢ ، كما جلس شريح بن الحارث الكندي نحو ثلثي قرن يقضي ويفقه الناس إلى أن مات سنة ٨٢ ، وجلس مسروق بن الأجدع يفتي الناس ويبقى شريحاً حتى سنة ٦٣ ، ومن قبل هؤلاء جميعاً جلس زعيم مدرسة الكوفة عبد الله بن مسعود إلى أخريات أيامه ثم ودع مجلسه إلى المدينة حيث صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى في سنة ٣٢ لم تكن حلقة أبي حنيفة كسائر الخلق بل هي كانت تثير المشكلات في الداخل والخارج ، وتأني كل يوم بجديد . يتجلى فيها طابع التطهر في الجسم وفي العقل معاً ، فلا يستعملون الماء إذا استعمله سواهم . ومن أجل ذلك اتخذ أتباع أبي حنيفة للوضوء حياً ذات صنابير فتسبت هذه الصنابير إليه « الحنفيات » لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء والماء المستعمل غير ظهور عند أبي حنيفة .

كان سفيان الثوري يفتي بجواز الوضوء بماء قد توضع به الغير فلما سمع أن أبا حنيفة لا يجيز ذلك قال لم ؟ قالوا له : يقول إنه ماء مستعمل ، فجاء بعد ذلك بأيام رجل فسأله عن الوضوء بماء قد استعمله غيره فقال لا يتوضأ به لأنه ماء مستعمل فرجع فيه إلى قول أبي حنيفة .

فالحنفية التي تفتحها وتقفها صباح مساء هي الذكري المتجددة لهذه الحلقة المتأناة في طهارتها لاترد الماء إلا صفواً من الشوائب مثلما تراها من بعد صانعة بالآراء والأشياء .

وإذا كان من المسلمات في العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه

وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالاً للماء وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هي كالمصلة بين النظافة والماء ، فأى ذوق كان لأبى حنيفة من ألف ومائتي عام ! بل أى طهارة ، وأى حضارة وإذا كانت النظافة من الايمان فمن كأبى حنيفة فى نظافته وفى إيمانه . . !

من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين ، وينصح الحنفية بالاستياك عند كل صلاة ، ووضوء ، وكل ما يغير الفم ، وعند اليقظة من النوم ثلاث مرات بثلاث مياه ويستحسنون أن يكون العود لينالاً يابساً وأن يغسل المستاك قبل استعماله ، وأن لا يستاك وهو مضطجع .

ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) رأى أبو حنيفة ذات يوم على بعض جلسائه ثياباً رثة فأهاب بصاحب الثوب ليقبى بعد أن ينفرد عقد الحضور ، حتى إذا صار الرجل وحده قال له ، ارفع المصلى وخذ ماتمته فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم قال (خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك) قال الرجل إني لست احتاج إليها وأنا موسر قال أبو حنيفة (أما بانك الحديث (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) فينبغى لك أن تغير حالك حتى لا يغم بك صديقك . .)

ولئن دلت هذه العبارة على ذوق القائل إنها لتصور لنا الصبورة الحقيقية لهذا السيد السميع وتلك الحلقة الجذيرة بأن تسعى حلقة النظافة ، كما هي ولا مرأى حلقة الثقافة .

بلى : إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده والناس كخالف الناس - سبحانه - يحبون أن يروا أثر النعمة على من جباهم نعماءه . والشباب الرثة لا تطمن ولا تسر . وما لا يقبل شكاً لا ينظر فى موضوعه فالنفس تخضع لأحاسيسها الأولى أول ماتخضع . وأول ما يبدهك به الرجل منظره . ومظوره فقيم يفرض المتهاونون فى مظهرهم على الناس أن يفتحوا أعينهم على القذى قال جعفر بن يحيى وزير الرشيد خادماً أجهل معناه ألف دينار فأنى أريد أن أمر بالأصمى فإذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره . ثم صار إليه فحدثه الأصمى بكل شئ فلم يضحك . فقال له صاحب كان معه : إنه قد أضحكك بجوده فلم تضحك ، وليس من عادتك رد شئ . قد أخرجه من بيت مالك . قال جعفر : قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم . ولم أدخل له

بيتاً قبل هذه الدفعة ورأيت حبة (الجرة الضخمة) مكدرًا وعليه برنسكان (كساء أسود) منجرد وتحتة مهملٌ وسخ . وكل ما عنده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجي من مدبحة وهجائه . فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه

* * *

فرغ الشيخ من صلواته وتسبيحاته واحتبى بطيلسانه واستند إلى المحراب ، مشرق الديباجة طلق الحيا في بزته التي عهدناها وأقبل إلى الناس فحياهم وإذا كان راجعاً من السفر سأل كلا منهم عن خبره وحاله ، وإذا لم يك قافلاً من سفره فهو بين ظهور انهم يسهم في أمورهم ويتعهدهم ويواسيهم ، فإذا شرع في الكلام انجفل الناس إليه مخلفين حلقاتهم ، يتصففون حوله صفوفاً صفوفاً في رحمة لا تسمح للفتى الذي سيصير في الغداة إماماً وبطلاً (عبد الله بن المبارك) بأن يجد لنفسه مجلساً إلا في الصف الرابع أو الخامس ، أما في الصف الأول فتجد الفوج الأول ، أو الرعيّل الأول ، الزملاء القدماء : إسماعيل بن حماد وأبا بكر النهشلي وأبا بردة الضبي ومحمد بن جابر الحنفي يجلس معهم بين الفينة والفينة أساتذة الحلق المجاورة ، مسعر بن كدام - آية الكوفة في ورعة وحفظه وزهده - والحسن بن عمار - أستاذ الحلقة القريبة - يجلسان مع أترابهم إلى ذلك الذي لا ترب له . . .

وهؤلاء في الصفوف الأخرى . . . أسماء لها جرس بديع في الأذن زفر بن الهذيل ، كان أبوه وإلى البصرة وكانت أمه فارسية فورث من أمه وجهها ومن أبيه لسانه . . . ويعقوب - قتي من العامة ميعرف فيما بعد (بأبي يوسف) - والقاسم بن معن حفيد الزعيم الفكري للكوفة عبد الله ابن مسعود ، عالم في اللغة والأدب والشعر والحديث ، وهذا أسد بن عمرو البجلي والوليد بن أبان ثم هذا صف آخر فتمة وجوه جديدة : داود الطائي الذي سيرقى إلى الذروة في العلم ثم يفرق كتبه في الفرات ويصوم عن الدنيا أربعين عاماً ، يقرأ القرآن كأنما يسمع الجواب من ربه ، وفضيل ابن عياض ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ويوسف بن خالد السمتي ، ووكيع بن الجراح ، ومالك ابن مغول ، وحفص بن غياث ، وعافية الأودي ، وعلي بن مسهر ، والأخوان مندل وحبان ، ويحيى

ابن زكريا ، وعبد الله بن المبارك ، والمغيرة بن حمزة وستأتيك أنباؤهم بعد حين ...
وأخيراً وفي نهاية العمر ، جاء قتي ممين وضاء المحيسا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفاً ، سيدنفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ، أبوا أن يقبلوه إلا أن يحفظ القرآن فغاب وعاد يقول إنني حفظته في سبعة أيام ! لم يكده يجلس إلى الحلقة سنة أو سنتين حتى فارقه الشيخ إلى جوار ربه ، ذلك محمد بن الحسن الشيباني ...

وهؤلاء وهؤلاء .. يناهزون الأربعين عدداً : حلقة إسلامية بحق : فيها الموالى والعرب :
وفيهما أبناء الولاة وأبناء الشعب ، وفيها المخطون لأب وأم مختلفين عروبة وولاء .

بدأ الدرس وتطرح المتدارسون المسائل فإذا كان في الحلقة غريب حياء وبدأ به فقال له :
هات ما عندك ويتناظرون فلا يستبد بآرائه . بل يطرح مسألة مسألة يسمعون فيها ويسمعونه
ولا يرضيه منهم أن يأخذوا كلامه قضايا مسلمة حتى يفهموه فيقول : « لا يحصل لمن يقتي من كتبي
أن يقتي حتى يعلم من أين قلت » ويقول « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن من
قولنا فهو أولى بالصواب منا » يريد تلاميذه على أن يتعلموا الحرية معه ليكونوا أحراراً مع غيره فلان
يتعلموا الحرية في التفكير إلا إذا مارسوها في التعبير . ولن يتعلموها مع الناس إلا إذا تعلموها مع
الأستاذ وهو عندهم خير الناس .

ومن ألف عام قبل أبي حنيفة قال أرسطو عن أستاذه أفلاطون : أستاذي صديق والحق صديق
فإذا تنازعا فالحق أولى بالصداقة .

روى شاهد عيان : كنت عند أبي حنيفة وهو في مجلسه وعنده أصحابه فجاء غلام أو
شاب فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : أخطأت يا أبا حنيفة . فسكت ثم ألقى عليه أيضاً فأجاب
فقال أخطأت يا أبا حنيفة . فقلت لمن حوله من أصحابه : سبحان الله لا تعظمون هذا الشيخ ولا
تبجلونه ! يحيى شاب أو غلام فيخطئه وأنتم سكوت ! فالتفت إلى أبو حنيفة وقال « دعهم فإني
قد عودتهم هذا من نفسي » .

بلى : وأية غضاظة على العالم أن يخطئ أو يخطأ ؟ أليس على رضى الله عنه يقول (كنت
لا أرى مع أم الولد في زمن عمر .. واليوم فقد رأيت ذلك .) ! وأبدى ابن عباس رأيه في مسألة

من مسائل المواريث بعدم حوازاها (العوّل) وقيل له : إنك كنت تراها في زمن عمر قال :
(هبته وكان رجلا مهيباً . . .)

ذلك صنيع العالم يتراجع أمام حجة العالم حتى إذا بدت له معايبها عاد يصعد برأيه من جديد ،
والذى يرجع عن خطأ أمس إلى صواب اليوم لا يصنعه إلا لأنه اليوم خير منه أمس ! ورجوع
عمر نفسه عن خطئه كان مضرب الأمثال . ففيم يشفق الشاهد على أبي حنيفة إذ يقول له الغلام مرة
بعد مرة أخطأت !

ولئن كان يريد أن يعبر المعترض تعبيراً أخف ففيم ذلك أيضاً ؟ والأشياء لا تسمى بغير
أسمائها إلا في معارض النفاق ، والنفاق ليس من دروس أبي حنيفة . وإذا لم تسم الأشياء
بأسمائها في حقايق الفقه وحلقات الجدال فأين تسمى بأسمائها الأشياء ؟ إن الخطأ ليس إلا الخطأ
يسميه كذلك القائل الحر للمسامح الحر . وما عدا ذلك دهان لا طائل تحته وافتعال يضيع
الزمان سدى .

قال رجل لعمر بن الخطاب (اتق الله) . فأنكر ذلك بعض الحاضرين فقال عمر « دعه
فليعلم لي . نعم ما قال . لا خير فيكم إذا لم تقولوها . ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .
إن العظيم الحق لا تضيئه كلمة الحق . وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار عظمة الخالق كجناح
بموضوعة إلى الخالق العظيم السكواكب . فاعمل الحق أن يحييه من أى ذرة من ذرات هذا الوجود
أو أى رجل مهما يكن من الحمول والغدامة ، وهو لن يستطيع أداء رسالته إلا إذا وثق من قدرة
الله على أن يصلح الدنيا على يد سواه .

قيل لأبي حنيفة : لا يزال هذا المصر يخير ما أبقاك الله فيه فأجاب :

خلت الديار فسدت غير مسود ومن البلاء تفردى بالسود

وفي أواخر القرن الرابع دعا الناس بالتيروان على بن خلف المافري المعروف بابن القابسي

ليجاس فيهم معلماً فأبى فهدموا عليه بابه إذ أغلقه دونهم فلما رأى ذلك خرج ينشد :

لعمري أيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذ اقشعرت وصوَّح فبتها رعى الهشيم

ثم قال : وأنا والله ذلك المشيم وبكى وأبكى

فاذا نبت من المناظر كلمة ، فما أحلم أبي حنيفة ! وإذا تدهور صاحب المنيمة إلى الكلام الجارح فهو يتدف المهرم ، وينطح الطود الأشم . قال له الرجل يامبتدع يازنديق . فقال : غفر الله لك . الله يعلم مني خلاف ماقلت وإني ماعدلت به أحداً منذ عرفتته ... قال الرجل : اجعلني في حل . قال الامام (كل من قال في شيئاً من أهل الجهل فهو في حل . . وكل من قال في شيئاً من أهل العلم فهو في حرج فان غيبة العلماء تبقى شيئاً يعدم) .

ولقد بطول البحث في المسألة الواحدة أياماً وليالي أو شهراً أو أكثر من شهر فيدأبون على الدرس ويكبون على التخريج ، حتى إذا قتلوها بحثاً أثبتها أبو يوسف بعد أن يتولاهم الفحول بالقبول أو التفت الشيخ إلى من يكتب منهم فقال له (ضعها في الباب الفلاني .) ثم يشتغل التلاميذ بحفظ ماأعلموه فاذا أحكموه أخذوا في غيره ، وإذا استعصت مسألة أوغلوا فيها وتوفروا عليها حتى إذا قطعوا فيها برأى تهالوا بشراً وصاحوا صياح الفرخ قائلين الله أكبر الله أكبر !

ابتدأوا في مسألة الحيض نخاضوا فيها ثلاثة أيام متتابعة بالعداء والعشى فلما كان اليوم الثالث كبروا جميعاً لله ، وكان ذلك إيذاناً بأن مسائلهم قد خرجت .

وإذا وقف أمام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال « اللهم لا تؤاخذني » ثم يقف . وفي ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله في يده ، فكلمه زفر في مسألة فتجارياً يتنايان حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان فرجما إلى داخل المسجد . ورجما إلى المسألة ولم يزاها على ذلك حتى استقرت المسألة على قول أبي حنيفة .

ترى لو لم يكن هؤلاء القوم يعبدون الله بدراساتهم أكانوا ينقطعون هذا الانقطاع ذاكرين أن كل كلمة في شرع الله إنما هي سجدة من السجدة لذاته وتسيمة بالآله .

لقد كان وجه العلم لديهم هو وجه الله - جل شأن الله - يولون وجوههم شطره في المحراب أو في حلقة أبي حنيفة .

أليس الأستاذ قد أدبهم فأحسن تأديبهم حيث قال (من تعلم العلم للدنيا حرم بركتته ولم يرسخ في قلبه ومن تعلمه للدين بورك له في علمه ورسخ في قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه) .

أليس هو القائل لنا بقتهم أبي يوسف (. . . وإني بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تمرض عن العلم فانك إذا أعرضت كانت مدينتك ضسكا على ما قال الله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له مدينة ضسكا . ») بلى لقد علمهم أن العلم توفيق وإلهام وعبادة إذ كانت تشكل عليه المشكاة فيقول : ما هذا إلا لذنب جنيت . فيستغفر الله وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة ...

أجل وهو الذي طالما قال لهم (إن لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توقفوا) . وهذا الذي يقوله الشيخ لتلاميذه هو الذي قاله رسول الله من قبل (أفضل العبادة الفقه) خرج صلى الله عليه وسلم فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله . . فقال « كلا المجلسين إلى خير . أما هؤلاء فيدعون الله تعالى وأما هؤلاء فيتفقهون ويفقهون الجاهل . . هؤلاء أفضل . بالتعليم أرسلت » ثم قعد معهم .

كان الطلاب في الحلقة خشعاً قلوبهم ، عاتقة أبصارهم بالشيخ ، يديرون المسائل في عقولهم وألسنتهم بينما تكاد آذانهم تشرب من عباراته ، وهو يتكلم ، كأن ليس في المجلس أحد وكاه فقهاء ورؤساء ولكنهم سكوت خاضع والرقاب .

قال زفر (إذا تكلم خيل إليك أن ملكاً يلقنه ما يقول) . فمن فاته من الدرس فكرة ، أو ضاع من وقته فترة ، فقد نصف عمره ، إن لم يكن كل عمره . مات ابن لأبي يوسف فلم يحضر جهازه ولا دفنه وتركه على جيرانه وأقربائه مخافة أن يفوته من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عنه !

ضمن أبو يوسف على ولده بالوداع الأخير ليسبقني لنفسه ساعة من أبي حنيفة . . . فأية حكمة تلك التي كان ينهل منها القوم وأية نعمة هذه التي كانوا يؤثرونها . . . إن المرء ليعجز عن فهم ذلك من أبي يوسف إلا إذا ذكر موقفاً آخر له عندما اجتمعت له أسباب المجد فكان أصح تقديرًا إذ كان أبعد زمانًا ومكانًا . . . أيام كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذة ، حتى إذا مات صلى عليه الرشيد وقدرت ثروته بمليونين .

في تلك الأيام سئل عما يوده فقال (وددت أن لي مجلساً من أبي حنيفة ينصف ما أملك) قيل : ولم تتمنى هذا ؟ قال (في النفس حزازات كنت أسأله عنها) .

حقاً : كانوا يعلمون أنه يعلم ما لا يعلمون : روى أبو يوسف أنه جاءهم رجل يسألهم عن القرآن والشيخ فائب بمكة فأمسكوا عن الجواب قائلين : شيخنا ليس حاضراً ونكره أن نتقدم بالكلام حتى يكون هو المبتدئ بالكلام .

وقيل لأبي يوسف وهو قاضى القضاة : هل وددت إلى أكثر مما أنت فيه ؟ فقال (وددت إلى زهد مسعر بن كدام وفقه أبي حنيفة) . قال الرشيد ما تمناه أكثر من الخلافة . . . ولقد صدق الرشيد لأن ما تمناه بعض خصائص الأنبياء ، وأين الخلفاء من الأنبياء . . .

تلك الرهينة العالمية ورثها تلاميذ أبي حنيفة وتلاميذ تلاميذه فوهبوا أنفسهم للعالم وللدين معاً كمثل أبي جعفر النسفى ، يبيت ليلته مهموماً من ضيق الببال ، وكثرة الهيال ، فيقع في خاطره فرع من فروع المذهب فيهجب به ويقوم يرقص في داره ويقول أين الملوك ! وأبناء الملوك ! فتسأله زوجته عما حدث ... فيخبرها فتعجب ... !

وجاءت القزوينى زوجته وهو يلقي درسه فأسرت إليه خبر وفاة ولده شاب كان يحضر معه في كل يوم ولم يحضر معه في ذلك اليوم ، فأصرها بتجهيزه ولم يذكر للحاضرين شيئاً ، حتى فرغ من الدرس على عادته فقال إن محمداً دُعِيَ فأجاب فمن أراد الصلاة فليحضر !

ومن قبل أبي حنيفة بقرون جلس بلوتارك يلقي دروسه وبين سامعيه أورلينوس أحد عظماء روما . فدخل جندي برسالة من الامبراطور إلى أورلينوس وجزع الحاضرون وتوقف بلوتارك عن الدرس ، لكن العظيم الرومانى لم يفيض الكتاب إلى أن انتهت المحاضرة .

أولئك رجال العلم خشع في محرابه ، يأخذ عليهم ألبابهم جلال الدرس ، فليس كل أستاذ أبا حنيفة أو بلوتارك ، والساعات التى تتيحها العناية الالهية للناس إذ يجلسون إليهما ليست مما يسرف الفنى اللقن في إنفاقه .

وفي بعض الأحيان يطول الجدل فى الحلقة ويستخدم وتعالى الأصوات بلا ضبط حتى قال فيهم الشاعر :

قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهمو ثعالب صيحت بين النواويس

فاذا تكلم خفضت الأصوات وتفتحت الأذان والأذهان ، فلله حكمة قانون غير مدون ولكنه

في القلوب أنه « إذا تكلم الشيخ فسمعاً وطاعة » . لقد جاءوا إليه وهم أحرص الناس على لقياء وسماعه عالمين أن الفقه أرفع العلوم وأولاها بالتهيب والاستعداد ، عارفين أنه قيل له إن في هذا المسجد حلقة ينظرون في الفقه . فسأل (هل لهم رأس ؟ قالوا : لا . قال : لا يفقه هؤلاء أبداً) ..

بلى : كيف يفهم الناس بلا رؤوس ؟ وكيف تنظم الحلقات بلا رؤيس ؟

سمعهم مسهر بن كدام في صخبهم ثم بصر بهم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذ الأستاذ يتكلم فقال « إن رجلاً تسكن عنده هذه الأصوات لعظيم الشأن في الاسلام . » لكن الأستاذ ينشرح صدره لجهارة تلاميذه وجلبتهم ، فإذا نبههم الناس على أن ارتفاع الأصوات بالكلام لا ينبغي في المسجد قال « دعهم فلنهم لا يفقهون إلا بهذا . » ١١

إنهم لم يكونوا تلاميذ إلا لأن هذا الشيخ هو الأستاذ ، فاسوف تراهم الدنيا غداً فحولا دونهم كل الفحول والأفذاذ . لو شهدتهم حول أساطين المسجد الجامع لحببتهم في مؤتمر دائم لا يكاد ينفض .

مر أحد رؤساء الحلق المجاورة فوجدهم قد ارتفعت أصواتهم فأقام ماياً ثم قال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهمدين . ثم قرب إلى المسجد فقال لأصحابه : يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه مع ما هو فيه قد أقام عشر ليال متواليات شهدت الليلة التي مضت منها . .

كان محمد بن أبي ليلى قاضي السكوفة على رأس حلقة أخرى بالمسجد وكان كثير السكاة من تلك الحلقة التي تشرح أقضيةه ، لكنه كان يتلمس في الخفاء رضا الشيخ عن تلك الأقضية ، وإذا قدم ابن إسحق صاحب المغازي إلى السكوفة جراه في المسائل . أما مسهر بن كدام فيتترك تلاميذه ويجلس في حلقة أبي حنيفة فيقول له تلاميذه : نحن نسألك عن الأحاديث وأنت تجاس إلى أهل البدع ؟ فيجيب « لو قام أصغر من فيهم لأهل الموسم لوسعه علماء . . »

وإذا سأل سائل عن العلم فإن العلم مكانة ، والمفتي وقاراً لازماً لاستجاع الفكر يتنعم معه أن يفنى في عرض الطريق ، قال لسائله مرة « لا نسألك عن أمر الدين وأنا ماش أو أحدث الناس ، أو نائم أو متكى فإن هذه الأماكن لا يجتمع فيها عقل الرجال . »

والمرأة احترامها وحياطتها إذا جاءت إلى الحلقة تستفتيه فإنه ينهض إليها من وراء السارية فيفتيها ، ثم يعود إلى الدرس فيخبر تلاميذه بالموضوع وبالفتوى . ويقول عن الحجاب الذي ضربه بينها وبينهم « إنما غرضي أن أحصنها من أحداق الرجال » .

وإذا قام من الحلقة عاد مر يضاً أو شيع جنازة . بل إنه ليحمل سرير الميت من تلاميذه أو أصدقائه — آية وفاء وتحية وداع — أما دار ابن حريث فالريح تجري فيها رخاء وهلى يد الله . لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح . فالرجل الذي يتسم حياته بين يدي الله في داره طول الليل لا ينقص منه لنومه إلا قليلاً ، وبين يديه أكثر النهار في بيته يؤدي فريضة العلم لعباده والذي يخرج عن ماله الضخم في سبيل العلم وفي سبيل الله ، إنما هو رجل قد طبعه الجد والزهد والعبادة واشتمله جلال رسالته التي يحماها للناس . ولهذا لم ير مستجمعاً ضحكاً قط ، وإن كان يتسم لما يقهقه له الناس ولما ترن الضحكات من جرائه .. واتقته ليست على كل حال من خلائق السادة .

لقد ضحك مرة فكفر عنها بأن لم يضحك بعدها يوماً . . . كان ذلك يوم ناظر زعيم المعتزلة العظيم عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ والذي كان يطبع الجذ قسمايه وحركاته حتى ليظنه الرائي قد أقبل من دفن والديه ، وإذا تكلم حسبت الجنة والنار لم تخلقا إلا له ، ناظره أبو حنيفة في فتوته ، فظفر به فازدهاه الظفر بأنه أنعم الزعيم العظيم فضحك ، فرشقه عمرو بقاصمة الظهر قال : يافتي تتكلم في مسألة من الشرع وتضحك ! والله لا أكلمك بعد هذا أبداً . قال أبو حنيفة : فأنقطع الكلام بيني وبينه رحمه الله وقال إنه نادى على ما فرط منه أبداً . . . وهكذا عاقبه الله على ما ازدهاه وما انساقي إليه من المغالاة .

وإنه ليلقى درسه في المسجد ذات يوم فإذا بحية تسقط في حجره وهرب الناس فما زاد على أن نفخ الحية وجلس مكانه ، واضطرب الدرس ، وانخلعت أفئدة الفتيان وولوا فراراً ومثلوا منها ربعا . أما هو : والحية قد سقطت في حجره هو ، فقد استقر مكانه ، مستبقياً عنانه ، كأن لم يهبط عليه الموت الأرقط أو كما قال ولده حماد (فلا والله ما تداخل ولا تحول من مكانه ولا تغير . ثم قال : « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وأخذها بيده اليسرى فرماها بعيداً عنه) .

ذلك مظهر لقوة النفس ووقار الدرس . لسكانه إذ يجلس التلاميذ بين يديه يسجد في المحراب بين يدي الله .

ولو كانت المفاجأة قد راعته لما شأنه الارتياح للبهتات والفجاءات ، لكن سموه على طيش الفجاءة قد زاده كرامة ، وأضفى على ذلك الفضل أنه لم يتخذ في وقاره وضعا مسرحياً ولا مدرسياً بل استمر في درسه كأن لم يقع ما يريب .

اقتحم الخوارج مسجد الكوفة في إحدى غاراتهم عليها وأبو حنيفة وأصحابه جلوس فقال لأصحابه : لا تبرحوا . فجاءوا حتى وقفوا عليهم وقالوا لهم : ما أتم ؟ قال الأستاذ من فوره « نحن مستجيرون » ؟ قال أمير المغيرين : دعوهم وأبلغوهم ما منهم واقروا عليهم القرآن . فقرأوا عليهم القرآن وأبلغوهم ما منهم .

وبهذه البديهة المصعقة ، سلمت المدرسة الحنفية من خبطة مصعة ، ولو أمكن الله الخوارج منهم لأعمالوا فيهم السيوف ، ولكنه يريد نصرة دينه فلو هلكت هذه العصبة لهلك معها علم كثير ولتأثرت مصاير الفقة .

وهكذا جرت على لسان أبي حنيفة تلك الوثبة الفكرية الباهرة من وثبات الارتجال ، وجرت في خلد أمير الخوارج نسمة من نسعات التفتح الروحي وتذاكر المتحاوران في صمت قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) . وسما الخوارج عن سفك الدماء ، وسما أبو حنيفة في التعبير عن أن يقول : إنهم (مشركون مستجيرون) كما قالها زعيم المعتزلة واصل بن عطاء إذ هم الخوارج برأسه فمضم منهم رأسه ونفسه . لسكن أبا حنيفة يقف وما في الموت شك لواقف ، فيصيب في العبارة والإشارة ويستخرج من تلك الذاكرة الواعية أروع الآيات

كأن يرتفع بنفسه عن فضول الكلام وامتد الوقار من ذاته إلى عباراته فإذا حلف صادقاً في عرض كلامه تصدق بدهم ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين ديفاراً . . . قال جعفر بن ربيع : « أقيت عند أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتاً ، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دويلاً وجهارة في الكلام » . وليس يرجح غير ذلك

من رجل وهب نفسه للعالم خمسين سنة كاملة أو يزيد . يقرأ القرآن في كل وقت ، ويبرز في حلقات المتكلمين في صدر حياته حتى إذا بلغ عنفوانها قضى عليه القدر أن ينهض برسالة من الرسائل التي تدبّر لها الحضارة الإسلامية بأسباب البقاء .

والجسارة والدوى ، والسلاسة والتدفق ، وحسن الالتقاء — كانت ومازالت وسيلة المحدث النابغة إلى القلوب ، مثلما هي جواز المرور للكتاب والعالم والخطيب ، وكان ذلك شأن الناس من قبل الميلاد ومن بعد الميلاد ، من « ديموستين » إلى « شيشرون » إلى « ابن أبي طالب » إلى « ميرابو » ، وفي « أثينا » و « روما » و « بيزنطة » ، وفي أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى الحجاز » و « مكة » و « المدينة » و « العراق » و « مصر » ، وفي قصور الأمراء ، وفي رمال الصحراء ، وفي محافل باريس ولندرة وفي كل مكان .

وسيبقى ذلك شأن البيان في كل زمان ، والناس دائماً هم الناس ، وكما غير الزمان وجهه أظهر للعالم وجهه نفسه باعتباره وجهاً جديداً .

أما طول الصمت فظاهرة طالما لقيناها لدى العلماء والبلغاء فالعلم لا ينبع من القلب إلا عند استجمام فضله واستجماع عفوّه .

سئل الشافعي عن مسألة فسكت فقبل له : ألا تجيب رحمك الله ؟ قال « لا ، حتى أدرى أين الفضل ، في سكوتي أم في الجواب . »

من أجل ذلك . كان مجلس الشيخ مهيب الجانب (ورأيه لا يدفع بالهويناء) كما يقول الشافعي (ولو حدثك عن السارية أنها من ذهب لقام بحجته) كما روى مالك . كانت كأنه قطرات من البلور المذاهب تهب عليها نفحة من منطق الرسول الذي قالت عنه أم عبد (كأن منطقه خرزات نظم يتحدثون .)

والحضانة الفكرية لا يتيسر لها الجو الصالح إلا بالخلو إلى النفس بالسكوت ، أو كما قال ابن المقفع (ربما كانت البلاغة بالاستماع) . والذي يتحدث حديثاً صالحاً لا يتحدث إلا لداع ، فالحديث كلاماء يتخذون الوعاء ؛ فإذا ألقيت به في غير مكانه أو في غير أوانه أو أدليت به إلى ضمير جامد أو شعور بارد ، كان لا لون له ولا طعم فيه وهو السلسل العذب ، بل إنه ليخص به الشارب وتنتج منه عين الراى .

فاذا أدلى أبو حنيفة بذات نفسه فهو يدلى بها حيث يحمل الأدلاء ، ويجدر الافتاء ، وبصريح رأييه حيث تمترك الآراء ، وعندئذ يسيل كالسيل إذا اجتاحت جنبات الوادي .

قال « لا تحدث بفتك من لا يشتهيه فتؤذي جليساك . ومن قطع عليك حديثا فلا تعده فانه قليل المحبة للعالم . » وقال في إحدى خطبه « إن الكلام كثير ومحكمه يسير وإن الكلام لا ينتهي حتى ينتهي عنه وإن خير الكلام ما أريد به وجه الله » وقال لأبي يوسف وهو يحضه النصيحة « من جاءك يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم إليه غيره فانه يتشوش عليه جواب سؤاله .. ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فانه يذهب ماء وجهك » ..

على هذا النحو ظلت حلقة أبي حنيفة ثلاثين عاما تعمل في مؤثرها الدائم لتخريج المسائل الفقهية واستنباط أحكامها ، يتلقون المسألة فيقسمونها أقساما ويتولون كل قسم أياما وليالى بالتحليل والتعليل ، حتى إذا قعدوا قواعد راحوا يفترضون الفروض التي قد تقع في المستقبل وتداولها أدمغتهم كأنما تتناولها أناملهم بالرفق والحكمة والجماسة ، فتخرج أحكامها على أيديهم كالجنين الحى .. وانتشرت موجة الافتراض والتفريع فان مالا تكفى فيه النصوص تنفع فيه الأصول . ولئن صح قول ابن عجلان (إذا أغفل العالم لا أدرى أصيبت مفاصله) فان حلقة الكوفة كانت تعرف هذه القاعدة ولا تحتاج إليها ، ومع ذلك سامت مفاصلها ، ذلك بأن الأسئلة لم تكن تطرح على رجل واحد ولكن على مدرسة كاملة أعضاؤها أكثر . ولم يكن الجواب يصدر فور البديهة وإنما يصدر بعد البحث في المؤتمر . ولم يك وليد الفكرة وحدها وإنما كانت تطبق عليه قوانين وضمورها فكيف لا توجد القوانين الموضوعية ، والعقول الدائبة على البحث ، حلولا للأشياء .. إن الضعف الانساني يجبره طول المراتب والايان والتعاون والاخلاص ولقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبين العلم وإنهم لفاعلون .

ذكر ذاكر أمام أبي حنيفة قول الشعبي (لا أدرى نصف العلم) فرشه بكلمة لاذعة قال (فليقلها مرتين ليكون له كل العلم !)

وجرى حديث هذه الدروس في شبه الجزيرة وفي العالم الإسلامي كافة وشاركت الخمس

والجسود حجة التي يعم فيها شطر المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة في إذاعة أنبيائها،
فالشيخ في مكة والمدينة في كل عام تقريباً يناظر ابن جريح فقيه مكة، والأوزاعي فقيه الشام،
والليث بن سعد فقيه القسطنطينية، بل الليث يعمل على الخروج للحج إذا خرج أبو حنيفة لينظره...
والشيخ يجلس في المسجد الحرام يفتي أهل المشرق والغرب، وكبار الناس حضوراً، لا يرى أصبر
منه على الطواف والصلاة والفتيا بمكة، وهو كل الليل والنهار في طلب الآخرة حتى لقد شوهد
عشر ليال لا يهدأ الليل ولا ساعة من نهار من طواف أو صلاة أو تعليم. والناس يزدهون حوله
في المسجد الحرام من كل الآفاق فيحببهم ويفتيهم كأن المسائل في كفه يخرجها فيناولها إياهم في
أدب يأسر القلوب !

كان يفتي يوماً فوقف عليه جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة - الذي قيل إنهم رويوا له ٤٠٠
كتاب - ففضن أبو حنيفة له فقام وقال « يا ابن رسول الله لو شعرت بك أول ما وقفت ما رأيت
الله أقعد وأنت قائم » قال له « اجلس يا أبا حنيفة فملى هذا أدركت آباءى » .

وفي مكة إحتاح الوالي إلى شرط يكتب له فقال لابن شهرمة وابن أبي ليلى : اكتب فكان
إذا كتب هذا شيئاً أفسده هذا حتى إذا قدم أبو حنيفة على الأمير قال الأمير : احتجنا إلى شرط
كذا وكذا قال أبو حنيفة : قل لكاتبك يكتب فأملى أبو حنيفة عليه الكتاب فدخل ابن شهرمة
وابن أبي ليلى فقرأ الكتاب عليهما فلم يقدر أن يقول شيئاً وقال أحدهما للآخر بعد أن خرجا
أما ترى هذا الخائن جاء في ساعة فكتبه . قال له صاحبه (لا تقل الخائن فان الخائن عندى من
لا يقدر أن يكتب هذا القدر ويستروح إلى سب العلماء .)

فإذا ذهب إلى المدينة لقي زعيمها الجليل مالك بن أنس وكان أبو حنيفة لا يكلم أحداً إلا
قطعه ولكنه كان يرفق إذ يكلم مالكاً : كأننا يتدارسان بعد العشاء في مسجد الرسول حتى
إذا وقف أحدهما على القول الذى قال به أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تمخضه ولا
يزالان كذلك حتى يهتليا الغداة في مجلسهما !

قصداً يوماً إلى الحرم النبوى معاً ومالك قابض على يده يتشيان فلما بلغا المسجد قدم مالك
أبا حنيفة فدخل قبله . وكان مالك يجلس فيان الثوري دون المجلس الذى يجلس فيه أبا حنيفة ولا عجب

فان سفیان كان يقدم أبا حنيفة ويمشي خلفه ، وإذا سئل وهو حاضر لم يجب حتى يكون أبو حنيفة هو الذى يجيب .

مع ذلك كان أبو حنيفة يرهق ماله كما يحتاجه . قال الامام الليث (لقيت مالا في المدينة فقلت له : إني أراك تمسح العرق عن جبينك . قال : عرقت مع أبي حنيفة . إنه للقيه يامصرى ثم لقيت أبا حنيفة فقلت ما أحسن قبول هذا الرجل منك ، فقال أبو حنيفة : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام)

ومع ذلك كان مالك يقول « ما أحلمه » . ولولا حلم أبي حنيفة عليه لما تركه بتفصّد عرقا . نرى أية لحظات في تاريخ الانسانية كانت هذه اللحظات ! وأية أشعة من منار الفكر كانت تقبّادها هذه السكواكب في جوار النجم الأكبر الذى ما يزال يبعث شعاعه إلى الوجود الانسانى ! إمام مصر ، وإمام دار الهجرة ، والامام الأعظم ، في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم ! فأى رجال .. وأى خيال ..

وهكذا ساعد طول العمر وارتفاع المكانة وأسفار الشيخ في اتساع الدائرة واشتهار المدرسة : هذا ربيعة بن عبد الرحمن الذى تفقه به مالك ، والليث بن سعد إمام مصر ، ومالك ، والأوزاعي ، وابن جريج ، وجعفر الصادق ، وابن اسحق صاحب المغازى ، وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ، وابن أبي ليلى ، وابن شبرمة ، والحسن بن عماره ، وحزرة المقرئ ، والجرجاني عبد الكريم بن محمد ، وقتاده المحدث ، وحامد بن زيد إمام البصرة ، وأبو مقاتل السمرقندى ، وخارجة بن مصعب إمام سرخس ، والنضر بن محمد ومسر بن كدام وعمر بن ذر وعمر بن عبيد ، هؤلاء الزعماء الفكريون وكثيرون سواهم كانوا يملأون الأقطار الاسلامية بالنور وكانت لهم مع أبي حنيفة مقابلات تتلاقى فيها أضواءهم وآراؤهم بأضواء الكوفة وعلومها بين الحين والحين ، فكانوا يرون في بريق الشيخ وصفاته بشائر الفجر الطالع أو الفجر الطالع نفسه ، أما هو فكان يضيف من مقابلاته معهم في الكوفة أو في البصرة أو في مكة أو في المدينة خلاصات التفكير الاسلامى في كل أرجاء الامبراطورية الاسلامية إلى دراساته فيلقحها بالقاح جديد ليطلعها

بالطابع العالمي الشامل حتى إذا جادله سعيد بن أبي حجر ذات يوم قال : يا أبا حنيفة كل ما أخذناه
تفاريق من قوم شقي وجدناه عندك جملة ١ .

حقاً . لقد انتهى إليه العلم ليبدأ منه العلم من جديد ، وبحسبك أن تقرأ ما فات من أسماء ، وأن
تتصفح ما في الحلقة من أسماء وتستعرض من تلقوا عنهم من الفحول ، لتجتمع لديك القائمة الذهبية
بمنابع الفقه الاسلامي وروافده لا تكاد تنقص شيئاً . تلتقي تياراتها في مدرسة الكوفة منبعاً أو
مصباً . . .

لقد كان زمن الفتوح الفكرية وكان العراق بقعة الكموز المباركة ، فيها أسلمت دولة
بنى أمية روحها ومنها استمدت دولة العباسيين ودولة المفكرين روحاً جديداً أمدها بأسباب
الحياة .

الباب الرابع

المفكر

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »
« فرائده كريمة »

ارتفع الفكر الاسلامي في هذه الحلقة إلى أسمى ذرى الإدراك ، بينما كان العالم المعروف يسير في جهالات القرون الوسطى ، فجاء هذا الأستاذ الفرد ، بما لم يجيء به العلماء الكثر من قبل ومن بعد ، سواء في الشرق أو في الغرب ، يشيع في الناس مقولاته كما تشاع الأنوار معاناً آيات التسامح والتيسير والحرية . تسامح بين الانسان وأخيه الانسان ، وتسامح بين المخلوق والخالق ثم حرية في الآراء والأشياء لا يحدها إلا العقل والعدل وعمارة الدنيا .

حرية في الدنيا ومغفرة في الآخرة إذا تحققت أولاهما وقام الأمل في أخراها كانت الحياة جدرة بأن نحياها والآخرة حقيقة بأن نرجوها ولا نخشاها - فليست الحياة فكالا للأحياء ولا الآخرة جحيماً مروعاً وإنما الدين بسر وعلى الناس ألا يقنطوا من روح الله ، وألا يأسوا من مغفرته للخطيئة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال « رحمة مهداة » مأخيراً بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ماهو أيسر ، وإن لنا في رسولنا الأسوة الحسنة .

وهذا الأستاذ الشديد في حق نفسه ، الرفيق في حق الناس ، إذا خيراً بين التيسير عليهم والاعنات لهم فان خياره في اليسر بلا مرأ .

فمقيدته في الايمان أنه يتم (بالتصديق بالقلب والاقرار باللسان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر) .

فاذا صدق قلبك بالله وأقررت بايمانك بلسانك فليهنك أنك مؤمن . ولا بأس على إيمانك إذا لم تقم بالأعمال التي أوجبها الدين أو التي دعا إليها ، أو إذا ارتكبت وزراً غير الشرك بالله سواء أهملت الفروض كالصلاة والزكاة أو عمل الخير عامة أو ارتكبت المعاصي .

وإذا ارتكبت الانمان كبيرة من الكبائر - كالقتل أو الزنا أو السرقة - فلا يفقدن الأمل في عفو الله فهو إذا استغفره قد يغفر له ، ولا أحد يستطيع أن يتيقن أن الله معذبه عليها بل هو مازال من المؤمنين (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

بل إن الأجهل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة مادام قد أدى الشهادة فذلك كما يقول الأستاذ (أفضل لحصلتين : أما واحدة لأنه مؤمن . والآخرى لا تستيقن أن الله معذبه عليها البتة . . . والدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة . . . وجميع ما أمر الله به من فرائضه في جنب الاقرار بهذه الشهادة والتصديق بها أصغر من البيضة في جنب السموات السبع والأرضين السبع . .)

أما الشرك فظلم عظيم لا يغفره الله ، وفيما عداه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان . . . ومن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه وحسابه على الله ، وعسى الله أن يتوب على الناس .

ولئن (خلق الانسان ضعيفاً) إن عليه أن يعمل صالحاً في الدنيا ويتوب عن الخطايا مستقبلاً على نفسه نعمة الايمان آملاً في الغفران يوم الحساب .

تلك مقولات أبي حنيفة وهذا تسامحه ؛ بينما كان الخوارج يقولون حول الكوفة والبصرة وفي كل مكان إنه لا إيمان لمن لم يعمل ما أمر الله به ، فترك الصلاة كفر وعدم الصيام كفر ولا إيمان لمن صنع ما نهى الله عنه . فاقتل كفر والزنا كفر ، وأما المعتزلة فكانوا يقولون إن من لم يعمل بما أنزل الله فاسق : لاهو مؤمن ولا هو كافر ؛ بينما هؤلاء عند المعتزلة والخوارج فسقة أو كفار ، كانوا عند أبي حنيفة مؤمنين بحمل الدعاء لهم ، والرجاء فيهم ، والأمل في أن يتوب الله عليهم ، ويهديهم سواء السبيل - وهم جماهير المسلمين غير المعصومين - وعلى ذلك قال مقولته الجامعة (أهل القبلة كلهم مؤمنون ولا يخرجهم من الايمان ترك شيء من الفرائض) فلا كبيرة مع الاستغفار . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ولم يذهب مذهب جهنم بن صفوان في القول بعدم وجوب الاقرار بالايمان باللسان لما فيه من انعدام البيان وانتفاء الثقة . ولم يذهب مذهبه في الجبر وهو قوله إن الانسان مسير لا محير محكوم عليه بأعمال الطاعة أو المعصية بل كان يقول (لا جبر ولا تفويض ولا تسليط . والله لا يكلف عباده ما لا يطيقون . ولا أراد منهم ما لا يعلمون . والله أعلم بما نحن فيه . والصواب الذي عنده . . ونحن مجتهدون ولكل مجتهد نصيب) .

ذهب مالك والشافعي وابن حنبل مذهب أبي حنيفة في أن ترك العمل بالأوامر الدينية لا يكفر المؤمن ، فالتاس يعاملون تارك الفرائض ، ويزوجونه ، ويرث فيهم ويرثونه ، لكن الأئمة المذكورين مع ذلك قالوا إن الايمان يقوم على التصديق والاقرار والعمل أيضا ! فانه داخل في الايمان ! ثم قيل إن الايمان باق مع فوات العمل ! مع أن العمل لو كان ركنا وانتقض ، انتقض الايمان وزال !

ومن أجل ذلك راح البعض يفسر العمل فقال : إن من أجزاء الشيء مالا ينعدم الشيء بانعدامه كالشعر واليد والرجل للانسان والأغصان للشجر فاذا انعدمت بقي الجسم حيا ! وقيل إن العمل ثمرة الايمان تتبعه وتوابع الشيء قد يطلق عليها اسمه على سبيل المجاز ! وراح بعض آخر يقول إن العمل المطلوب . . هو عدم العمل . . أى عدم ارتكاب المكفرات مثل السجود للأصنام . . أما ابن حنبل فقال بتكفير تارك الصلاة دون غيرها من الفرائض . . . ! ويرى أبو حنيفة أنه لا تفاوت بين الناس في الايمان لأن الايمان لا يزيد ولا ينقص الا يزيد بعد إذ كل ، والزيادة ليست إتماما للايمان لأنه من دونها بلغ الكمال ، وهو يتم بمجرد أن صدق المؤمن بالله وأقر بايمانه ، ولا يزيد إذا تكرر الاقرار .

فلا تخف إذن منافسة الناس في ميدان الايمان ، ولا تخف تثريبهم ، فكل مؤمن ككل مؤمن وما دام الدين لله . والغفران مأمولا منه فقيم يقول الناس بتكفير الناس . إن ذلك كله متروك له سبحانه ، وإذا كان اللازم في الايمان الاقرار والتصديق دون العمل ، فحساب الناس عن الأعمال مرجأ إلى يوم الحساب .

وعلى المسلمين أن ينظروا في أمورهم وأن يذكروا الله في حياتهم ولا يتعرضوا للفتن . ولذلك فليس من رأى الاستاذ الخوض في أمر قتلة على وعثمان فتلك دماء طهر الله منها يده - هل حد تعبیر الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز لما سئلا عن قتلى صفين - فليتطهر من الخوض فيها لسانه ، والله وحده يعلم أى الفريقين كان على صواب . أو كما قال أبو حنيفة عن يخطئون من المسلمين عموماً » لكننا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى (خلطوا عموماً لئلا يغفلوا) واخر سبباً عسى الله أن يتوب عليهم) حتى يكون الله سبحانه وتعالى يقضى بينهم ، وإنما نرجو

الله لهم لأن الله عز وجل يقول إنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم) .

ومن أجل ذلك نسبوا إليه (الارجاء) وهو ما يترجمه المبتشرون بالفرنسية (بالتأجيل) وفي الانجليزية (ترك الأمر لله وحده) .

كان بالمسجد يوماً فدخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف فقالوا : يا باحنيفة نسألك عن مسألتين فإن أجبت نجوت وإلا قتلناك . قال : أغمدوا سيوفكم فإن برؤيتها ينشغل قاي . قالوا وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل باغمدها في رقبتك ! قال سلوا إذن . قالوا جنازتان بالباب إحدهما رجل شرب الخمر فمات سكران والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة : أهما مؤمنان أم كافران ؟ فسألهم : من أى فرقة كانا ؟ من اليهود ؟ قالوا لا . قال من النصارى ؟ قالوا لا قال من المجوس ؟ قالوا لا — قال ممن كانا ؟ قالوا من المسلمين قال قد أجبتكم . قالوا هما في الجنة أم في النار ؟ قال : . . . أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هو شر منهما (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وأقول كما قال عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) .

فكسوا الرأس ... وانصرفوا .

انصرف الخوارج بعد أن راعهم برباطة جأشه وانتزع منهم بجذاله القوى الاعتراف بأن مرتكبي هاتين المعصيتين مسلمان . وأضاف أن الله يغفر لمن يعصى رساله ، فانهصاة عباد الله والله يغفر لمن يشاء .

وجرى جمهور المسلمين على هذه القواعد في جهاتها وتفصيلها وما يزالون .

فأى ضمان للرقاب كان ذلك الضمان ، في وقت كان الشك فيه في الايمان مهدراً للدماء .

أياماً كان الرأي فان لأبى حنيفة — وقد تبعه جمهور الأمة وأهل السنة — هذه اليد العليا على

المسلمين إذ آهتهم من خوف ، ولم يقض مضاجع المنقذين منهم ، ولم يقض على أمل غير المتقين في يوم الحساب ، وبهذا حببت الحياة للأحياء ، ولم تحتوشهم زبانية العذاب في الحياة الدنيا ، قبل أن تستقبلهم بالمغفرة ، ملائكة الرحمة في الحياة الآخرة .

وبعد فما هو طابع فلسفة أبي حنيفة ؟ ما عنوان تلك الحياة الذي يتحصل فيه كتابها ؟ وما مفتاح هذه الشخصية الذي تديره في بساطة فتمكن من كل ما وراءه ؟ . .

طابع تلك الفلسفة ، وعنوان تلك الحياة ومفتاح هذه الشخصية ، هو التيسير ، والتسامح والحرية حرية وتسامح وتيسير بين نفسه وبين تلاميذه ، وبين نفسه وبين الناس ، وفي الأقوال والأفعال والأموال ، والعبادات والآراء ، وفي البيع والشراء . وفي كل الأشياء .

كان تلاميذه يخالفونه لمجرد أن يخرجوا ما عنده من كنوز ، سئل أبو يوسف يومالماذا قضى برأى أبي حنيفة وقد كان يخالفه فيه فقال : كنا نخالفه لنستخرج ما عنده .

وكما كانوا يحاولون أن يستخرجوا ما عنده من الكنوز ، كان يريدون على أن يخرجوا ما عندهم لتقوى شخصياتهم وتنمو ملكاتهم وتفيد الحلقة من نبوغهم .

ففي ذات يوم انتهى معهم إلى رأى في مسألة — وكان تلميذه عافية الأودي غائباً — فقال لا ترفعوها حتى يحضر عافية لنسمع رأيه فيها .

ولئن كان أفلاطون قد علق على باب مدرسته (لا يدخل علينا من ليس له عقل هندسى) إن أبا حنيفة طالما قال (اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد انسدت له) .

ولقد طالما قال (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) .

افتتح أبو يوسف وزفر عنده مسألة من حين طلعت الشمس إلى أن نودي بالظهر ، فكان إذا قضى لأحدهما على الآخر قال له الآخر أخطأت ما صحبتك ؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبي يوسف على زفر عندما نودي بالظهر ... فضرب أبو حنيفة على نخذ زفر وقال لا تطعن بالرياسة في بلد يكون هذا بها ...

وبهذه الحرية التي كانت لهم مع أنفسهم ومع الأستاذ اختلطت ذواتهم بذاته ، فمكنت للمدرسة أسباب النجاح . قال رجل : أخطأ أبو حنيفة . فقال آخر : كيف يخطئ ومعه أبو يوسف وزفر ؟ ثم عدد بقية من التلاميذ وقال : من كان هؤلاء جلساءه لم يكذب يخطئ ، لأنه إن أخطأ ردوه . وكثيراً ما تجد في المسألة الواحدة أربعة أقوال لكل من أبي حنيفة وأصحابه أقوال فيها وقد ترجح آراؤهم رأيه .

في هذه الحلقة كان الأستاذ يقول منذ أكثر من ألف ومائتي عام ما لم يقله الناس إلى اليوم في إنجلترا وفرنسا وما يزال فقه المذاهب الباقية يعارضه : — إن من حق المرأة أن تجلس على كرسي القضاء ... قاضية فيما تقبل فيه شهادتها ..

كان يقول إن من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها ممن ترغب . بكرة كانت أم ثيباً ، دون تدخل وليها ، لأن ذلك تصرف منها في خالص حقها — ولئن كان لوليها حق الاعتراض في حالة عدم كفاءة الزوج ، إن أبا حنيفة يقيد هذا الحق بعدم جواز استعماله إذا حملت الزوجة حملاً ظاهراً أو ولدت .

وكان يقول إن السكر البالغة لا يجوز لأحد أن يجبرها على الزواج بينما تجبزه المذاهب الأخرى في هذه الحلقة كان الشيخ الجليل يقول ما ينفرد به الانجليز اليوم في شرائعهم من أن الحجر على السفينة أو ذى الغفلة غير جائز لأن في الحجر عليهما إهداراً لدميتهما ، بينما يرى غيره الحجر صيانة لأموالهما تحكما لقوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) — أما أبو حنيفة فيشرح رأيه بأن مالك المال إنسان حر بالغ عاقل مكلف بكل التكاليف الشرعية ولم يسقط عنه شيء من الواجبات فكيف يمنع عنه ماله ! وإذن فالنص يريد أن يكون منع المال عنه تأدياً له ، والإنسان في أول أحوال البلوغ قد يفارقه السفينة لقربه من زمن الصبا . ولكن بعد تطاول الزمن به لا بد من أن يستفيد رشداً فحسبه حبس ماله عنه حتى تصل سنة إلى خمس وعشرين .

أما عن الحجر على السفينة بعد البلوغ رشيداً فيقول : لا أحجر عليه لأن النص إنما ورد بمنع ماله عنه لا بالحجر عليه في التصرفات . وأما قياس الحجر على منع المال فهو قياس الأعلى على الأدنى إذ غاية منع المال عنه إبطال نعمة زائدة وإحاقه بالفقراء ، والفقر لا ينافي الأهلية ولا الإنسانية ، أما الحجر عليه فهو إلغاء عباراته بعدم ترتيب آثارها عليها ، وفي هذا إبطال ولايته وأهليته وإحاقه بالبهايم ، وتجريده من نعمة أصلية من أكبر النعم وأجلها وهي البيان الذي يمتاز به الإنسان عن الحيوان .

وامتدت ظلال الحرية عنده فتعدت منطقة الفقه إلى عالم الاقتصاد فلئن كان العلماء

المحدثون قد دقوا الطبول لحرية التجارة في العصر الحديث ، إن مبادئهم لم تكن خافية على أستاذ السكوفة ، الذي يأبى التدخل في قانون العرض والطلب ، ولا يميز التمييز الجبرى على الناس . ووجه قوله كما روى الشافعى هو « سد باب التحكم على الناس في أموالهم التي لهم حق التصرف فيها كيف شاءوا » قال عليه الصلاة والسلام (لا تسعروا فان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق) والتمن حق العاقد إليه تقديره . ولا ينبغى للامام (الحاكم) أن يتعرض له إلا إذا تعلق به ضرر للعامة . لكن الأستاذ إذ يعترض على أن يتحكم الحاكم في أمان العروض يمترض على أن يتحكم أصحاب العروض في العروض ، فلا يبيح احتكار الأقوات ، إذا أضر هذا الاحتكار بالناس أو ضيق عليهم .

ولا ينفرد الناس بعطفه على أقواتهم بل يشمل عطفه قوت الحيوان . فذلك حالة دفاع عن المصلحة العامة يفضل فيها النظام على الحرية كما يفضل في حالة الفتنة فلا يسمح ببيع السلاح خشية الأذى .

وتناهت به الحرية إلى أن أصبح عدو القيد حيثما وجد القيد . وآية ذلك ماذهب إليه في نظام الوقف باعتباره قيداً لحرية الناس في تداول المال .

فلقد ذهب إلى حد القول ببطالانه . ومن نسبوا إليه أنه يجيزه قردو أنه يجيزه في ثمة العين الموقوفة لافى العين نفسها فانها لا تخرج من ملك صاحبها وتؤول إلى ورثته بهدماته . وأن الواقف لا يلزمه الوقف فيجوز له أن يرجع فيه حال حياته . وأن لزومه في شأن الثمرة كلزوم النذر ، يبتغى به من نذره ثواب الآخرة ، ولا يمكن إجباره عليه بحكم القضاء .

لكنما كانت بصيرته تخترق المصنوع من خلال الحجب ، وترى الرأى الحى الذى تهوى إليه أفئدة الناس بعد قرون وقرون

ويطول بنا السرد لورحنا نتقصى وقائع التيسير في تفكير أبى حنيفة فلنقتصر على بعض الأمثال .

بين الكتاب العزيز فرائض الضوء حيث قال « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى السكبين .
 فإذا طبق أبو حنيفة هذه الآية لم يحملها غير ما حامت من الفروض الأربعة وهي غسل الوجه
 وغسل اليد ومسح الرأس وغسل الأرجل .

أما غيره فقالوا إن على المتوضيء أن ينوي أنه سيتوضأ قبل أن يتوضأ ، وإنه إذا غسل عضواً
 قبل أن ينوي ، وجب عليه أن يعود فيغسله بعد أن ينوي . أما هو فلا يجعل النية فرضاً . وعنده
 أن الرجل إذا دخل الماء قصد النظافة فعم الماء أعضاء الوضوء صححت صلاته ، لأن الصلاة تتوقف
 على الطهارة وقد تمت له الطهارة .

وقالوا إن على المتوضيء أن يتبع ترتيب الآية : الوجه فاليد فالرأس فالرجلين ، أما هو فلا
 يرى ذلك فرضاً .

وقال قائلون إن على المتوضيء أن يتابع غسل العضو بغسل العضو الذي يليه قبل أن يجف
 العضو الذي تم غسله . لكنه لا يرى ذلك فرضاً . ولا كراهة عنده إذا لم يتتابع الغسل فلربما
 ينسى المتوضيء . ولربما يفرغ الماء فيعمد إلى إحضار غيره ويجف في إبان ذلك العضو المغسول
 وبينما ينتقض الوضوء في المذاهب الأخرى بمجرد لمس النساء « الأجنبية » بشهوة عند
 البعض ، وبغير شهوة أى بمجرد اللمس عند البعض الآخر ، يرى الحنفية أن الوضوء لا ينتقضه اللمس
 وإنما تنقضه المباشرة الفاحشة . . .

تلك نظرات الأستاذ المساح ، يخفف على الناس أعباءهم ، ويكفيهم خطر إعادة الوضوء في كل
 وقت ، وخطر فراغ الماء ، في أزمة وأمكنة لم يكن فيها الماء . يسوراً كما نجد الآن .
 وكما يسر الأستاذ على المتوضئين يسر على المصلين .

فهو لا ينكلف من يصلي بأن يرفع يديه إذ يفتح الصلاة . وهو يجيز أن تفتح الصلاة عنده
 بمباركة « الله أكبر » بلغة أجنبية وإن كان المصلي قادراً على النطق بها باللغة العربية لأن المطلوب
 هو تعظيم الله . وهو سبحانه وتعالى يعظم بكل لسان . بل هو لا يشترط في الافتتاح لفظ
 التكبير نفسه ، بل يصح بالتسبيح كقول المصلي « سبحان الله » أو بالتهاويل كقوله : « لا إله
 إلا الله » .

وهو وحده من الأئمة الذى أباح قراءة القرآن فى الصلاة باللغة الأجنبية مع قدرة المصلى على قراءتها بالمربية - ولو أنه قيل إنه رجع عن ذلك رأى .

وكما يسر على المصلين المتقيين ، يسر على المسافرين . فأوجب عليهم أن يقصروا الصلاة الرباعية « ذات الأربع ركعات » وأن يجعلوها ركعتين ولم يكتف بتجريد ذلك لهم كغيره بل أوجب عليهم التيسير إيجاباً . . . وحقيقة مذهبه فى ذلك أن الله لم يشرع فى السفر إلا ركعتين فلا يازم المسلم أن يصلى أربعاً ، ولو نوى أن يصلى أربعاً لا يقع فرضاً إلا ركعتان والباقي نافلة .

وتجاوز التيسير عنده العبادات ليتجلى فى أبهى مجاليه فى المعاملات . لقد انعكت أشعة الفكر العملى على كل فرع من فروع مذهبه وغدا (المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً) وصارت « العادة محكمة » حتى إذا عمد تلميذه محمد إلى وضع أحكام الصباغة لم يقتصر على تطبيق قواعد الفقه بل قصد إلى الصباغين يدرس معاملاتهم بين ظهرانيهم . . .

وتوج الأستاذ سماحة الرأى وسماحة النفس بسماحة اليد البيضاء ، فجعل من ذاته ومن حياته ملتقى يتجمع عنده وتصدر منه المعانى الرفيعة فى النظم السياسية والاجتماعية المسيطرة فى القرن العشرين للميلاد . إذ كان وهو التاجر العربى الثراء يخرج عن أكثر ماله للفقراء . ولا يستبقى لنفسه منه إلا قدرًا محددًا (أربعة آلاف درهم) هو مقدار نفقته ، وما عداه لا يراه حقًا لنفسه بل يراه من حق الناس . وبهذا سبق الفيلسوف الروسى تولوستوى بأحد عشر قرنًا وأضاف إلى سماحة الفكر والنفس اشتراكية الأستاذ الذى لا يختص بالله تلاميذه بل يشرك فى أهواله الناس جميعاً ، معاناهم أن ما يصيبونه منه ليس إلا حقاً لهم وإن كان الله يجزيه على يديه

* * *

كان أسلوب الأستاذ الفكرى هو الأسلوب العلمى الحديث وإليك بعض الأمثال :
فالنوايا فى فقهه كالنبوءات فى الفقه الحديث ليست هى الأسباب . والأحكام تبنى على الأسباب لا على النوايا لأنها ليست ظاهرة . فإذا ساءت النية وظلت خافية ، وحسن السبب وبرز للاعين ، فإن التصرف يصح شرعاً فى أمور الدنيا . وبهذا تجرى الأحكام على المعلوم لا على المجهول وعلى اليقين لا على الريب . وعلى الحرية لا على التحكم .

وإن من قواعده أن اليقين لا تزيله الشكوك :

فإذا كان زواج المنة محرماً شرعاً لأن المقصود به استمتاع الرجل بالمرأة مدة من الزمن على غير ما يرمى إليه الزواج الصحيح من ارتباط الزوجين رباطاً أديماً فقد ذهب البعض إلى إبطال الزواج إذا كان قصد المنة فيه مضمراً عند العقد . لكن الأستاذ يرى البحث في النوايا مخطرة يكتنفها من الأخطاء قدر ما يحدق بها من الأخطار . وإذا كان قصد المنة خافياً عند العقد فكيف يتأكد منه الناس ؟

ولهذا أباحه وإن نوى الرجل أن يبقى زواجه مدة نواها مادام لم يذكرها في العقد . ومن الأحكام الشرعية أن المرأة إذا طلقت طلاقاً نهائياً لم تحل لزوجها حتى تتزوج من سواه ثم تطلق منه . يريد الله بذلك أن يهذب أنفس الناس ويبين لهم أن الطلاق أبغض الحلال إليه فلا يستعمل إلا عند انقطاع الأسباب ، وأن على من جازف بالطلاق أن يدفع مثلاً اندفع في رقبة خيبة الزواج الثاني ، والقسريح من الزوج ، وقبول الزوجة أن تعود إليه ، وهي احتمالات آخرها أعسر من أولها ، يتنفل فيها المطلق من مجهول إلى مجاهيل ، تعذبه فكرة انتقال الزوجة على هذا النحو الذي تفرع منه الطبيعة البشرية .

ولكن ما القول إذا اتفق (الطرفان) والزوج الجديد على أن يكون الزواج الجديد طريقاً للوصول إلى الزوج القديم . وأن الزوج الجديد لبس إلا (المحلل) الذي يعقد على المرأة في تزوجها على أن يطلقها لتعود إلى الزوج القديم . .

هل يتحقق في هذا الزواج قصد الشارع . أم هو غير مقصود لذاته . وإنما مقصود به ذات السيد القديم ؟

في هذه المسألة ذهب أئمة الفقه مذاهب شتى . وبحسبنا أن نعرض بعضاً منها .

قال أبو يوسف : إن زواج المحلل فاسد ولا يحل للزوجة أن تعود للزوج القديم . وقال محمد : إن زواج المحلل صحيح لكن الزوجة لا تعود للزوج الأول لأنه يستعمل ما أخره الشرع فيعامل بنقيض قصده .

وقال مالك : إن زواج المحلل فاسد ويعاقب الزوجان عليه ويعاقب الشهود إن علموا . وقال ابن حنبل : إن الزواج باطل .

أما الشافعي فله رأى وسط بين الآراء انتهى إليه بعد أن قدم إلى مصر قال : إذا ورد عقد زواج المحال مطابقاً بلا شرط فيه وكانت نية الزوج أن لا يمسكها إلا قدر ما يصيبها ليحلها لزوجها الأول فإن الزواج صحيح ولا تفسد النية شيئاً منه لأن النية حديث نفس وقد ينوى الشخص الشيء ولا يفعله . أما إن تزوج الرجل بشرط أن ينتهي الزواج بالدخول واللمس ليحلها من زوجها الأول فهذا العقد باطل .

تلك آراء الأئمة في التحليل مختلفة كما ترى . وهى من قديم ليست محلاً للاتفاق . أرسلت امرأة إلى رجل فزوجته من نفسها ليحلها إلى زوجها فأمره عمر بن الخطاب أن يقيم معها ولا يطلقها وأوعده إن هو طلقها أن يعاقبه .

أما الإمام الشعبي فقال : لا بأس بالتحليل إن لم يأمر به الزوج . وأما الليث بن سعد - إمام مصر - فرأى رأياً رقيقاً قال : إن تزوجها ثم فارقتها لترجع إلى الأول فإن الثانى ذلك للأول بعد دخوله بها لم يضره .

وهذا الاحسان الكريم الذى يشير به الليث قد روى مثله عن أبى الشهداء وشهيد كربلاء حتى ليخيل للباحث أن صنيعه قد ألهم الليث فكرته جملة وتفصيلاً . . . قالوا . إن الحسين بن على لم يتزوج أرينب بنت إسحق رغبة فى مالها أو جمالها . فلقد كانت زوجة عبد الله بن سلام إذ خدعه معاوية فأنفذ إليه الرسل أن سيزوجه من بنته ، وأفهم عبد الله أن بنت أمير المؤمنين لا ترضى أن تكون لها خيرة ، فطلق أرينب فى انتظار بنت الخليفة ثم مضى رسول آخر إلى أرينب فى العراق يخطبها لولى المهدي يزيد بن معاوية . وكانت قد شفقتة حباً فلجأ إلى أبيه يستفتيه فدبر له الأمر على ما ترى - حتى إذا بلغ الرسول العراق لقي الحسين ، فقال له الحسين إذ عرف رسالته : إني كنت عزمت على الزواج منها وأردت الإرسال إليها ولم يمنعني من ذلك إلا سؤال مثلك . فاخطب رحلك الله على وعلى يزيد ولتختار من اختاره الله لها فلما عرض الرسول الأمر عليها قالت (اختلى أرضاها لديك . قال : إنما عليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك إنما أنا ابنة أخيك . فلما لم يجد بداً من القول . قال « ابن بنت رسول الله أحب إلى . . » فاخترته وساق الحسين إليها مهراً عظيماً . وبلغ معاوية ما كان من فعل رسوله قال : من يرسل ذا بلاهة وعنى يركب من

أمره خلاف ما يهوى ولقد كنا بالملامة منه أولى حين بهتناه .

وكان عبد الله قد استودعها قبل الطلاق بدرات مملوءة دراً ، فاحتاج إليها بعد أن أهدره معاوية ، وقصد إلى الحسين بعلمه خبر ودائعه ، فلما أخبرها الحسين قالت : هي عندي بطابره الذي طبعه عليها ، قال الحسين لعبد الله : ادخل عليها وتوف مالك قال : أو تأمر بدفعه إلى جعلات فداك . قال : لا حتى يقبضه منها كما دفعته إليها ، فلما دخلا عليها أخرجت البدرات وقالت له : هذا مالك فشكر لها ، وخرج الحسين ففض عبد الله خاتم بدره ، فحشا من الدرختوات . وقال خذى فهذا قليل منى لك واستعبرا جميعاً أسفاً على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لها للذى سمع منهما فقال : . . أشهد الله أنها طالق ثلاثاً . اللهم إنك تعلم أنى لم أستنكحها رغبة منى فى مالها ولا جاهها ولكنى أردت إحلالها لبعائها ولم يأخذ مما ساق إليها فى مهرها قليلاً أو كثيراً وحاولا أن يرداه إليه فلم يقبله وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه . فتزوجها عبد الله وعاشا متحابين حتى قبضهما الله إليه .

تلك آراء الأئمة ، لكن رأى أبى حنيفة أن العقد صحيح على الإطلاق ولو شرط فيه أنه (عقد التحليل) أى صرح فيه بأن الزوج يتزوج المرأة ليحلها لزوجها الأول .
تنحصر مطاعن خصوم أبى حنيفة فى هذه المسألة فى أنه يستمسك بظاهر النص حيث تقول الآية « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » ويقولون إن الآية يراد بها مؤدى العقد وهو الاستمرار لا حرفية العقد وهى مجرد عمله .

لكن ثمة أموراً متفقاً عليها تضيق بها شقة الخلاف ويبين منها ما يعمد إليه أبو حنيفة من التيسير والتعمير والإصلاح ما استطاع .

فالقبح الذى يستقبحه خصوم أبى حنيفة فى المحال يستقبحه أبو حنيفة بقدر سواء ، والعقد عنده مكروه كراهة التحريم ، ثم إن دخول الزوج الثانى بالزوجة واجب عنده لأن الرسول عليه السلام قد أفهم بذلك امرأة ترافعت إليه فى الموضوع وذلك رأى الصحابة والتابعين ولم يذهب أبو حنيفة فى مسألة المباشرة — المس — مذهب شاذة قليلين على رأسهم سعيد بن المسيب لم

يوجبوها فذلك مذهب لا يخفى أنه في غاية المجانة والفضاحة ولو قضى به قاض لا ينفذ لوقوعه باطلا ولا ينفذ بالتنفيذ .

فلم يبق إلا الشرط المقرون بالعقد وهو شرط فاسد عند أبي حنيفة ، والشروط الفاسدة عنده تفسد عقود المعاملات المالية ولا تفسد غيرها من العقود كعقد الزواج ، وإنما لكل امرئ ما نوى وقد سلك الطريق المفضية إلى الزواج في ظاهر الشرع .

ثم إن المحال غاية أنه نوى الطلاق إذا وطئ المرأة وهو مما ملكه الشرع إياه . كما لو نوى المشتري إخراج المبيع من ملكه إذا اشتراه ، أو نوى في عقد مما اشترى إتلاف المبيع وإحراقه أو إغراقه فلا يقدح ذلك في صحة البيع ، ولو اشترى عسيراً في نيته أن يتخذة خيراً ، أو جارية ومن نيته أن يكرهها على البغاء ، أو سلاحاً في نيته أن يقتل به معصوماً ، فنكل ذلك لا أثر له في صحة البيع فالتسك بصريح النص ليس احتيالا ، والكراهة الدينية شيء ، وانعقاد العقد القانوني شيء آخر والدين لله ، والدنيا لنا .

وإذا طبق الفقيه النص تطبيقاً يجمعه ظاهر النص وصريح اللفظ فليس ذلك احتيالا كما يحتال أرباب الحيل الممقوتة ، مثل التحيل للربا ، أو لمنع الصدقات . كمن يقي الرجل بأن يهب ماله لآخر إذا أوشك العام على الانتهاء ثم يستوهبه إياه فلا يتم عام على المال في يديه ولا تستحق عليه الزكاة . وكلا رتداد لفسخ الزواج . أو ذلك الساخر الذي حلف ألا يأكل رغيفاً أو قطفاً من العنب أو قمحاً ، فأحل نفسه من اليمين بأن أكل الرغيف إلا لقمة ! والقطف إلا حبة .. أو طحن القمح وأكله خبزاً . فذلك هزل بارد لا يستماع .

وبحسب أبي حنيفة نفراً أن التاريخ لم يرو عنه أنه سخر براعته في التخريج والتكليف للخدمة سلطان أو نصرة ذي جاه .

قال الشعبي : (لا بأس في الخيل فيما يحل ويجوز . وإنما الخيل شيء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به إلى الحلال . فما كان من هذا ونحوه فلا بأس به ..) وحضر سفيان الثوري مجلساً فلما أراد الخروج منعه فحلف أن يعود ، ثم خرج وترك فعله كالناسي لهافه أخرجه عاد فأخذها وانصرف

ورأت امرأة عبد الله بن رواحة زوجها على جاريتها له فذهبت وجاءت بسكين فصادفته وقد قضى حاجته فقالت : لو وجدتك على الحال التي كنت عليها لوجأتك ١ فانكر ، قالت : فاقراً إن كنت صادقاً . قال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرين ١

قالت الساذجة : آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى ١١١

وبلغ ذلك النبي فضحك ولم ينكر عليه هذا التحيل بإظهار امرأة لما أوهم به زوجته أنه قرآن تخلصاً من غضبها لتفهم أنه ليس جُنُباً حيث لا يقرأ القرآن إلا المطهرون .
ولئن ثار البعض على الاحتيال ، فكم في فمه أبي حنيفة من الأصول التي تثور في وجهه الاحتيال . وكم باهى الفقهاء بالحيل في حل مشكلات الإيمان .

يحسبنا أن نستعرض أحد المخارج التي أدهش بها الليث بن سعد بلاط الرشيد : قالوا إن هرون الرشيد جرى بينه وبين زوجته كلام فقال لها « أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة » ثم نديم واستحضر العلماء من شتى الأقطار فلما اجتمعوا سألهم فاختلفوا . . . وكان في آخر المجلس شيخ هو الليث بن سعد سأل فقال إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم . وأمر باحضار مصحف ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فلما انتهى إلى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قال : أمسك يا أمير المؤمنين . ثم استخلفه بالله قائلاً : إني أخاف مقام ربي فقال : يا أمير المؤمنين فهما جنتان لاجنة واحدة ١ . قالوا فسمعنا التصديق والفرح من وراء الستر — ولا جرم كان الستر يحجب كواكب القصر ١ — فقال له الرشيد : أحسنت وأمره بالجوائز والسمع وأمر له باقطاع الجيزة ، بل ولا يتصرف أحد في مصر إلا بأمره .

وروا من حيل أبي حنيفة أن رجلاً أتاه بالليل فقال : أدركني قبل الفجر وإلا طلقت امرأتى قال : وما ذلك ؟ قال تركت الليلة كلامي فقلت لها : إن طلع الفجر ولم تكلميني فانت طالق ثلاثاً . وقد توسلت إليها بكل أمر أن تكلمني فلم تفعل — قال الشيخ : اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر فلعلها إذا سمعته أن تكلمك واذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن . ففعل الرجل وجلس يناشدها وأذن المؤذن فقالت : طلع الفجر وقد تخلصت

منك .. 1 قال قد كلمتني قبل الفجر وتخلصت من اليمين .

أما مخارج أبي يوسف فكانت غذاء شهياً للرواة ، وسنرى فيما بعد بعض ما قدموا اليها .
في فترة معاصرة وضع كتاب أسماء صاحبه (كتاب الحيل) نسبة خصوم أبي حنيفة إلى أبي حنيفة وقابله الرأي المقتضى في كل مكان بالاستنكار لما فيه من مخارج تؤدي إلى الكفر الصريح ومن المقطوع به أن أبا حنيفة أو أحداً من أصحابه لم يضعه فان مذهبه ومذهب أصحابه أن من يأمر بالكفر كافر .

ولم يذكر أحد من تلامذته أو رواة مؤلفاته كتاباً له من هذا القبيل ولا روى ذلك أحد من الثقات .

قالوا (ما وضعه إلا إبليس) فقال عبد الله بن المبارك « الذي وضعه إبليس من إبليس » وابن المبارك — كما قد علمت — تلميذ أبي حنيفة .

كان الأسلوب التعليمي لأبي حنيفة يضاهي الأسلوب التعليمي في أحدث الجامعات من حيث التحليل والتعليل وتأصيل الأصول وترتيب النتائج مع التجرد العامي ، تجري فيه التطبيقات العملية على وقائع خيطة تنطبع في الذهن وتنضبط في الوصف ، لأن العمل وحده هو الذي يثبت العلم ويثبتته ولهذا أنشئت نظم (الأقسام) في الجامعات لتدريس التطبيقات ، وهذه الدراسات العملية في القانون تقابها دراسة التشريح في الطب . ودراسة المعامل في العلوم وما إليها .

ولعلك لا تجد قضية كقضية (أم عمران) بين القضايا التي يتدارسها الطلاب في معاهد القانون استعرضتها مدرسة أبي حنيفة أيما استعراض شهدت الواقعة ، وشهدت المحاكمة ، ثم تولتها بالبحث ، والنقد ، وتناولت الحكم الصادر فيها بالتعليق الدقيق .

كانت بأم عمران جنة ، وكانت بازاء جامع الكوفة فربها رجل فتناوشا فقالت له : يا ابن الزانيين .

وكان القاضي في المسجد قد سمع السب فأمر الرجل أن يدخل أم عمران عليه في المسجد فأدخلها ، وأقام عليها حدين ، خدماً لأبي الرجل وخداماً لأمه .

وعرفت حلقة أبي حنيفة هذه الواقعة وهي على قيد أذرع من المحكمة في المسجد الجامع فلم تهن في انتقاد القاضي وقلب أستاذها له الأمور إذ رد قضاءه إلى الأصول ، أو إن شئت تعبيراً عصرياً فقل أخذ « يَكَيِّفُ الواقعة » و « يناقش التطبيق » وقال :

أخطأ ابن أبي ليلى في ستة مواضع . . . ١

الأول : أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود في المساجد .

الثاني : وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً .

الثالث : وضرب لآبيه حداً ولأمه حداً ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد .

الرابع : وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

الخامس : والمجنونة ليس عليها حد .

السادس : وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيديان .

فالجنون كمانع من موانع العقاب ، وتعدد العقوبات ، وتعدد الجرائم ، وطريقه المحاكمة ، واختصاص المحكمة ، وقضاء القاضي بعلمه ، ومكان التنفيذ ، كل أولئك أمور تكاد تكون أم الكتاب في الفقه الجنائي ، وثبتت إلى خيال الشيخ فور البديهة في مكان الحادث ، وفي وقت وقوعه ، فعلمها تلاميذه كان ذلك شأن أبي حنيفة فإذا كان شأن القاضي ؟

وهو من هو في تاريخ الكوفة : محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، صاحب الرأي والأستاذ الأول لأبي يوسف وثالث ثلاثة من جلة الفقهاء كانت تلمع أسماءهم في سماء العراق عامة وفي الكوفة خاصة ، شريك النخعي ، وسفيان الثوري وهو :

إنه لم يقرع الحجة بالحجة والكنهه راح يقرع باب الأمير .

وشكلاً للأمير فأمر الأمير أبا حنيفة ألا يتعرض لقضائه .

لكن أعداء العالم كأولياؤه في الحاجة إليه سواء فقد امتنع عن الفتيا أياما حتى قدم عليه رسول من ولي العهد يستنبئه في مسائل فقال : أنا محجور على ، وعاد الرسول إلى الأمير وقال الأمير : قد أذنت له ففعد فأقضى . .

سأل رجل أبا حنيفة عن فتح خوخ ، في حائطه فقال : افتح ما شئت . ولا تطلع على جارك .

وشكاه إلى ابن أبي ليلى فمنعه فعاد إلى أبي حنيفة فقال : افتح فيه باباً ، فمنعه ابن أبي ليلى فعاد إلى أبي حنيفة فقال : كم قيمة حائطك ؟ قال : ثلاثة دنانير قال : اهدمه ولك على الثلاثة فجاء ليهدمه فرفعه الجار إلى ابن أبي ليلى فقال ابن أبي ليلى : يريد هدم حائطه وتسألني أن أمنعه ؟ اذهب فاهدمه واصنع ما شئت في جدارك قال الجار : كان فتح الخوخة أهون عليّ ١١
وهكذا حاور القاضي والخصوم بين يديه حواراً عملياً أخضع الأشخاص كالأشياء والآراء لسلطانه .

وفي ذات يوم اجتمع الفقهاء لدى الأمير يستفتيهم ، فأدلى كل برأيه ، وأدلى أبو حنيفة برأيه وأدلى الحسن بن عماره برأيه ، فقال أبو حنيفة : أخطأنا وأصاب الحسن .
وقال الحسن : لو شاء أن يقيم قوله ويردني من قولي لأمكنه فعلمت أنه ليس أورع منه .
بهذا وأمثاله كان الحسن يأخذ بركابه وهو يقول « والله ما أدركنا أحداً تسكلم في الفقه أبليغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنك لسيد من تسكلم في الفقه في وقتك غير مدافع ، وما يتكلمون فيك إلا حسداً » .

الباب الخامس

الشمس الممينة

« العلم شيء لا يعطيك بمضيه حتى »

« تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه »

« كلك ، من إعطائه البعض على غرر »

أبو يوسف

آلت إلى أبي حنيفة رياسة الحلقة وهو في الأربعين بعد أن ظل عاكفا على أستاذه قرابة عشرين عاما سبقتها دراساته ورحلاته ، فاذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة . وإن أول ما يعضهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للافتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهني والاستعداد الروحي .

مرض أبو يوسف مرضاً أشقى عليه منه فكان يتهيده حيناً بعد حين وسار إليه آخر مرة فرآه مقبلاً بعد أن أبل فرجع ثم قال « كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير . » فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبي حنيفة ، وقصد إليه الناس يتحلقون حوله ، وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر . فطوى السنين القهقري واسترجع الذكر . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه في نحو الثلاثين من عمره في ضحوة الصبر ، والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصل من أستاذه وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فبعد من جهاد مقهده السابق سنوات جديدة ، لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا إليه صديقاً سيره إليه يحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول في رجل دفع إلى قصار « وهو الخياط الذي يقصر الثياب » ثوباً ليقصره بدرهم فقصر إليه بعد أيام يطلب الثوب فانكره . ثم أن صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فردّه إليه مقصوراً فهل له أجر ؟ فإن قال له أجر قل أخطأت . وإن قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب في صباه يعمل عند قصار صديقاً « وكان أبوه على ما قيل خياطاً » ولعل هذا سر اختيار السؤال فاذا عجز الأستاذ الحدث عن الجواب في مسألة له بها من كل ناحية عهد فتعسا للعلم الذي يدعيه .

ومشى الرسول يحث الخطى إلى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب ، قال له أجره .
قال أخطأت ، فاطرق ملياً ثم قال لا أجره له قال أخطأت ... ! وُعْثِيتَ الأنباء هلى الفتى فأبلس ،
وأسر الندامة لما رأى الخطأ ... وانطلق من مجلسه انطلاق السهم إلى الرمية إلى حيث ملاذه
وأستأذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك إلا مسألة القصار .

قال أبو يوسف . بلى .

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفق وقعد مجلساً يتكلم فى دين الله وهذا قدره لا يحسن أن
يجيب فى مسألة من مسائل الاجارات !!!
أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى .

أبو حنيفة : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجره له لأنه قصره لنفسه ، وإن كان قصره
قبل أن يغصبه فله الأجره لأنه قصره له صاحبه .
أبو يوسف : !!!

أبو حنيفة : من ظن أنه يـتغنى عن العلم فليبات على نفسه ... !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدراراً وعاد إلى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره ، ولولم ينسه الشيطان
لتذكر ما ذكره أبو حنيفة (اعلم إن العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير
أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لا بد منه فى المفازة مع الهداية ، أنفع من
الجهالة مع الزاد الكثير) أو قوله (من تكلم فى شيء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله
عنه كيف أفتيت فى دين الله فقد سهلت عليه نفسه ودينه) وقوله (من طاب الرياسة فى غير حينه لم ينل
فى ذل ما بقى) ولذا كر قول النبي عليه الصلاة والسلام (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتمازوا به
السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار)

ولما تقدم حماد بن أبى حنيفة يوماً ليصلى بالناس أخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره وقدم غيره

فقال حماد : يا أبت تفضحني ! قال « بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لو صليت ففقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر في السكتب ويبقى عاره إلى يوم القيامة ! »

ولما أخذ بعلمه وجهه إلى دراسة علم الكلام حيناً ثم صرفه عنه فجادله حماد بقوله (أأنت كنت تأمرني به) قال « بلى وأنا اليوم أنهارك عنه » قال « ولم » ؟ قال « يا بني إن هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى كافوا على قول واحد ودين واحد حتى نزع الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ثم قال « كنا نجتمع وكان الطير تخفق على رؤوسنا . . . وقد بلغني أن قوماً يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام . . . وإننا همة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عايه فإذا بلغ الكلام هذا الحد ، فتركه خير » . وفي عبارة أخرى من عباراته « كنا نفاخر وكان على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » .

وإذا كانت هذه نظرة أبي حنيفة إلى العلم وأهل العلم وهذا إنصافه للعلم من نفسه ومن ولده فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا : بل إنه ليضيف يداً إلى أياديه عليه فيهديه ، ويجادله بالتي هي أحسن ، لا بقوارص الكلام ، ولا بمواجهة ثقته في نفسه مواجهة المستزري لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه ليكون في حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد كان هذا الصنيع الذي صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفته الأستاذ الموفق يهدي فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ لكان محتملاً أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدي ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظاً غليظ القلب ولم يمسك بتأنيذه ذلك الممكر الجليل .

وما أعظم ما يؤتي حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له تكون أطول أهلك عمراً فأعطاه وكرمه وقربه ...

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم في هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول (العلم شيء

لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كأك، وأنت إذ تعطيه كأك، من إعطائه البعض على غرار).
ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم. ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكننا
كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء.

* * *

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة. وبفن آخر هو الطريقة المثلى للاقناع. هو الذى يحدث الجرس
الأخاذ والرنين النفاذ، ويحيل الصعاب بسائط. هو تقديم العلم في وعاء من الحب، وخروج
الكلام من القلب إلى القلب. واستيلاء المتحدث من فوره على الروح.
وليس يستطيع ذلك إلا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع في طاقتها أن تبعث إلى أنفس
الناس شعاعاً دافئاً دافئاً كأنه الكهرباء.

قال الحسن البصرى للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه « يا هذا . . . إن بقلبك لشرأ
أو بقلبي ».

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس، كما تجلت في مناهج الدرس، فسيطر على تلاميذه
بالقصد والترفق، والصبر والترفع. فلم يكن يؤكل في حلقة لحم الصديق ولا لحم الخصم. وسما عن متاواة
خصومه إلى الاستغفار لهم، فلك لباب تلاميذه وبهر أبصارهم. وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان
يسقيان من ماء التسامح، وأن المؤاخاة فيهما أدنى إلى الهدى من الملاحاة، وأن الغيبة قذف في
السامع قبل أن تكون قذفاً في الغائب، وأنها على كل حال لعنة على المفتاب.
وتواضع الأستاذ لله فرفعه في أعين الناس وتلاميذه، وبصروا منه بما يبصر به المقربون،
وظفروا عنده بما لا يظفرون به البعداء، وأعزهم الله به وأعزه بقربائهم و « لا وحدة أوحش من العجب »
كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان الثوري يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة -
ما سمعته يغتاب عدواً له! قال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها!

قال له قائل يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد! قال « هو فضل الله يؤتيه من يشاء ».
ومن بعد ذلك يبضع قرون قال الحكيم الفرنسي لابروبيير « إن التواضع بالنسبة للشخصية

كالظلال بالنسبة للصورة توضيحها وتظهرها وتجليها .

ولما سئل الفارابي . . أنت أعلم أم أرسطو ؟ قال « لو أدركته لكنت أحسن تلاميذه وقال « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني أحتاج لمعادته .

قيل لأبي حنيفة اتق الله ، فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال « يا أخى جزاك الله خيراً ، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم .

ولم يدخل عليه داخل وخاض في حديث الناس الاقطع عليه خوضه . . وكان يقول (إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس عفا الله عن قال فينا مكروها ورحم الله من قال فينا جميلاً . تفقهوا في دين الله وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم) .

قيل له هذا الذي تفتننا به هو الصواب بعينه ، قال « ما أدري عسى أن يكون الخطأ بعينه »

وقال يهذب تلميذه يوسف السمطي قبل خروج يوسف إلى البصرة (. . . ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك و تعاهده برسلك . . ومن تكلم فيك بالتبريح فتكلم فيه بالحسن والجميل . . وأفش السلام ولو على قوم لثام) ثم كشف له عن السحر الذي يسحر به الفقيه مناظريه قال (ومتى جمع بينك وبين غيرك مجاس ، أو ضمك وإياهم مسجد ، وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافاً ، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا . فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك فإن قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء . فإذا استمروا على ذلك والفرد ، عرفوا مقدارك وعظموا محلك . وإياك والحق وإن غدروا بك وأد الأمانة وإن خانوك . .) .

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه . ويقول اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله إليك .

وكان هذا الحميص الصائم الذي لا تجد في داره إلا البوارى يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ويبيع البضائع إلى بغداد فيشتري الأمتعة ويجمع الأرباح ليشتري بها حوائج

المتعالمين ، يقوتهم ويؤنسهم ، ثم يدفع إليهم لدنانير قائلا « . أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فانها أرباح بضائعكم . . مما يجريه الله لكم على يدي . . »

فلنختصر في السرد ولنذكر عنان الحديث لأبي يوسف حيث يقول .

(كنت أطلب الحديث والفقه وأثار الحال ، فجاءني أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فأنصرفت معه فقال لي يا بني لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فان أبا حنيفة خبزه مستو ، وأنت تحتاج إلى المعاش فقصرت عنه كثيراً في الطيب وآثرت طاعة أبي ، فنفقتني أبو حنيفة وسأل عني فجاءت أتماهد بحمسه ، فلما كان أول يوم أتيت به بعد تأخرى قال ماشغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والذي جلست ولما أنصرف الناس دفع إلي صرة وقال استمتع بها فاذا فيها مائة درهم . وقال لي الزم الحلقة فاذا فرغت هذه فأعلمني . فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى ، ثم كان يتهديني وما أعسمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت) .

كان أبو يوسف في نهضة الشباب حين وقعت هذه الوقائع . جاء إلى الحلقة تاركا حلقة محمد ابن عبد الرحمن ابن أبي ليلى وقد قصصنا من قبل بعض آثاره .

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعاً : العلم الديني ، والعلم الدنيوي وأموال تكاد لا تحصى ، ووظيفة دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هرون الرشيد .

فلنرجع البصر إلى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله (لا حسد إلا في اثنين رجل أتاه الله مالا فسلطه على ماله كنه في الحق ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) ويهدين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد فيمنح المال في سبيل الخير ويقضي بالحكمة ويعلمها منحاً ليس له أول ولا آخر وتعلما يكاد تضيق عنه حدوده هذا الوجود وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أريحيا مرفه الحس ، يدرك وحى المين ودخائل النفس . يعطى من فوره ، ويعطى في الميعاد ، وقد بنا قال الحكيم العربي (خير الخير أوحاه) . وأقدم منه قول الرومان (إن من يعطى فوراً يعطى مرتين) . والبدار في ذاته فضل ، ثم هو يعطى

في غيبة الناس فلا يشهد على العطاء إلا نفس صاحبه ، في أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه إليه عن
هانة الابتذال .

وأى رشاقة كرشاقة اليد العليا وهي تدفع المال إلى اليد الأخرى دون رنين أو اتعاج ، فتقدمه
في صرة لاصوت لها ولا يريق منها يزعج الأعصاب ، في إسماع يسكر البصر ، كل أولئك وهو
مع تلميذ له لا بأس عليه إن هو خلع ثياب التخرج في شأنه . لكن القريب عنده كالغريب . وكذلك
الذي ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عايه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الشرب
الخالق ، وذلك المدين الذي لا يجلس في ظلاله ! يصنع الصنيع دائماً في استخفاء وعلى استحياء وفي
تلطف كتلطف الملمس ، يقطع بأنها السجبة المطبوعة لا النحبة المصنوعة ، فاذا شكر أنكر
الشكر ونقله إلى شيخه حماد .

قال أبو يوسف (وكان يعولني وعيالي عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك .
يقول كيف لورأيت حماداً وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه) .
وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأستاذ ورواده .

قال لأبي يوسف ينصحه (وأقبل على متفقهك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً
لتزيدهم رغبة في العلم) ونلك النصيحة هي الصنيع الذي طفق يصنعه طوال حياته ، لا ينفك يسأل
عن المريض من تلاه يده حتى يبرأ وعن الغائب حتى يرجع ، وعن غير المريض وغير الغائب ، لم
يعرف عنه أنه اختص ولده حماداً بعطف كما اختص تلاه يده ، قال عصام (لم يكن لأحد من الحق
كما لأبي حنيفة على أصحابه . وكان الذباب إذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه) .

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للفتيا لم يك إلا مثالا ميمونة
العواقب ففي واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده ، وفي الأخرى دعاه إلى الاستزادة من
العلم ، فأوتى منه بسطة سمت به إلى أرفع الذرى بين أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو يوسف له
هذه اليد بقوله (إني لأدعوه قبل أبي يوسف وسمعتة يقول أني لأدعو لحامد مع أبي)

وهكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه بينما يسوى أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه
وكلاهما على الانصاف لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه . . وعلى النحو الذي كان يدركه

أبو يوسف بقوله : (تغمّد الله أبا حنيفة برحمته ، وجزاه خيراً ، فإنه أطمعني الدنيا والآخرة إطعاماً) .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطاءه إن الحديث نفسه ليس بمقدار ما كان يتوخاه من إخفاء - - والوقائع التي سردنا من قبل تتم عنه وتقرره - - فكم من التلاميذ لم يعلموا أياديه لقد أعلنها الحسن بن زياد إذ كان يلزم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن ، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السعدي . واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وإن كان فقيراً أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صديباً من العطاء حتى يتعلم ، فإذا تعلم قال له : قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا أنه كان معروفاً بالافضال على كل من جمعهم به الأسباب ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل النعمال النابه مراراً ويسره إسراراً ، غير ممنون ، ولا مجذوذ ، ولا مُصرّد مما لا ينقع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده أو من أعطيات الأمراء لكافته له درجة فضل ، ولو وقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء . ويزيده سموا أنه لا يوزعه صدقه يطمع بها في ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالانفاق وسبيل صالحة لعبارة الدنيا بالعلم . فلانسانية العليا هي المبدأ والمنتهى . والأمل المشتهى . لاحسن ثواب الدنيا . ولا حسن مأب الآخرة .

ويرتفع الفضل إلى سماء ما طاولتها سماء إذ يصنعه صاحبه ليتمكن الدين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك للعطاء المالى أو المادى ، نغنى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ . هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى في حياة أبي حنيفة ، وهى قيام مدرسة كبيرة منظمة كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده فى الانفاق وفى التهذيب ، فى إخلاص للعلم كأنه العبادة .

جاء إليه رجل بكتاب شفاعته ليحدثه فقال (ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على

العلماء ليُبيِّنَنَّه للناس ولا يكتُمونه . لا يكون العالم له خواص لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه) .
ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خالف من بعده مالا غير مارد للناس من ردائهم فهو العالم
بأن ثروة المفكر هي الفكر ، فإذا خلف المفكرون من بعدهم أفكاراً فقد أنجبوا ، أما ما
يخلفون من عروض وأموال فهي كسائر ما يخلف الموتى من العروض . تتناهى في النقصان بقدر
ما تتناهى في التداول والتعامل . وأما الفكرة فهي النور تتناهى في الانتشار كلما تداولتها
الأنفس ، وتتناهى في الازدهار كلما أُرِدَّتْها الأذى ، فلا على صاحب الفكر إذا هو أغنى الدنيا
من بعده وأفقر أولاده فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال
فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون وإن ما يتركونه صدقة للعالمين
فاذا سألت عن تيجي ، مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذوذ في
السؤال .

إنما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال يزول ، وإن
حفل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس
بعد إذ تطبق عليهم أجفان الثرى .

إنما الفكرة شيء إلهي فهي كائن حي لا يموت . وهي الجوهر الحر الذي يورث ويدفع
الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء - ولا يخلد الفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع
والأتباع ، ولهذا كان تلاميذ أبي حنيفة قطعاً من نفسه ، ربط بينها وبينهم كما ربط بينها وبين
أسناده في شجرة النصب العلمي ، يذكرونهم مع أصوله وأسنته كما مثل بين يدي ربه . قال
« ماصليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت عليه علماً ،
ومن علمته علماً . »

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البواري ، وهو هو القدي يوزع الدنانير آلافاً
مؤلفة وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها قال صاحبه : لك عيال ، قال الله تعالى للعمال ...
وإما قوتي أنا في الشهر درهمان ... ثم قرأ وفي السماء رزقكم وما توعدون .

أما الظاهرة الثانية فهي أن الرجل الكبير يبنى أول ما يبنى بأن يبني الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلّوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفي تاريخ مصر الحديثة خلد جمال الدين الأفغاني بغير مؤلفاته ، وبتلاميذ سموا إلى أرفع ذرى المجد في ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبي كما كان محمد عبده في الإصلاح الديني وسعد زغلول في الإصلاح السياسي وإبراهيم الهلباوي في المحاماة ، مع قليل من الرجال والمؤلفات هم السجل الذي حصر التاريخ فيه تركمة الزعيم الفكري العظيم الوارد من الأفغان أو من إيران ورود آباء الامام الأعظم .

ولأن يبنى الرجل الكبير رجلاً كبيراً خيراً على الوجود البشري من كل آثاره ، فكيف إذا بنى رجالاً كباراً عظاماً .

فاعمل النفس الإيمانية خير ما عبرت به يد القدرة الإلهية عن الله سبحانه . والرجل الصالح يبنى الممالك و يقيم المذاهب و يشرع الشرائع و يبني الرجال من جديد

وإن من الرجال من كان أجدى على الإيمانية من إحدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة مهتماً عندما احتضن أبا يوسف ومحمداً وزفر والحسن وباقي الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ماورثهم ، في جهد يومي متصل ، يهدف إلى غاية كبرى تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف ، كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع في النهر الجارى فيربو الوشل وتصبح الحفنت من الماء فيضاً نازحاً كالسيل العرم ترحم البحر وتعلن وجودها في أجلى مجاليه ! بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الإيماني قوة عارمة ، ومن العمل الفردي عمل فيلق ، ومن الجهد اليومي جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طينياً في سماع التاريخ وأنعاماً في فم الزمن .

وبهذا بلغت مدرسة أبي حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة الكبار ، فيضعون أيديهم على مضارير التشريع الإيماني في شتى بقاع الدولة ، وغدت الأسماء التي تلونها من قبل يتحلق أصحابها حول الشيخ سجلاً بأسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول وبدأت حركة التدوين على طراز الإنتاج الضخم الذي بدأه محمد في

كتبه وجري على غرار الحسن بن زياد ومن تبعهما فاذا عوا فضـل المدرسة في الزمان كله ،
وإذا بالمدرسة تخرج نسا كآ وزهاداً إلى جوار الحكام فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين ،
والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويألها من يد على العلم : أن
يتخذ سبيلاً إلى السعادة في الدنيا لا تبتلاً محضاً أو رهبانة خالصة ! وبهذا أقبل الناس على ارتياده
في سبيل الله ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الرباني والدافع الانساني معا .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس فتولاها تلميذان كافا من الدولة الاسلامية في أزهى
عصورها حضارة ، أعظم رجالاتها جدارة ، نعى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن وتبعهما بقية
الرهط وتلاميذهم فاضحوا في عين الدولة وأعين الناس ، اتجاها فكرياً جديداً هو الاتجاه المفرد
الجدير بالاسلام .

كان العناية الالهية قد كشفت لأبي حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف
في قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة (لكأى بك قاضياً)
وهي النبوءة التي قال عنها الرشيد فيما بعد (لعمري إن العلم يرفع دنيا وديناً) وترحم على أبي
حنيفة ثم قال « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف في السابعة والثلاثين عندما توفي أستاذه كما كان أرسطو في السابعة والثلاثين
إذ مات أفلاطون . ولم يرأس أبو يوسف الحلقة كما لم يرأس أرسطو مدرسة أفلاطون وإذا كان
الغضب قد ملك أرسطو لذلك فإن رئاسة زفر للحلقة بعد أبي حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان
عليه زفر من العبادة والورع والتكريم في حلقة أبي حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة الميدي والهادي والرشيد ، وبلغ مجده أوجه في عهد
الرشيد إذ نقلت له عن النظام الفارسي وظيفة قاضي القضاة أو عالم العلماء (موبدان موبد) . كان
هو الذي يوصى الخليفة بتعيين القضاة في شتى أرجاء الدولة وكان يؤا كاه ويحج معه - عدلا له -
ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد (جاءت به معتجراً ببرده)
وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر

كان معه كارسطو مع الاسكندر ، تلميذين في عمر الورود لأستاذين في خريف العمر . كتب له في كتاب الخراج يقول (. . .) وقد كتبت لك ماأمرت وشرحت لك وبينته ، فتفقهه وتديره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاء . .)

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه في مقابر فریش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زييده أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق في فراشه . سمعه سامع فقال : لو شاء الله أن يجعل العلم في جوف طير لفعل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثاً في السماع الواحد ثم يقوم فيملئها على الناس . . .

أصبح لفقه أبي حنيفة على يد أبي يوسف مايتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيء لها القدر رجالاتاً في دست الأحكام وهي ظاهرة تولاهها المؤلفون الغربيون في السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقهاً رسمياً بالقضاء وبالافتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه في كراسى القضاء حتى صار الناس في بغداد يسمون مذهب أبي حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبي حنيفة على المذاهب كافة وعظمت تلك القوة - كما عبر أحد خصوم أبي حنيفة - (لأن العلم والسلطنة حصلا معاً) .

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا في بداية أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفي بالعراق والمالكي بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفي نقاحاً جدد شبابه وأكسبه المناعة وهو اللقاح العملي الذي يتجاوب مع أطوار الحياة بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة وبفقهاء الأمصار وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها في الحضارة .

وفرض أبو يوسف سلطانه في كل مكان حتى إنه ليجعل ابنه يوسف قاضياً على الجانب الغربي من بغداد وإماماً للحجيج عندما حج الرشيد وفي صحبته أبو يوسف . كان شريك خصم أبي حنيفة يهجم في نفس العام وسأل عن يصولي الناس ، فقالوا له يوسف بن أبي يوسف قال : الآن طالب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه وياله من سلطان على صاحب السلطان ! كان إذا حرّبت الأمور فزعوا إليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات .

زعموا أن زبيدة غاضبت هرون الرشيد - خلف الرشيد يميناً بالطلاق ألا تبيت ليلتها في بلد يدخل في ولايته . فلما سمكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله في نفسه ، والتاريخ يذكر مبالغ ماشفته حجاباً رشفها ، فأظلمت الدنيا في عينيه ، والظلام في عين الرشيد هو العمى في أعين البلاط . . . ! فاشتد الخطب وفدح الأمر ، وكما ماتت الشمس في الأفق ، ودنت حمرة الشفق ، سرت في أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وباخت القلوب الحناجر ، ودارت أعين الحاشية كالذي يغشى عليه من الموت وتصابحوا إلا أين نصر الله ؟ . . .

ألا إن نصر الله قريب . إن فقيه البلاط بين رجال البلاط ! يابا يوسف أفنتا في أمير المؤمنين وأميرة المؤمنين !

فليأت أبو يوسف بالخوارق . قال . . . فالتبت أميرة المؤمنين بالمسجد . . . فانه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد . . .

والله سبحانه وتعالى يقول (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم للإمامة بالمسلمين فصنى الرشيد ركعتين وسلم ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر فنادى رجل من أهل مكة : يا أيها يوسف نحن أعلم بذلك منك ومن علمك ! فأجاب أبو يوسف « لو كنت أعلم لما تسكمت في صلاتك ! »

كانت هذه وحدها كافية لتبتهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط الوحي وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء قال أبو يوسف « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا في الشعاب والأودية فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف في حضرة الخليفة . . . !

أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول : « هاتوا لي مثله » !

وخصوصاً إليه أمير المؤمنين الهادي في بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له لكن الحق كان

الخصمه . قال الهادى لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى تتنازع إليك فيه ؟
 قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده على حق .
 قال الهادى : وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه . قال الخليفة أرد البستان عليه . . .
 لكنه إذ يحتال ليرد الهادى بستان الرجل إليه لا يحتال من أجل من دونه : شهد الفضل بن
 الربيع وزير الخليفة عنده يوماً فرد شهادته فمات به الخليفة قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته
 يقول أنا عبدك ، فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً كذلك .
 بل إنه ليحلف الرشيد فى قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد مع ما كان من تسامى السرّوات
 ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات إليهم .

جلس الهادى يوماً للمظالم ويجواره عمار بن حمزة فوثب رجل وتظلم من عمار فى شأن ضيعة
 معروفة بالكوفة ثمنها مبيون درهم ادعى أنه غصبها منه قال الخليفة لصاره ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟
 قال : إن كانت الضيعة لى فهى له ، وإن كانت له فهى له ! ووثب وانصرف !!
 وقالوا : كتبت أم جعفر إلى أبى يوسف تقول ماترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء إلى أن يكون
 الحق فيه كذا . فأنتاها بما صادف هواها ، فبعثت إليه بحق فيه فضة فيه حقائق مطبقات فى كل واحدة
 منها لون من الطيب وفى جام دراهم وسطيا جام فيه دنانير فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم (من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها) قال أبو يوسف (ذاك حين كانت
 هدايا الناس التمر والابن . . .)

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتخرج عن قبولها أو لكافأ المهدي بأضعافها .
 وفى سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : اللهم إنك تعلم أننى لم أجز
 فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً ، وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك
 وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم وكلما اشكل على جعلت أبا حنيفة بينى وبينك وكان عندى والله
 ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يمامه) وعرف الناس وصيته ١٠٠٠٠٠٠ مائة ألف
 لأهل مكة ، و ١٠٠٠٠٠٠ مائة ألف لأهل المدينة ، و ١٠٠٠٠٠٠ مائة ألف لأهل بغداد ،
 و ١٠٠٠٠٠٠ مائة ألف للبلد الذى جعل صبي القصار أستاذاً للرشيد بهب مئات الآلاف انحنى به السكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيباني فلم يكن من الخلفاء كأبي يوسف ومع أنه تلمذ على أبي يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة في آخر أيام أبي يوسف حتى وفاته . ولى قضاء الرقة للرشد ، ثم عزل ثم عاد الرشد فاستقضاها وأدناه .

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب هي السجل التاريخي للمذهب ، أما الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة (العالم والمتعلم وكتابه لعثمان البتي عن الأرجاء والفقه الأكبر ، ووصية أبي حنيفة إن صحت) فهي تدور حول العقيدة ، وأما كتب أبي يوسف فقد قيل إنها بلغت أربعين كتاباً لم يصل أكثرها إلينا ، وبحسبه شاهداً على عبقريته كتابه « الخراج » الذي كتبه للرشد يبصره بالحكم جواباً لطلبه . وأما كتب محمد فهي المعروفة بظاهر الرواية السير الكبير والسير الصغير (في فقه الحرب) والجامع الكبير (وهو في التفسير والأصول) والجامع الصغير (وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة) والمبسوط أو (الأصل) وسمى كذلك لسبقه الكتب الأخرى في التصنيف والزيادات وزيادة الزيادات والرد على أهل المدينة (وهو كتاب رواه الشافعي) وقد قرىء أكثرها على أبي يوسف .

وإذا كان الفقه الحنفي قد دان به الثلثان من أهل الاسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقي أوربا وبقاعاً من روسيا وأصبح مذهباً رسمياً في مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة فإن لهذه الكتب الصغرى في عددها تلك اليد الكبرى في آثارها .

إن المبسوط وحده يقع في ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير . . . ١ كان الفقه بحاجة إلى الهمون فخاض محمد بذلك السور المنيع الذي تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق .

وكان عمل أبي يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة الأولى ليأتمن العلم مع العصر ، ومع اواقع ، ولتحمله إلى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، أما عمل محمد فكان لازماً ليوجه الفقه في طريق الخلود فتراه المصور جميعاً .

ولما عين محمد في القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضي القضاة » أن يكون في الرقة بعيداً عن

بنداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان ، إذ هيا له نجاة من زحمة العاصمة والحاجة
الحكم ، فتفرغ للعالم حتى عهد في أعماله الشخصية إلى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف . وكان
يحيل أهله على الوكيل ويقول (لا تسألوني عن حاجة من الحوائج فان فيها شغل قلبي وخذوا
مباديكم عن وكيلي فانه أفرغ لقلبي) .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهري بجميع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن
مؤلفاته (هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر) .

رحل محمد إلى المدينة في حكم المهدي (سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩) ليستقي العلم من مالك بن أنس
وروى عنه « الموطأ » وتعتبر روايته للموطأ من أجود رواياته واختلط بالكسائي في عهد الرشيد
فعلمه الكسائي اللغة وعلم الكسائي الفقه .

قالوا : جلس الكسائي يوما يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضي القضاة فقال للرشيد هذا
الكوفي قد استفرغك وغلب عليك . فقال الرشيد : يا أبا يوسف إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها
قلبي . لكن جواب الرشيد عن الكسائي لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبي يوسف يقول : يا أبا يوسف
هل لك في مسألة ؟ فقال « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتى غص برجله
وقال للكسائي : تلتقي على أبي يوسف فقهاً ! قال الكسائي : نعم : يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال
لأمراه أنت طالق أن فتحت الدار (وفتح الممزقة في أن) قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت .
قال : أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال الكسائي : إن قال أن
وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال إن فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي إلى الرشيد .

ولما حشر الشافعي إلى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد في إنقاذ . وتوثقت بينهما عرى
الود فبهر لبه .

وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل : يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء
قال (وهل رأيت فتيتها قط إلا أن تكون رأيت محمد بن الحسن ! فانه كان يملأ العين والقلب .
وما رأيت مبدئاً قط أن ذكرى من محمد بن الحسن) وقال فيه (كان محمداً إذا خذ في المسألة كأنه قرآن

ينزل ، لا يقدم حرفاً ولا يؤخر) وقال (ليس لأحد على منة في العلم ما لمحمد عليّ) .

وكان يجهده وقد ركب محمد فيرجع محمد إلى منزله ويخلو به إلى آخر الليل .

قرأ الشافعي كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فتعلم منها فقه أبي حنيفة وفقه الأقدمين

فهاهو ذا محمد تلميذ أبي حنيفة ينهل من مالك وينهل منه الشافعي الذي علم ابن حنبل ، فتتلاقى

عنده المذاهب الفقهية الأربعة ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعاً .

روى الملك عيسى بن الملك المعادل الأيوبي أن عالماً يهودياً كان بالبصرة فطلب كتاب

الجامع الكبير لمحمد فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم

يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبي أشهد إنه على حق . فأسلم .

قال الملك : إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه ومساائله معروفة فإن من أراد أن

يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالماً بارعاً بستة علوم أولها الكتاب العزيز والآثار والفقه والنحو

واللغة والحساب ومن لم يكن مجيداً لهذه العلوم لم يعرفه إلا تقليداً .

أقبل الرشيد يوماً على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً . ومضى الرشيد لطيفته

ثم جاء الأذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس

عندما قدم عليهم فقال « كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . إنك أهلتني للعلم فككرهت

أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال (من

أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) وإنما أراد بذلك العلماء . . . » قال

الرشيد : صدقت يا محمد .

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويألهامن عقيدة لكن الاسمي من العقيدة هو العمل بها

ولا سيما في حضرة الرشيد وضد الرشيد وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له

ولو كانوا هم العلماء . . . !

لقد كان الرشيد حفيماً بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم .

بلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه ، يعدل تماماً موقف

محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابته « المير » بعث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل ابن يحيى البرمكى من الرشيد سنة ١٨٦ ، واستنزل به يحيى من مقله ، وتوشجت المودة بين يحيى والرشيد زماناً حتى رفع السعاة عن يحيى ما يريب ، فسيء به وضاق به ذرعاً ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مسئولاً ، و (المسامون عند شروطهم) كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجاً ودعاه محمداً وقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد .. ما تصنع بالأمان ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً !
وطلب الرشيد فقيهاً آخر هو أبو البختري فقرأ الرجل العهد ، وأفتى ينقض العهد ، بل أقبل يمدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وإن شئت فقل غاية فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضى القضاة !

ذلك أبو البختري الذى اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .
رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟ قال : حدثنى ... عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام ... !
وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد ... !
ولم يقف هناك إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء .. وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا . وهنا لم يرض لأن مصالحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد . وكان هرون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته مارأى .

صنع الرشيد ذلك مع أنه كان يبعث إلى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع إلى الفقهاء وكان إنفاقه على العلماء إغداقاً ، يعهد بأولاده إليهم بل كان يخدمهم . وفد عليه أبو معاوية الضير وجىء بالطعام فأكل بين يديه . وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال : لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية « أكرمك الله كما أكرمت

العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين في الآخرة .
وفي سنة ١٨٩ مات محمد بالري وهو في صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائي في نفس
الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد (دفنت اليوم اللغة والفقه) .

* * *

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحبا أبي حنيفة يجرى اسمهما في التاريخ على أنهما «الصاحبان»
أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدماً في مجلس الإمام وبقى طيلة عمره مشتغلاً
بالعلم ولما عرض القضاء دأبه أبي فأكرهه على القضاء واختفى ، وهدمت داره فخرج فأصلحها ثم
أكرهه وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمرات إلى الدنيا فلم يتعرض إلى ما تعرض له الصاحبان
(أبو يوسف ومحمد) .

كان أقيس الحنفية . وكان أكبر للتلاميذ سناً فرأس الحلقة لما هوى النجم ، ولما مات في
الثامنة والأربعين من عمره خلفه في رئاسة الحلقة أبو يوسف .

شك رجل في طلاق زوجته فسأل شريكاً القاضى فقال طلقها ثم راجعها وسأل الثورى فقال
إن كنت قد طلقها فقد راجعها ثم جاء إلى زفر فقال هي امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .
ذلك بأن من الأصول التي وضعها أستاذنا أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضعاً ثم شك في
الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبي حنيفة هذه الأقوال فقال أما الثورى فقد أأتاك بالورع ، وأما زفر
فأأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل قلت له لا أدوى أصاب ثوبى بول أم لا فقال : بسل
على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبي حنيفة حتى بعد أن مات . .

شهد النضر بن السماعيل وحامد بن أبي حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما وراح الناس
يستفسرونه عن رد شهادة النضر ، فقال لأنه يبيع الصلاة (إذ كان إماماً في المسجد يتقاضى في الشهر
دينارين) فقال له النضر : وأنت تبيع القضاء (إذ كان قاضياً بأجر) فأجابه شريك فاذا شهدت
عندك فلا تقبل شهادتي ! !

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكاً فلما بصر بهم قال: وراءك يا حماد... لست كالنفسر. أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل السماء.

كان زفر يغربل الأحاديث غربة ، ويأتي بالدليل من غير حشو فاذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بمقومه . كان يناظره مرة وهو مستند إلى اسطوانة المسجد منتصباً وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب كثيرة أركض في أيها شئت وانتهى الأمر بأبي يوسف إلى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة إلى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الامام الأعظم (هذا الامام من أئمة المسلمين في حسيبه وشرفه وعلمه) .

وفي سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه إلى لقاء إمامهم في الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤي فقد تلمذ بعد وفاة الامام علي أبي يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب (المجرى لأبي حنيفة . وأدب القاضى . والنفقات . والفرائض والوصايا . والحصول) وعمل في القضاء وفتح عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى - وهو الذى كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبي حنيفة ليمير بناته أضحى له ممالك يكسوهن مما يكسو به نفسه .

كان يخشى الله في فتواه : أفق رجالاً فتوى تبين خطأها بعد انصرافه . ولم يكن معروفاً لديه فاكترى منادياً يقول : إن الحسن أخطأ في تلك المسألة حتى عاد إليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل إلى الحق .

وكان إذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فاذا قام من مجلس القضاء عاد إلى ما كان عليه من الحفظ !! فاستعفى من القضاء .

وفي سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبي حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة ببغداد كلها فالبصرة ، وتخرج ابنه اسماعيل عليه وعلى أبي يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقى ببغداد وبالبصرة والرقعة . وتخلي يوسف بن خالد السمقي للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدي إليه من الكوفة مرة فلما

دخل عليه ناداهما : أيكما مندل - وكان أصغر وأشهر - قال مندل موجهاً نظراً للخليفة : هذا حبان ويحيى بن زكريا مات قاضياً على المدائن للرشيد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة أنتم مسار قلبي وجلاء حزني ...

وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاماً وقضاء بغداد عامين فحبس المرزبان وکیل زبيدة في دين !

كان جالساً للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا ، حتى يفرغ الخصوم . فلما فرغوا إلى دعوته ولما عينه أبو يوسف في قضاء الكوفة بعث إلى أهلها يقول : يا أهل الكوفة انشروا دفتراً لتكتبوا نواذر قضاياه .

وأما عبد الله بن المبارك فكان إماماً في الفقه وبطلاً في المصارف . كانت أمه خوارزميه ، وأبوه تركياً وكان من أكثر التلاميذ رواية للاستاذ ... ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمرو البجلي : يروى عنه الإمام أحمد بن حنبل . تولى القضاء للرشيد ببغداد وواسط ... وقيل تزوج بنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائي أرفع الناس صوتاً في الحاققة ينقطع إلى العبادة ويخرج من الدنيا في حياته ... أرسلت إليه بكرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فأعادها لمصدرها ، ووردها الرسل مع بكرة تماثيلها وغلامين قال لها : إن قبل البدرتين فأنتا حران . فذهبا إليه قالا : إن في قبولك عنق رقابنا . قال : إني أخاف أن يكون في قبولها وهق رقبتى في النار . رداها إليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطيني أنا ...

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده اسماعيل بن حماد (أصحابنا ستة وثلاثون رجلاً . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبي يوسف وزفر) .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة في مذهبهم ! وفي سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل . . .

.

وقيل بالتخسير في فتواه إن خالف الإمام صاحباه
وقيل من دليله أقوى رجح . . . وإذا لمقتضى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه : جاءوا إلى الحلقة غملاً ومغورين . منهم الحفافة والعرافة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمداً للفقد الإسلامي ؛ ماذا أفقت تهم يدين الرسالة التي نقلها إليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حاوله منها دنصراً أساسياً في نهضة الدولة وصالح الدنيا بما فيه من طابع عملي وعمق فكري حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم : (. . قال عمر : تفتنوا قبل أن تسودوا ، وقد تجد الرجل يطالب الآمار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيهاً ولا يجمل قاضياً وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة ، وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالخرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلاد من البلدان . . .)

كانوا كاطييار الفجر يبشرون بالنور الذي سيحيى . . يدركون وهم بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسبون وهم معه ما نحسبه نحن الآن معهم ، وما كان يسيرة (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ هوميروس فيقول (كما قرأت هوميروس نظرت إلى نفسي لأتحقق مما إذا كنت قد ارتفعت عشرين قدماً فوق الثرى . . .)

الباب السادس

في الغشاق

« الناس سواسيه كأُسنان المشط ، لافضل »

« لعربي على عجمي ، إنما الافضل بالتقوى »

« حمريت شريف »

وبعد فاننا لا نفهم حياة أبي حنيفة إذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالإنسان ابن آباءه وأقربائه . وأرضه وسمائه وأشياءه -- ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان . من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

إن هذه السكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها . . . ١ وما أصغر ذلك الشيء البديع المسمى بالإنسان إلى جوار تلك الأشياء الجليلة التي تسمى بالدنيا . وإن كانت من دونه ليست هي الدنيا .

ذو قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول في التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فممر فعثمان ثم بايع الناس علياً . واندلع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهم أهل البصرة . وأظفره الله في واقعة الجمل فنازلت جيوشه في صفين جند الشام إذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه حتى إذا افتقر له النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكمات كتاب الله ، وقبل على التحكيم فخذله الحكيان وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله « لم حكمت فيما هو حق لك ؟ » وهزمهم بالنهر وان . وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة . وأخفقت المؤامرة في عمرو ومعاوية . واسقطب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فوق أعناق الزعماء (الحسين بن علي وعبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر) ودعا الوفود ليتكلموا فقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطيب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار إلى معاوية .

ثم قال : فان هلك فهذا وأشار إلى يزيد .

ثم قال : فمن أبي فهذا وأشار إلى السيف .

قال معاوية : اجلس فانك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف . والسيف أصدق إنباء . ولما نولى

يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرمح . وبعثت الشيعة (أنصار علي بن أبي طالب) من أهل الكوفة إلى الحسين يبايعونه فسار إليهم مع أهله ، فقتل هو ، وإخوته ، وأبناء عمه في كربلاء وفي سنة ٦٤ سارت جنود الشام إلى مكة تقاتل عبد الله بن الزبير ، إذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن . أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك بن مروان . وولى عبد الله الزبير على الكوفة المختار بن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن الزبير . ودعا المختار ابن عبيد بالكوفة للعاويين (محمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فما هو إلا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت إلى عبد الملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبد الملك .

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبد الله بن الزبير بمكة فأخذ يبرئ الرقاب حتى سالت الدماء إلى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث وجمعة العلماء ، ومنهم الشعبي فقيه الكوفة ، وسعيد بن جبيرة فقيه البصرة ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى . وتزاحف الجمعان في دير الجماجم وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء ، فعفا عن عقابته كالشعبى وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبيرة فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك إلى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الاسلام في إفريقيا .

وفي سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفي سنة ٨٩ فتحت صقلية . وفي سنة ٩٣ خفقت أعلام الاسلام على سواحل الأطلس في الأندلس . ووقف موسى بن نصير في ربوعها يفكر في فتح أوروبا . . . فأشاروا عليه بالتلبث . فكث يقول : أما والله لو انتقادوا إلى لقتلهم إلى رومية . . وفي الشرق بلغت كتاب المسامين الصين .

وفي ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين فقتل . وفي سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل في خراسان .

وفي سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارت الثائرة بين بني أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكبد يهزم الضحاك حتى دار عليه

أبو مسلم في خراسان ودخل صروفي سنة ١٣٠ و نيسابور سنة ١٣١ . وجاء رساله إلى الكوفة فقولوا
أبا العباس (بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس) سنة ١٣٣ وكان التيار في الكوفة يجري نحو
أولاد علي بن أبي طالب فحوله أنصار العباسيين إلى بني العباس . و هرب مروان إلى مصر حيث قتل .
وفي سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بمسجد وفاة أبي حنيفة
بماني سنوات .

* * *

في هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الاسلامي وبلدانه : أما المدينه فبنية بتاريخها
عن التعريف وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ملتقى دجله والفرات (سنة ١٤ - ١٧)
لتسكون معسكراً لتجىء إليه الجيوش من برد الشتاء فبنى أبو موسى الأشعري مسجدها من اللبن
وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة . وفي سنة ٣٦ وقعت في ضواحيها وقعة
الجل . وفي سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفي (سنة ١٧ - ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبي وقاص بعد موقعة القادسية أن يبنى الكوفة
فأقيمت في موقع صحي على الفرع الغربي للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسراً ولا بحراً وصارت
ملتقى الطرق ومفتقراً بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها في وسط المدينة وبنيت إلى جواره
وعمر الأمانة . فلم يكدها منتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياماً وأكوخاً
دارها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكدها
تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولا تها في السنوات الأخيرة لحكمه ثلاث مرات .
كانوا أول أنصار علي ولم تزل تتداولهم المزاها حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحوهم
عشرين عاماً (سنة ٧٥ - ٩٥) ولم تذق الطمانينة بعد ذلك . حتى إذا ظهر العباسيون أقام
أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيداً عن الكوفة
وشغبها وشقاقها ، وهي قصبه الإقليم في عهد بني أمية وعاصمة الدولة في عهد السفاح والمنصور حتى
بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلاً من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من

المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشيعوا الحضارة الإسلامية العربية في الاقليم . لكن العراق صنع بالوافدين إليه وبن أنسلوهم ما يصنع الاقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عرباً وإن كانت تحمل حضارتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم : طابع الاسلام .

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبي وقاص إلى عمر قائلة إنه لا يحسن أن يصلى ١١ وشكت البصرة أبا موسى الأشعري لأن له غلاماً ختاراً (غادراً) هو كاتبه زياد بن أبيه إذ كان له مائدة وبرذون . وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم والياً .
وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محارباً فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة بن شعبه . وطردهوا سعيد بن العاص .

ولما قدموا على عمر يشكون سعداً — قال « من يعذرني من أهل الكوفة — إن وليتهم التقي ضعفوه وإن وليتهم القوى فجروه . قال رجل « أنا أدلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » قال : « من هو » قال : (عبد الله بن عمر) (ابنه) قال : « قاتلك الله : فئذا اليوم لا أسميك إلا المنافق » وقال المغيرة يا أمير المؤمنين ان التقي الضعيف له تقواه وعليك ضعفه والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره — قال « صدقت . فأفت القوى الفاجر . فأخرج إليهم » . وفى فتنه ابن الأشعث بذل رجال الشورى نصيحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بل أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيراً فكتب إلى الخليفة يقول (. . . والله إن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك . ولا يزيدكم ذلك إلا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بو ثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان فلما سأله ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه . إن الحديد بالحديد يفلح) .

وهكذا طفق مر رجل الكوفة دائم الغليان ، قرناً وربع قرن من الزمان . واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظالوا يرون خلافة الأمويين غصباً وأمروا عليهم أمراء منهم خاصة . أما شيعة على فاتخذوا فى الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية . وما للآن نزال لبطنة عشرم

من الملايين في العالم الاسلامي — كانوا يرون أن علياً أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون إنه وصى النبي على المسلمين وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول إنه معصوم وغدا البعض فألهوه . وانشعبت الشيعة فصارت شيعاً وأفرقاً حاربها بنو أمية حرباً ضروساً فقتلوا أولاد علي وأسباطه كل قتلة . حتى كان الأمير الأموي يقول : لأن يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل علي !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول . وفي عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة في الانحسار ، وشرعت الرياح تجري رخاء لسفائن الشيعة يزجها دعاة بني العباس . فآلف علي بن عبد الله بن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبي وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشيعة الثانية خراسان . فلما دخلت جيوش أبي مسلم إقليم العراق ، كانت الكوفة قصبة المدافعين ، كما كانت مخبأ الثوار . يوبع لأبي العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الألوية المظفرة لقواده . فأخذ يعمل في ظمأ لا يرتوى ليكون جديراً في التاريخ باسمه (السفاح) وراحت سيوف العباسيين تمهد الرؤوس وتقذف الجماجم . ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور . بدأوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، واثنوا إلى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثلاً ثم وجدوا ضالتهم في قبر ابنه هشام . فآلفي السفاح جثته لم تبلى بعد فضر بها بالسياط .. وصلبها .. وحرقها . ثم ذراها في الهواء .

في هذه الجزيرة التي ملأت الخياشيم برائحة الدم عبر النهر سباحة إلى إفريقيا فتى لم يكديطر شاربها بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . عبر البرزخ إلى أسبانيا سنة ١٣٩ لم يكن في اثنين وثلاثين عاماً لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ — على حد التعبير الحربي — رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب ، وأن ينقل خلال البحار والأجيال تلك المدينة التي ازدهرت في فجر التاريخ في أثينا واسبارطة وفارس وروما وبيزنطة فانبعثت حركة الإحياء العلمي Renaissance من مرقدها بعد أن مرت في طريقها - كالمسالات وكالبُرد المائتة والهوائية - بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما إليها

ولقد يُخيل الى الناظر أن هذه القلائل كادت تنزف دم الأمة لسكنها في الواقع كانت اهتزازات الجسم الذي يحاول أن يستقر ، ليستمر . وامتحناً لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر فثبتت على الامتحان وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما في ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجاءاً لقوى الأمة ، واستعداداً لمعهاها الجديد ، فلقد أدت الامبراطورية السياسية التي وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هي حسنها . وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجيء وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . فلم تكن هذه الهزات الدموية التي ألفها كيان الأمة إلا كأوجاع المحاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الإسلام نفسها في الوجود ، بأسلوب جديد .

وإذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الإسلام بالفرز فقد كان على الدولة الجديدة في وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس ، أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الإسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بأثارها في مهاب الرياح الأربع فتعالوا إذن أيها المفكرون ، واحداً إثر واحد ، واسكبوا في تيار الحضارة الذي لا يتوقف إلا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من النور . . . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب إلى الابتكار وليكن منكم الفواصون في أعماق الحكمة والعلم . . . لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل فصلوا الماضي بالحاضر ، وقولوا كلمة الفكر . فإن كلمة الفكر هي العليا .

وانطلقت العقول الاسلامية ظمأى تكاد توت من الصدى . بدأت بالترجمة . فنقلت إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والقبطية والهندية . ولئن صح أن اسطفان وماريانوس وابن ابجر قد ذكروا العرب في أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر ابن عبد العزيز ابن ابجر رئيساً للمصلحة الطبية ، وأن خالد بن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ، إن هؤلاء لم يكونوا إلا طلائع الركب الضخم ، الذي بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم إلى العالم الجديد في عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيباً

المنصور وليجارتان جند يسابور . . ثم توالى الأسماء تترى : قسطا بن لوقا وسيد النقطة : روزبة (ابن المقفع) ينقل كلية ودمنة وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى . ينقلون من الفارسية ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية وابن وحشية ينقل من النبطية كتباً في الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان ليحيثوه بالكتب ليعربوها . وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع وانتقل الروح العلمى إلى وجوه الدولة وإذا ببیت كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن إسحاق وابنه إسحاق وحبیش بن الحسن وثابت بن قررة يدفعون لهم شهرياً خمسمائة ديناراً للترجمة والتعريب كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسى (الكتب الفارسية) وابن ماسويه من جامعة جند يسابور للقسم اليونانى (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما ترجم من كتب ونشر ماتتضمنه المترجمات من علوم وأنفذ إلى بلاد الروم سلماً صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهم ليبعثوا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف إلى روعة الأمانة التى كان ينحصر تراثها العلمى — فى الجاهلية — فى علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب إلى فيثاغورس وإقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط وأرسطو وإلى النظم السياسية والإدارية . وانطلق الفكر الإسلامى فى حرية إلى أبعد الحدود حتى لترى بيتاً كبيت (أبى الجعد) فيه ستة إخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب عنى الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة . وأضيفت إلى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى واسطفان بن باسيلي ينقلون من السريانية إلى العربية . وعلى بن زياد اليمنى وإسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق إلى المغرب فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم . ولم تبق الترجمة سبيلاً للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فاذا با بن الهيثم يبيع فى كل عام نسخاً ثلاثاً من نسخه (إقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطى) بمائة وخمسين ديناراً يعيش منها طول العام .

لم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التي وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التي يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها في جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد في سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه (جورج أو جرجس) من جامعة جنديسابور وأبل على يديه فانزله وعلماء جنديسابور أرفع المنازل في بلاطه ، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة في بلاط الرشيد حفيد أبي جعفر . وإذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فإن أبا حنيفة قد أنهى رسالته في سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس ترجمة للعقول .

فالفقه الاسلامي الذي دوى صوت إمامه في النصف الأول من القرن الثاني كان أثراً للوثبة الاسلامية الخالصة التي وثبها أبو حنيفة .

وإن المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه في ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الاسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتاً أو تصويراً كما صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الاسلامية التي يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعياً أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الاسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكري الذي قدرته العناية الالهية لنصرة الدين . وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التي عاصرت في تحضيرها وظهورها حياة أبي حنيفة العامية ، وهي قيام الدولة العباسية ، ثم انبعثت تلك الفكرة التي خللت بها الحضارة العباسية نفسها بانشاء المدينة التي لم ير مثلاً الزمان إلى ذلك الزمان « بغداد »

ليست مصادفة تلك التي جعلت بالعراق حلقة أبي حنيفة حلقة كالجامعة في النصف الأول من القرن الثاني بالكوفة حيث كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وابنه ابراهيم الامام من بعده يمهدان للدولة الجديدة في الكوفة وفي خراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالي والفرس .

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة وأن يعمد أبو جعفر إلى الانتفاع به في المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ويتناهى الرشيد في الإعجاب به فيكامل بالمجد همامات تلاميذه .

ليست هذه كلها مصادفة ولكنها رواية الزمن متصله الحلقات والظواهر يسطرها بالوقائع ويترك للوقائع الكلام . وإنها يد العناية تحرك الانسانية نحو مصايرها المحتومة تريد لرسالة الاسلام أن تصل بين عهدي الحضارة .

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثاً في التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضي في ظلام الليل المتكاثف ، فحملت الحضارة الاسلامية إلى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق في الغرب سنة ١٤٩٣ إلا بعد أن كانت دولة إسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية في الشرق من نحو نهف قرن سنة ١٤٥٣ . وإذا كان فتح المسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والإحياء Renaissance في العصور الحديثة . فأى مجد للاسلام ذلك المجد ! وأين منه كل مجد سياسي وفتح حربي !

هذه النصرة التي نصرت بها الدولة العلم في المائة الأولى من حكم بني العباس ، لم تكن لها مثابه في العهد الذي كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .

كان السفاح وأبو جعفر في العهد الذي عاشه أبو حنيفة في حكميهما في شغل بالحرب مع خصومهما فالنهضة التي نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . وحساب الله لا لحساب أحد . وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم في عهد المنصور أو تولته أيدي الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، إن الفقه الاسلامي كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وخصوصية تربته ووفرة منابعه ، مافاق ألواح جوستنيان الاثني عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم أحد ولم يترجم منها مادة . وبقي الفقه في صفاء جوهره نقي الصفحة خالص الديباجة . تجمع العروة الوثقى في جملته وأجزائه بأصوله الجامعة في الكتاب الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المستشرقين أن هناك « آثاراً لا تنكر traces indéniables » من تأثير الفقه الروماني في الفقه الاسلامي وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبي حنيفة خاصة ، والفقه

عامة ، وإذا كن لأبي حنيفة بصير بالفارسية أو كانت تحيط به ثقافة منحدره من المحيط الجغرافي والاجتماعي الذي يتوارثه العراق عن فارس ، فإنه لم يظهر أثر المترجمين أو المترجمات في حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه في حلقته وفي سائر الخلق بالمسجد الجامع إسلامياً صراحاً في منابعه وسواقيه لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشيء أجنبي أو عالج أثراً أجنبياً .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام . فلا أثر للفرس ولا للرومان في الشريعة . ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثير إلا بعد أن تقدم الخصوصيات المتشابهة التي يستند إليها الزاعمون في الأصول والفروع ، وفي اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه إلينا القائلون بوجود هذه الآثار « التي لا تنكر » . كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة حتى تقبل الدعوى شكلاً لتناقش موضوعاً كما يقول رجال القانون .

وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات أو شبهة أو صدفة في مظاهر التفكير ليقال من جرائها بتشابه الفقه في الشرائع . فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشري توافق العقل . وإذا تشابه العرف في البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه المواد

ومن المسلم به أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر إلا في عهد أبي جعفر أي بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبي حنيفة قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة وكان أستاذها في أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو مئة عشر عاماً .

أما (الشافعي) فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر في خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التي ادعاه المستشرقون . والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته يدر كون كيف كانت كلها إسلامية خالصة .

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفي سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاي ماقرره مؤتمر واشنطن أخيراً في سنة ١٩٤٥ أن الشريعة

الإسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر اليونان والرومان .

لم يكبد المنصور بلى الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حرباً ضروساً في العراق وفي كل مكان،
كأنما كتب القلق على هذا الإقليم حتى ولو صارت إليه مقاليد الأمور .. وكأنما كتب عليه أن
يثور حتى على ذاته !

ولكن ماهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !
وما الكفة الخير فيها ترى غالباً أرجح ! إنها قد تكون ثورة جهال فيظفر فيها العلم، أو ثورة
على الحق فيخرج الحق منها أبلج وضاح الجبين كالشمس بعد انفراج السحاب ! ولقد تكون
ثورة دهاء فتتكشف عن انتصار المعاني الرفيعة في الحرية أو في الدين أو الاقتصاد أو السياسة
أو غير ذلك . . . :

إن الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائماً . أو كما يقول الشاعر :
(وحسبك داء أن تصبح وتساما) .

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شيء ، من الكفر
والإيمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم ، ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح »
ولا عجب أن تنجلي تلك المتناقضات عن تحرير أوروبا ، فأنشأت الثورة إيطاليا وألمانيا وأطلقت
الفكر الإنساني من عقالة ، وجمعت بين الدين والتقدم وأعلنت حقوق الإنسان ومكنت للتقدم
الصناعي والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل .

فإذا رجعت إلى العراق رأيت عينك مصداق ذلك : بلداً يثور قرناً من الزمان ، على نفسه حيناً
وعلى غيره دائماً ، دون أن ينضب معينه . بل إن الثورة لتقويه ، وتزكي أنفس الناس فيه ، في رقعة
مبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقي للبحرء السورية
عند الحدود الفارسية إلى جبال حلوان ، من عبادان إلى الخليج الفارسي ، فتشمل بلاد الآشوريين
والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسميريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ،
حيث ترتبط في نشاط تجاري بآسيا الوسطى والهند وشرق أفريقيا وشواطئ البحر الأحمر يمررها
مع المسلمين فرس يدينون بالزرادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزرادشتية والهندية
والمسيحية وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية إلى الإقليم منذ غزوات

الاسكندر وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جند يسابور في كوزستان استمرت المدرسة ثمانمائة عام رغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الإسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا في نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لابيوقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأمثالهم ونقلهم مؤلفاتهم إلى السريانية كما ساعد أهل حران على التوسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحي وبالعلة بينزلة ، وبهذا كانت مدرسة جند يسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التي وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

في هذه البقاع ترعرعت حضارة يانعة تكتنفها ديانات متتابعة : الزرادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون واليهودية في الشمال تسبق الزرادشتية بنحو تسعة قرون . ثم المسيحية تنزل قبل الإسلام في شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى . كما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا في تلك القرون العشرين .

وكان العراق محسوباً على فارس وموصولاً بها على الوجه الذي بينا بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة إقليمه ، فتجمعت فيه أخلاط من المذنيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلاًها جزيرة العرب وأرهف حس بليته ذلك الانفعال المستمر في حدة وعرام لم يشهدا بلد إسلامي ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن إلا أن تسكن النفس سكونها الأبدى . وإذا عاشت الجماعة في انفعال وانبعاث مستمرين برزت — كالفرد — ملكاتها إلى الوجود فاستثمرت كل مافي كيائها من قوة وفتوة .

وممكن لتلك النزعات في نفوس أهل العراق دين يحجب الجهاد في سبيل الاعتقاد . احتفظ العراق دائماً بشخصيته حتى إن عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق الفارسية إلى أن نقله الحجاج في سنة ٧٨ إلى العربية ، ومع ذلك ظلت الحسابات بالفارسية ، وبقى أغلب كتاب خراسان محوساً . أما في خراسان — وكانت تحكم من العراق — فقد كان نصر ابن سيار أول من نقل الكتابة إلى العربية من الفارسية في أواخر أيام بني أمية ، ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها إلى العربية . كما

غدت مركز حركة عالمية تجت في علم الكلام وفي الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصري الذي قيل عنه إن الحكمة التي رزقها جاءت له منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي فكانت أم سلمة تناوله ثديها إذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد وأذنت الدنيا بعهد جديد بقي العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء حتى إن المأمون بعد نحو قرن من خلافة بني العباس ليباهي به عجائب الكنانة !

جلس في تواضع العالم بين إخوانه العلماء — وكان يسميهم إخوته — إذ قدم إلى مصر في أول سنة ٢١٧ وقال : لمن الله فرعون حيث يقول : أليس لي ملك مصر . فلو رأى العراق وخصبها ؟ فرد سميد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فان الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يمشون » . فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !!

الباب السابع

في الكوفة

« يخرج الحديث من عندنا »

« شبرا فيعود في العراق ذراعاً . »

ابن شهاب الزهري

اعتزت الكوفة بذاتها كما اعتزت برجالها . كانت مازال تذكر أيام جماعها أمير المؤمنين عليّ قسبة الخلافة ، وتذكر عبد الله بن مسعود وناهيك بابن أبي طالب وابن مسعود من رجائين ومن عالمين .

كان عمر يسأل عن مسألة فيقول : اتبعوني فيذهب إلى عليّ . فإذا قال له عليّ : ألا أرسلت إلى ؟ قال عمر « إني أحق باتيانك » . ويقول له عمر وهو يستشير الصحابة « أنت أعلمهم وأفضلهم » . بل كان عمر يتهود من معضلة ليس أبو حسن لها « عليّ » .

وكان ابن مسعود أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله . كان له مصحف من جمعه تعصب له أهل الكوفة لا يقبلون مصحفاً دونه حتى ذاع المصحف العثماني .

ولما قدم أهل الكوفة على عمر فأجازهم وفضل أهل الشام عليهم قالوا : يا أمير المؤمنين تفضل أهل الشام علينا . قال « يا أهل الكوفة . أجزعتم أن فضلت عليكم أهل الشام . وقد آثرتكم بابن أم عبد (ابن مسعود) » ولما قدم عليّ إلى الكوفة قالوا عن ابن مسعود ما رأينا أحسن منه خلقاً ولا أرق منه ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعاً . قال عليّ « ناشدتكم الله . إنه لصديق من قلوبكم » . قالوا « نعم » قال « أشهدك اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه . فقيه الدنيا عالم في السنة » .

وترسم خطي ابن مسعود فحول يتصدرهم علامة النخعي وكان أشبه الناس به . وتلاهم أفذاذ في طليعتهم إبراهيم النخعي فكان يقى وينبسط للفتوى ولا يخاف إبداء الرأي ، ثم جاء حماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة وراوي إبراهيم ، وكانت معارك العلم بين الشيعة والخوارج والأماويين والعلويين قد خلت في الفقه آثاراً كالجراح ، إذ أخذ الشيعة يصطنعون الأحاديث لنصرة عليّ ، وأخذ خصومهم يخلقونها لنصرة مخالفيه . أبي بكر مرة . وطلحة والزبير مرة . وبنو أمية مرات . كما أخذ أنصار بني أمية يخلقونها ضد العباسيين وأنصار بني العباس يخلقونها ضد العلويين وضد الأمويين . حتى قيل من زمن متأخر إن الجاحظ أوتي عشرة آلاف على أن يصنع أحاديث في مثل عليّ . وتدخلت أطراف أخرى في النزاع . المعتزلة وغيرهم يخلقون ضد الخوارج ويخلقون

الخوارج ضدهم وضد السابقين جميعاً . كما دس خصوم الاسلام أحاديث كثيرة على النبي . ثم تطورت أسباب الاختلاق فلم تبق مقصورة على الدافع السياسى أو الدينى ، بل نجم المال والملق بين الأسباب ، فأصبحت الأحاديث تختلق للخلفاء والأفراد ولكل شىء فتسمع أحاديث عن تطهير الحمام وعن التمر والعجوة ١

ولم يسلم أبو هريرة رضى الله عنه من نقد ابن عمر . روى مسلم أن النبي أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب ماشية . وأخبروا ابن عمر أن أبا هريرة يزيد . أو كلب زرع . . فقال : « إن أبا هريرة كانت له أرض يزرعها » .

وكما أصاب التزييف الروايات أصاب الرواة .

وانتهى الأمر بالوضاعين إلى أن أصبحوا يسبكون الأحاديث كما ينظم القريض لنفس

الأسباب ١ فى المدح والقدح ، والترغيب والترهيب ، وفى صياغة الفلسفة والحكمة .

بل بلغ الأمر بأحد الوضاع فى زمن لاحق أن يقول إنه يصنع الأحاديث « حسبة لوجه الله

تعالى » ١ فلما سئل أبو عصمة نوح بن مريم الجامع (مات سنة ١٢٣) عن سبب وضعه لأحاديث

فضائل سور القرآن . قال « رأيت الناس تحولوا عن القرآن واشتغلوا بفته أبى حنيفة ومغازى

ابن إسحق فوضعتها حسبة » ١

وساعد بعد العراق عن مهبط الحديث فى الحجاز ، حيث صحابة الرسول الذين عاشوا إلى

نهاية القرن ، كما ساعدت شدة الحاجة إلى النصوص لحل المشاكل ، على هذا التفريخ المعجيب للأحاديث

حتى ليروى عن الزهرى أحد مفاخر المدينة أنه قال عن أهل العراق « يخرج الحديث من عندنا

شبرا فيعود فى العراق ذراعاً » .

حدث ابن ماجه عن رسول الله قوله « ما قيل من قول حسن فأنا قلته » فلينسب الوضاعون

إذن كل الأقوال الحسنة إلى الرسول ١ ذلك ما عهر عنه أحد المستشرقين تعبيراً غريباً بقوله : إنهم

يضعون أوراقهم على المائدة ولسان حالهم يقول « هذا حق ، ولا . أخذ عليه من ناحية الدين ،

بل هو مستحب والنبي كان يوافق عليه » .

تفرق الصحابة فى الأمصار بعد وفاة النبي واشتجرت الآراء بينهم فى الفتاوى تبعاً لمبلغ

علمهم بالأحاديث والدين وإقبالهم على إبداء الرأي وتأثير البلدان التي استوطنوها في آرائهم وتقائدهم ومن ثم جاءت خلافاتهم في البلد الواحد . وخلافات المدينة من ناحية وسائر الأمصار في النواحي الأخرى وبخاصة في الكوفة . إذ لم يكن مستطاعاً أن تكون السنة معلومة لأهل تلك الأقطار النائية علمها لأهل المدينة وقد شاهدوها وشاركوها في تطبيقها جيلاً بعد جيل . وكان أهل تلك الأمصار ملايين على حين كان أهل المدينة آلافاً .

ولم تصل السنة إلى الأمصار إلا على مهل فلم تظهر في الحياة العامة في العراق إلا في سنة ١٦٠ بل في سجستان - في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع - كان الزواج يعقد في أوضاع تخالف السنة حتى طبقتها الاصطراخي قاضي « قم » . وفي خراسان كان ظهورها على يد عالم لغوي هو النضر بن شميل ضيعة قومه نخرج من البصرة يلتمس الرزق فشيعة ثلاثة آلاف من المحدثين والنحويين والعروضيين واللغويين فلما اجتمعوا قال « يعز على فراقكم . والله لو وجدت كل يوم كيساً به باقلي (مكياال فول) مفارقتكم » . فلم يتكلف له ذلك أحد من سامعيه ومودعيه ١١ وسار حتى وصل إلى مرو وخراسان حيث جالس المأمون في إقامته بمرو وعاليه خلقان فأجيز بثمانين ألف درهم لتصحيحه حديثاً واحداً في مجلسه .

ولم تكن السنن في كتاب ذي مناهج يعرف الناس نصوصه ومدى تطبيقه ولا كان الولاة يعنون بتعليمهم بل إن الولاة كانوا في شغل بالدنيا عن الدين . كان بنوا أمية ملوكاً دنيويين لا خلفاء دينيين . اعترض أبو الدرداء على رأس البيت الأموي معاوية ، لبيعه سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ذهباً قال : سمعت رسول الله ينهى عن مثل ذلك » . قال معاوية « ما أرى بهذا بأساً » . قال أبو الدرداء « من يعذرني من معاوية . أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه . لا أسألك أرضاً » .

أفيقبل فقهاء الكوفة هذه الفوضى الخربة دون أن يخطر قوا ظلامها بسهام من النور ! لقد كان ابن مسعود زعيمهم نزاعاً للنظر في المصالح وتقل النصوص يزدرى الامعات الطائفة ويقول « أغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمامة فيما بين ذلك » فالاستقلال والاجتهاد في الفقه ميراث أهل الكوفة يتوارثونه كابراً عن كابر .

ففيهم الخفوض للمسامات إذا لم يؤيدها الدليل الناهض ؟ وإذا سيقّت الفكرة ففيم ينحني
المفكر أمام المفكر ؟ وإذا ورد النص فما الدليل على النص ؟ وإذا سيق الحديث فمن رواية الحديث ؟
وإذا انفتح الباب للبحث عن الرواة ، كان لزماً أن يسير الباحث إلى النهاية ، فيدرس الراوية مثلما
يدرس الرواية .

وهذا الفقيه الذي أتيحت له حقبة نادرة من حقب التاريخ ليرى أحداث الدولتين الأموية
والعباسية الكبرى ، وتجري بين يديه انيارات الفكرية الخطيرة في تاريخ الحضارة الإسلامية
وهو عاكف على تلاميذه بسبح سبحاته معهم في آفاق هذا السكون الخافل ، حيث كل شيء حائل
ومتنقل إلا هؤلاء . الثابتين الصادقين عن أسباب الشقاء والسخائم . يجودون بنشاط جسمي وفكري
عجيب . تلمح عزائم الأحداث الرائعة المحيطة . فليستجب هو وتلاميذه إلى الصوت الذي لا يخفت
في ضجة المذاهب وفوضى التخليط ، والذي يهيب بالمؤمنين أن يضعوا حداً لفوضى وارسعوا على
الطبيعة الخطوط الكبرى للنظام . والخطوط التفصيلية للقواعد التي يتطلبها عالم تترامى أطرافه بين
الصين والمحيط الأطلسي . فلم تعد جزيرة العرب إلا نواة أو مركزاً للدائرة .
وإذا كان جواب الدولة العباسية الجديدة في عالم السياسة هو الحضارة الفكرية فلقد كان
جواب المدرسة الجديدة في عالم التشريع هو فقه أبي حنيفة القائم على الاجتهاد وعلى التحري
الدقيق للروايات . فليناقش كل شيء حتى لا تذيع الآراء الزائفة وتوضع قواعد البنيان التشريعي
الذي تأوى إليه الحضارة .

* * *

أفترى كانت المدينة المنورة في وسط الجزيرة ، وهي قلب العالم الإسلامي ، تصبر على هذه
الحركة الشورية ؟

إن للمدينة سلطانها الديني والتاريخي الذي تمنو له الجبابرة . فهناك أقام النبي وهناك ينشأ
جسمانه . وهناك عاشت الكثرة الغالبة من الصحابة وأمّهات المؤمنين فتصدرهن الرواية النابعة
عائشة بنت أبي بكر . وهناك الرواة من هؤلاء ، والرواة عنهم ، يقتفون آثار زعيم الحجاز
عبدالله بن عمر ، وعبد الله بن عباس . فمن مثل هؤلاء زكاة ومكانة وإماماً بمهد الرسول وبغزواته

وفماله وكتابه، وبأحاديث الخلفاء الراشدين والصحابة الأقربين . وأى بلدة طيبة كالمدينة تعيش في أجواء من البركة والكرامة ، تضيئ على كل شيء فيها فيوضاً من التجلة والا كبار .

كانت المدينة كعبة الفصاء لمن شاء أن يتفقه في الدين والتاريخ والتفسير وما إليها ، وكان عبد الملك بن مروان أحد فقهاء الاتنى عشر المعدادين - بارحها إلى الشام ليكون خليفة المسلمين ومعه زميله في الدرس قبيصة بن ذؤيب ليجمعه على خاتمه .

ولما عزم عبد العزيز بن مروان أن يعلم ولده بعث به إلى المدينة ليعود ثابى العمرين اللذين يهز الاسلام بمفاخرها أعطافه .

وكان في عهد أبى حنيفة إمامها العظيم مالك بن أنس ، الذى لا يفتى وهو فى المدينة، حفيد أبى عامر الأصبحى صاحب رسول الله، ولم يكن من طراز رجل الكوفة يتصايح التلاميذ من حوله أو يخطونه وجاها بل كان رجل تقاليد بحق، يهاب المستفتى أن يسأله أسباب فتواه ولا يرفع أحد صوته فى مجلسه . وبلغت مكانته بالمدينة أن الرشيد زاره لما حج وأن تشاور معه المهدي فى سنة ١٦٠ فى بناء البيت الحرام ولما هم أبوجهفر أن يبنى البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاوره فقال « أنشدك الله يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يهيره إلا غيره فتذهب هيئته من قلوب الناس . » فصرفه عن رأيه .

وفى سنة ١٧٤ حج الرشيد ومعه أبو يوسف فسمع الموطاء من مالك وتناقش فيه الفقهاء أمامه وقال الرشيد لمالك : فاقش أبى يوسف . فأنف مالك وتنزه عنه وهو المليم بمكانة أبى يوسف من العلم . بل قال للرشيد « هاهنا فتيان من قریش من تلامذتنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين . ! » كان للمدينة من السلطان الروحى ما عبر عنه مالك لليث بن سعد بقوله « إن الناس تبع لاهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن » .

وكانت حضارتها بسيطة غير معتدة ولا مشوبة بتخليط . المشا كل فيها قلائل ، والوقائع تتشابه وتتشابه . فاذا عرضت مسألة فان لها أشباهاً فى السوابق وحكما فى النهوض يسيطر على أهلها اعتقادهم أنهم لن يهمنوا خيراً مما صنع آباؤهم لأنهم تابعون وآباؤهم متبعون . ومن عقيدة

التابع أنه ليس كالمتبوع وأنه إن يكون جيل الثابمين ولا أى جيل بعده أو قبله كجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

أما الكوفة ففي ذلك الاقليم من أقصى الجزيرة حيث لم تكن مادة الفقه والأحاديث والسنن هي الهواء الذى يتنفس الناس فيه في كل مكان كالمدينة ، فإذا أقبل بنوها على العلم أقبلوا في تسامح المحيط الواسع الذى ينادى بالاجتهاد وبالرأى ، حيث الناس من كل الأجناس ، يقبلون على الدين الجديد تؤنسهم مدنية كبيرة ، وتكتنفهم معاملات وتجارات ونوازع شتى وفنون حضارة تحتاج في كل وقت إلى الرأى الجديد ، لا تغنى عنه النصوص القليلة المتداولة . جاؤوا يدلون بدلوهم في الدلاء ، يتحررون وينقرون ، لم تسكتهدأ رحلتهم بعد ، ولم تكن تهدأ إلا بعد أن تستنفدها شتى ضروب النشاط المادى والفكرى أو يعتورها الكلال والهرم .

لقد تلازم الاجتهاد والجهاد في تاريخ الاسلام وتحالف الر كود الفكرى والركود العسكرى النسبى من ألف عام .

قامت مدرسة الكوفة تقول بالخلق والابتكار واستعصم أبو حنيفة فيها مستمسكا بالرأى وبالتشدد في قبول الأحاديث وروايتها وعارض فقهاء المدينة وأشياهم . ثم تطاول الخلاف الفقهى فتحول إلى خصام ، وأعلنت حرب المذاهب ، بين كبات قارصة كقول القائل « وضع أبو حنيفة أشياء في العلم ، مضغ الماء أحسن منها . » ومستشععات من الألفاظ سخرى أمثالا منها بعد . وغدا فقه العراق هم الحجاز المقيم المتعد ...

غرب الوالى إلى عرفات خارج مكة رجلا من السفهاء وحرّم على الناس أن تلقاه فكانت تأتيه الفتيان على حمير يكترونها على الرغم من أمر الأمير . فجاءوا به فقال له الأمير « أى عدو الله . طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق فقال : « أصلح الله الأمير يكذبون على ويحسدوننى » قالوا « بيننا وبينه واحدة » . قال « ماهى » قالوا : نجمع حمير المكارين ونرسلها بعرفات . فإن لم تقصد إلى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء ، فالقول ما قال . قال الأمير : إن في هذا لدليلا . « وأتى بالحمير . فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله قال الأمير : ما بعد ما شئ جردوه . فلما نظر إلى السياط . قال اضرب فوالله ما فى هذا شئ أشد على من أن تسخر منا أهل

العراق فيقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير! افضحك الأمير... وقال « والله ما أضربك اليوم » وأسر بتخيلية سبيله .

وفي أواخر القرن الثاني كان بمصر قاض حنفي هو اسماعيل بن اليسع السكندى يقضى برأى أبي حنيفة في إبطال الوقف فذهب إليه الليث بن سعد يقول « جئت مخاصماً لك في إبطالك أحباس المسلمين (أوقافهم) ». ثم بعث إلى الخليفة يطلب عزله وهو يقول « إنك وليتنا رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . على أننا ما علمناه في الدرهم والدينار إلا خيراً » . وعزل الخليفة قاضياً كل جريرته عند الليث وصحبه أنه كان يذهب في الوقف مذهب أبي حنيفة .

وشارك الشعر بأوزانه في الملحمة . قال شاعر المدينة (عن أصحاب المقاييس وهم الحنفية) :

كنا من الدين قبل اليوم في سعة حتى ابتلينا بأصحاب المقاييس

قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم فاستعملوا الرأي عند الفقر والبوس

وكان شرشير المدنى يعيب أبا حنيفة . فقال شاعر الكوفة :

عندى مسائل لا شرشير يعلمها عند السؤال ولا أصحاب شرشير

ولا يعيب فصوص الحق يعلمها إلا حنيفة كوفية الدور

بلى : كانت هناك حنيفة وكوفية في جانب ومدنيون في الجانب الآخر . بل كانتا مدينتان

تتباريان وإن شئت قتل مدينتين أو فكرتين : الجديدة المستوفزة الراغبة في الخلق والاندفاع

والقديمة الهادئة الراغبة عن الابتداع ، وبذلك بدأت المعركة بين حزب التقليد وحزب الاجتهاد

وتأرجح المفكرون بين الآراء فرأينا رجلاً كالنضر بن شميل كان يقدح في أبي حنيفة في مجلس

المؤمنين بعد أن كان يمدحه يعود مرة أخرى فيقول (لا تر وعنا كل ما نقول في أبي حنيفة فانا

نقول عند الغضب أشياء ليس لها حقيقة » وتنصرم الأعوام ويشتد الخصام فيروى الطحاوي - وهو

من أئمة الحنيفة - أنه كان يذكر في بعض المسائل أبا عبد الله بن الحسين بن حرب المشهور

« بحربويه » قاضى مصر سنة ٣١١ فأجاب حربويه : ما هذا قول أبي حنيفة . فقال « أيها القاضي

أو كلما قال أبو حنيفة أقول ؟ » . قال « ما ظننتك إلا متلداً » . فقال الطحاوي « وهل يقلد إلا

عصبي » ؟ قال « أو غبي » وطارت الكلمة فصارت مثلاً .

ولما قامت مدرسة الشافعي بعد نصف قرن من موت أبي حنيفة برز خصم شديد . وتطاحنت المذاهب أيما تطاحن . وإذا بملكيين : بل والد وولده ، هما العادل سيف الدين بن أيوب صاحب دمشق يقول لابنة تسمى شرف الدين « يا بني كيف اتخذت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شافعية » ؟ فيجيبه ابنه قائلا « أترغبون عن أن يكون فيكم رجل مسلم واحد ! » وانزلق القوم إلى هوة الحقد فتدهور المبتدعة إلى حيث تعمى القلوب وإذا برجلين من « الخطائية » يستفتي أحدهما الآخر في أن يشهد على شافعي بالكذب فيفتيه بقوله : أأنت تعتقد أن دمه حلال ؟ فما دون ذلك دون دمه فاشهد ! وادفع فسادك عن المسلمين .. 11

و ذات يوم أمر قاضي مصر الحارث بن مسكين باخراج أصحاب أبي حنيفة وأصحاب الشافعي جميعاً من المسجد .

وفي الأندلس تناظر الحنفية والشافعية يوماً بين يدي السلطان فسألهم في بساطه من أين أبو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : ومن أين مالك ؟ قالوا : من المدينة . قال « عالم دار الهجرة يكفيني » وأمر باخراج أصحاب أبي حنيفة وقال « لا أحب أن يكون في عملي مذهبان » . وأخيراً ذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض وأنزل الله على قلوب الحزبين سكينته وأمنناً فكانت نار الخلاف برداً وسلاماً وغدت وجوه النزاع سباقاً لنصرة الدين . وكنوزاً تقيها بين أيدينا لتأخذ منها مثلما نأخذ من وهج الشمس وانحدار الماء واجتماع السالب بالموجب ، قوى خالقة جبارة تأتي بالأعاجيب .

روى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (اختلاف أصحاب محمد رحمة) ورووا عن عمر ابن عبد العزيز أنه قال « ما سرتني باختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حمر النعم » وأنه قال « ما سرتني أن أصحاب محمد لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » . ولما قال الرشيد للمالك ليكتب « الموطأ » ويفرقه في الآفاق ، ليحمل الناس عليه كقانون مدون . قال « يا أمير المؤمنين اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة . كل يتبع ما صبح عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى » .

وهكذا اختلف الصحابة ولم يتعادوا ، واختلف الأئمة ولم يتخاصموا . ولا ينبجم العداء الفكري إلا بين الحق والمتنطعين . ألا هلك المتنطعون .

الباب الثامن

في الفتن

« إني أرى ، لا أكثر . وأؤمن ، لا أقل ، »
« أما مستقبلي فلا أضعه نصب عيني »
فيكنوز هيجو

« إني أرى وأؤمن . لا أكثر ولا أقل » . تلك قواعد تفكير أبي حنيفة في كلمة جامعة مانعة أما الناس أو التقاليد ، أما السخط أو الرضا ، فأنها أمور تجيء في المحل الثاني أو لا تجيء أبداً . مصدر التشريع الاسلامي هو القرآن ، غير أن آيات الأحكام فيه نحو مائتي آية من ستة آلاف كانت تنزل على النبي في المناسبات ، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلى لا جزئى ، وهو مما شرف الله به هذه الأمة ، إذ لم يهمل عقولها ولم يلقنها الجزئيات تفصيلاً ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات على الحوادث والأشخاص مع بيان وجوه العمل بها ، بالقول أو بالفعل أو بالاجازة ، وهو ما اصطلاحوا على تسميته بالسنة وصار بطبيعته مصدراً ثانياً للتشريع .

في عهد الخلفاء الراشدين ، كانت تقع حوادث لم يعلم للنبي في نظائرها آراء ، فكانت سياساتهم فيها تتحصل فيما أثر عن الفاروق ، وهو يولى شريحاً قضاء الكوفة ، إذ قال « انظر ماتين لك في كتاب الله ولا تسأل أحداً ، ومالم يتبين لك فاتبع فيه سنن رسول الله ومالم يتبين لك في السنة ، فاجتهد فيه رأيك » ، وفيما كتبه إلى أبي موسى الأشعري من أن « انقضء فريضة محكمه أو سنة . . . الفهم الفهم فيما تلجلج فيه صدرك مما ليس في كتاب أو سنة ، اعرف الأشباه والنظائر . وقس الأمور عند ذلك » .

ولم يكن ثم اجتihad بالرأى إلا لضرورة ملجئة ، كتب كاتب لعمر « هذا رأى الله ورأى عمر » . فصاح به « بأسماء قلت . هذا رأى عمر . فان يك صواباً فمن الله وإن يك خطأ فمن عمر . . . » ولما أفتى ابن مسعود في صداق امرأة مات زوجها قبل أن يدخل بها ولم يفرض لها صداقاً ، قضى بأن يكون لها مهر مثلها من نسائها ، وأضاف « فان يك صواباً فمن الله وإن يك خطأ فنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان . . . » .

إلى هذا الحد بلغ تخرج الرجلين اللذين هما زعيما الرأى في الاسلام . . . ١

كان الخلفاء الراشدون يستشيرون زعماء الفكر من الصحابة إذا استغلت وجوه الأمور ، وكان عددهم محصوراً ، فكان الاجتماع ميسوراً ، وكان لأبي بكر ما يشبه مجلس الشورى يدعو إليه رجالاً من المهاجرين والأنصار منهم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي

ابن كعب وزيد بن ثابت فلما خافه عمر كانوا في طليعة مستشاريه .

ولم يكن عمر يتردد في الرجوع عن أخطائه ، قضى في عام من الأعوام بحرمات الاخوة الأشقاء مع الاخوة لأم والزوج في الميراث ، وفي عام آخر أشركهم جميعاً في ثلث المال ، وقال :
ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى ... ولم ينقض حجة « الشئ المحكوم فيه » كما يسمونها
في الفقه الحديث .

ورفعت إليه جارية سوداء متهمه بالزنا فخففها بالدرة خفقات وقال « أى لكاع زنيت ..
قالت : مرعوش بدرهمين » تريد صاحبها الذى صنع بها والمهر الذى أعطاها » قال عمر : ماترون ؟ .
وكان عنده عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، قال على : أرى أن ترجمها ، قال عبد الرحمن :
أرى مثل ما رأى « أحوط » فقال لعثمان : ماترى ؟ فقال إنما حد الله عز وجل على من علم أمر الله .
قال : صدقت . ورد على الجماعة ، وأسقط الحد وبين أنها تجهل ما صنعت فلا يجب عليها الحد .
ورفعت إليه قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليها فتردد ... هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فقال
على : أرايت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟
قال : نعم . قال : فكذلك . فكتب عمر إلى عامله أن اقتلها فوالله لو اشترك فيه أهل صنعاء
كلهم لقتلتهم .

ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون أربعة أخماس الفريضة مستندين إلى ظاهر النص
في الآية ، ومؤداه أن يأخذوا أربعة أخماس البلد الذى يفتحونه ويبقى الخمس للمنفعة العامة لكن
عمر تساءل : كيف آخذ أرض الناس منهم ؟ قال مندوبو الفاتحين هذا ما أفاء الله علينا بأسيا فإنا قال
عمر هذا رأى . قالوا : استشر .. وأشار عبد الرحمن بن عوف برأيهم وأشار عثمان وعلى وطلحة
وابن عمر برأى عمر . فدعى عشرة من الأنصار قال لهم فيما قال « قد سمعتم قول هؤلاء القوم الذين
زعموا أنى أظلمهم حقوقهم .. أرايت هذه الثغور التى لا بد من رجال يلزمونها ... لا بد لها أن
تشحن بالجيوش وإدراار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء ... ؟ » وأشار برأيه المستشارون .
وفى ذلك يقول أبو يوسف « والذى رأى عمر رضى الله عنه من قسمة الأرضين بين من
افتتحها عند ما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت

الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المساهمين عموم النفع لجماعتهم» - ذلك بأن الخراج إنما يصرف في شئون الدولة ، فيعم به النفع كافة المسلمين بطريق غير مباشر . هذه السياسة العمريّة هي التي نشرت الاسلام في الأمصار . فلو استولى الغزاة على الأرض من ذويها لجرد الناس من أموالهم ومنازلهم ، ولقابات أسماؤهم بالهضم صوت الحق ، مروّعين بما يصاحبه من عنف مخرب يطغى على الهداية التي تبسطها الحنيفية السمحة بجناحيها على العالمين . وفي عام المجاعة عطل عمر حد السرقة ، ولم يقطع يد الغلمان الذين سرقوا الناقة بل غرم وليهم ثمنها مضاعفاً لأنه يجمع غلماناً .

وفي الصدقات أسقط حق المؤلفة قلوبهم لأن الاسلام بلغ عزه فلم يعد بحاجة إلى تأليف القلوب بالعطاء .

وفيما لا نص فيه كم كانت لابن الخطاب اجتهادات ... فهو يعهد بالخلافة على غير عهد أبي بكر ، ويوصى بانتخاب الخليفة من ستة عينهم ، ويفرض العشور على الصادر والوارد ، ويفرق بين المهاجرين والأنصار في العطاء .

واجتهد عثمان فجدد أذاناً ثانياً لفريضة الجمعة لما اتسعت رقاع المدن ، وجمع الناس على قراءة مصحف واحد ، هو المصحف الإمام ، مع ما هو معلوم من أن القرآن نزل على سبعة أحرف . وإنما خشى عثمان الفتنة لتفريق الحفاظ واستشهادهم وتباعداً أطراف البلاد ، واجتهد على كاجتهاده في حد قتل الزنادقة فجعله بالحريق في الأخاديد إذ رأى المصلحة في الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشديد واجتهد في قضائه الذي كان مضرب الأمثال .

وفي عهد بني أمية تفرق الصحابة في الأمصار فكان بكل مصر من الصحابة والتابعين رجال يتولون الفتيا ويعلمون الناس القراءة والأحاديث والمغازي ، فلما نجمت الخلافات السياسية التي ألمت بها في الباب السابق نجم معها مستطير ، فاذا بالخوارج ولهم فتاوى والشيعة ولهم فتاوى ولسائر الأمة فتاوى — وإذا بقبس من النور يترآى في اجتهادات بعض الفقهاء ، لكن الغلبة كانت للقائلين بعدم الاجتهاد التزاماً لظاهر النص في الآية ، وظاهر اللفظ في الحديث ، خشية الزلل بل ذهب البعض إلى القول بأنه لا فتوى لديه إذا لم يكن النص بين يديه .

قالوا : أدرك عبد الرحمن بن أبي ليلى عشرين ومائة صحابي ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ، ولا يحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه .

ومن الفقهاء من كان يمتنع أن يفتى في مسائل بذاتها كصفيان بن عيينه لم يك يفتى في الطلاق ويقول « من يحسن هذا .. ؟ » ولما أعجب به ابن حنبل قال فيه « مارأيت مثل ابن عيينه في الفتوى أحسن فتياً منه كان أهون عليه أن يقول لا أدري »

ولم يكن سعيد بن المسيب يكاد يفتى إلا وهو يقول « اللهم سألني وسلم مني » بل هؤلاء بعض أهل العلم يقولون : تعلم لا أدري فانك إن قلت لا أدري علموك حتى تدري ولو قلت أدري سألوكم حتى لا تدري ! .. !

سأل رجل من الغرب مالك بن أنس فقال : لا أدري قال السائل نقول : لا أدري ! قال : نعم . فأبلغ من وراءك أني لا أدري ... !

وذات يوم سئل فقال . لا أدري . فقال السائل : إنها مسألة خفيفة سهلة وإنما أردت أن أعلم بها الأمير — وكان السائل ذا قدر — فغضب مالك وقال (مسألة خفيفة سهله اليس في العلم شيء خفيف أما سمعت قول الله تعالى « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » . .)

وقال مالك يوماً : إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن . وسئل أربعين سؤالاً فقال عن ستة وثلاثين سؤالاً منها : لا أدري .

وكان علامة التابعين الشعبي يقول « لا أدري نصف العلم » قال : لا أدري يوماً ، فقال له السائل : ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراق ؟ قال : لكن الملائكة لم تستح أن تقول لله « لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

كانت أطراف الامبراطورية الاسلامية قد ترامت إلى أقصى أقطار العالم المعمور . فلم تك إمبراطورية القياصرة ولا إمبراطورية الكاسرة إلا بعض أجزاءها ، لقد غربت الفياق الاسلامية إلى البرزخ الذي يحمل مفاتيح البحر الأبيض لدى المحيط وشرقت كالسهم تخترق آسيا إلى أقطار الصين ، وتضاعفت المسائل والمشاكل والأشخاص والأشياء ، فكيف تغني نصوص

بلغت من الندرة ما أحصينا ، وتخرج من الافناء باخ من الضيق ما بينا ، وسيادة لنظرية « اللأدرى »
توحى بتعطيل الفتيا . . . ١

لم تكن الحضارة التي يجنحها ضمير الغيب للإسلام ، والفتوح السياسية والفكرية التي أزهرت
في عهد بنى العباس ، لتتم أو تزدهر في أجواء هذا الحرج الفكرى الذى يضطرب في قيوده الفقهاء .
كانت بالعراق قوى عارمة تستبق الزمان وتستبق حضارة بنى العباس قبل أن تقوم دولة
بنى العباس ، فلم يك للأمة غنى عن رجال يهيئون بأفكارهم للمستقبل أصولا تشريعية صالحة
لقيام نهضة علمية واجتماعية واقتصادية يرتبط المسلمون فيها بالفتنة كما يرتبطون بالدين نفسه على
أساس من فهمه والايان به ، والقدرة التي هي شرط التكليف .

فهل استجابت قوى الأمة إلى ماجاش في صدرها . من خلجات وحاجات ؟ هل فسحت
المجال الحيوى او اهاب بنيتها لتربى وتمتشر وتطير في كل مكان وزمان على أحرف الهجاء ،
كما يطير الصوت على ألف جناح وجناح من موجات الهواء ؟ وبعبارة أخرى هل قدمت هذه
الأمة الدليل على قوتها وحيويتها وأصالة حضارتها ؟ والدولة الحية كالجسم الحى إذا حزبتها الأمور
نبض قابها أقوى نبضاته وتجمعت قواها تجمع الأسد للوثوب فدفعت إلى الوجود من يلاؤن
انفراغ كله ، ويخنقون الرجاء كله ، فيدفعونها إلى الأمام دائماً وباستمرار .

بجسبنا أن نرجع البصر كرة واحدة لنرى مقدار ما استجابت المدينة الاسلامية إلى ذلك
الغداء الصامت عند ما تجاوبت في جنباتها أصداؤه ، ومدى رسوخ هذه الخنيفة السمحة
ونفوذها إلى الأعماق ، ونرى إلى جوار ذلك فضل السبق الذى تفرد به قصبه الامام المجلى في
حلبة الفقه والعلم والذى نادته الحضارة الاسلامية في كل عصورها بأنه « الامام الاعظم » .

ففى سنة ٨٠ ولد أبو حنيفة ، وفى سنة ١٢٠ كان يلقي على الناس أصول مدرسة الكوفة
ليدونها أبو يوسف وغيره من التلاميذ على ما أسلفنا من بيان ويسجلها من بعدهم رهط كبير من
العلماء تاللاً ووا فى سماء الدولة العباسية التى لم تبدأ حياتها إلا فى سنة ١٣٢ وازدهرت فيها الحضارة
العلمية فى أيام الرشيد فى أواخر القرن ، وفى أيام المأمون وما تلاها فى القرن الثالث للهجرة .

أما الأوزاعى إمام الشام فولد سنة ٨٨ ، ومالك بن أنس إمام المدينة ولد فى سنة ٩٣ ، وزفر

ابن الهذيل ولد في سنة ١١٠ ، وأبو يوسف ولد في سنة ١١٣ ، ومحمد ولد سنة ١٣٣ .
 وفي سنة ١٥٠ و ٧٦٧ م هوى نجم وبرز نجم فمات أبو حنيفة وولد الشافعي ، وفي سنة ١٦٤
 ولد رابع الأئمة الأربعة ابن حنبل ، وفي سنة ١٧٩ و ٧٩٥ م مات مالك ، وفي سنة ٣٠٣ ولد داود
 الظاهري إمام أهل الظاهر ، وفي سنة ٣٠٤ (٨٢٠) مات الشافعي وفي سنة ٣٢٤ ولد الطبري وفي سنة
 ٣٤١ و ٨٥٥ م مات ابن حنبل .

ظهر هؤلاء الأئمة جميعاً بعد أبي حنيفة بسنين وعشرات السنين ملبيين لنداء الأمة ،
 مترسمين خطى الأستاذ الأول الذي استجاب على يديه العناية الإلهية لطائف الاسلام .

* * *

سئل أبو حنيفة عن خطته في الفقه فأجاب « إني آخذ بكتاب الله إن وجدته ، فإلم أجده
 أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التي فشت في أيدي الثقات ، فإذا لم أجده في كتاب الله
 ولا سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت ، وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول
 غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب — وعدة
 من مجتهدي التابعين وتابعيهم — فلي أن اجتهد كما اجتهدوا » .

والصحابة هم الذين كانت لهم صحبة بالرسول طالت أو قصرت على ما رأى المحدثون أو الذين
 رأوه على ما يرى البخاري . أما التابعي فهو من رأى صحابياً ولقيه ، روى عنه أو لم يرو عنه .

لي أن اجتهد كما اجتهدوا

تلك هي المسألة الأولى لأبي حنيفة .

وإذا كان أبو حنيفة يمنحني إمام رأي الرسول ورأي الصحابة فيقول « إن مقام أحدهم
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة خير من عمل أحدنا جميع عمره وإن طال » فلقد
 قال عليه الصلاة والسلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وكان أحدهم يرى الرأي
 فينزل القرآن بتوافقه كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم ونزل القرآن بموافقه ،
 ورأي أن تحجب نساء النبي ونزل القرآن بتوافقه ، ورأي أن عبد الله بن أبي منافق ونزل
 القرآن بموافقه .

وموافقات عمر للقرآن والوحي تبلغ بضعة عشر موضعاً .

وحقيق بمن كانوا كذلك أن تكون لأرائهم خير المنازل . قال أستاذ الكوفة ابن مسعود « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقواها تكلفاً . . . »

لكن أبا حنيفة إذ ينحى أمام أصحاب الرسول لا ينحى لسواهم من التابعين ولا تابعى التابعين فأولئك لم يمسسهم من بركات الصحبة مثل ما قدر للأولين .

ولما سأل لاس كازاس نابليون في سنت هيلين بعد ألف عام من وفاة أبي حنيفة : لماذا لم تأخذ سيف فردريك الكبير منذ كنت في برلين ؟ أجاب « لقد كان معي سيفي . »

كان فقه الكوفة مطبوعاً بطابع ابن مسعود وكان كهمر يجتهد فيرى الرأي حيث لا يوجد النص . وبلغ اجتهاده أن قال عنه ابراهيم النخعي « إنه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود إذا اجتمعا فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه ألطف » .

سئل أبو حنيفة : إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالف قولك ؟ قال « أترك قولي لكتاب الله » قيل فإذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ؟ قال « أترك قولي بخبر رسول الله » قيل فإذا كان قول الصحابي يخالف قولك ؟ قال « أترك قولي بقول الصحابي » . قيل . فإذا كان قول التابعي يخالف قولك ؟

قال : « إذا كان التابعي رجلاً فأنا رجل . . . »

أجل : هو رجل والرجال قليل .

إنه يجتهد رأيه ، فيحكم عقله ، كما كان بعض زعماء الفكر من الصحابة يحكمون عقولهم فيصدرون فتاواهم على قواعد الاسلام العامة كقوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » . وقوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أو قوله « أدرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة » أو قوله إذا أمرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أو قوله تعالى « لا إكراه في الدين » . أو قوله سبحانه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وغير هذه القواعد الكليات .

تلك المسألة الأساسية في فكر أبي حنيفة كانت نقطة التحول في الاتجاه العام للمجتهدين فليقدح أبو حنيفة زناد الفكر الانساني وليس برأغواره. وليتاب النصوص بين يديه في جسارة لا تهاب الافتاء ، فاذا أصاب فهو مأجور ومأجور ، وإذا لم يصب فالعصمة لله جميعاً .

قال صاحب الشريعة : إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر وقال لصاحبيه الصديق والفاروق (قولاني فيما لم يوح إلى مثلكي) ، ولما أخطأ رأى صاحبه يوم وقعة بدر في المكان الذي يربط فيه أخذ يقول له (.. يا رسول الله إن هذا المكان الذي أنت فيه ليس بنزل ، انطلق بنا أبي أدنى ماء القوم فاني عالم بها وبثيابها ، بها قايب قد عرفت غدوة مائه لا ينرح ثم نبني عليه خوضاً فنشرب ونقاتل ..) فنهض ففعل ذلك .

إن لأبي حنيفة بر رسول الله أسوة حسنة ، فالجهد دائماً مثاب ، لأن الاجتهاد في ذاته صواب أو كما قال أبو حنيفة « المجتهدان مصيبان والحق في واحد » وكما قال الشافعي « المجتهدان مصيب ومخطئ » معفوع عنه « وإذا تحاض المسامون على الجهاد في سبيل الدين ، فليتحاض العلماء على الاجتهاد في سبيل العلم .

وليتم أجر أبي حنيفة على الله مصيباً ومخطئاً ، وليشق للناس هذه الطرائق المعبدة التي يسرون فيها بأمان واطمئنان ، بحسبونها خلقت موطأة الاكناف كما هي الآن ، وكانت من قبل أضيق من سم الخياط وأكثرت روعاً من المسبعة .

إن الكشوف العظمى التي يتخذ منها العالم أبعديات حضارته اليوم كانت في ظلمات الجهل الإنساني أعداءاً ، وكان العالم حرياً أن يظل سادراً في جهالته بها أزماناً لو لم تسكشف له . فليس بهين عمل أبي حنيفة في إعمال الرأي إذا كنا الآن نأتي بالرأي في كل شأن ، فان هذه الحرية الفكرية لم تنقر إلا بعد أن خط لنا ثلة من العباقرة مسالكنا في الشباب واقتفت آثارهم نخبة الطلائع ، وجاءت في أعقابهم عصور الإحياء في الغرب وثورات دينية وفكرية ، لولاها لما بلغ الناس ما بلغوه من حرية التفكير والتعبير .

أما أبو حنيفة ففض الحجب واستطاع من ألف ومائتي عام أن يقول : إني أرى .

وفي السنن والاحتجاج بها كان لأبي حنيفة شئون أخرى .
السنة هي الطريقة .

وهي في الفقه ما جاء عن رسول الله من أقوال أو أفعال أو إقرار لأقوال أو أفعال صدرت من
سواه وتطلق على عمل الصحابة لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا، أو اجتهاداً مجتمعاً عليه
منهم أو من خلفائهم .

قال عليه الصلاة والسلام : «عليكم بسنني وسنة خلفائي الراشدين المهديين تسكوا بها وعظّموا
عليها بالنواجذ» .

والاحتجاج بالسنة يكون بالأحاديث التي تصدر بشأنها .

كانت الكثرة الغالبة من رواة الأحاديث بالمدينة كما أسلفنا، وكانت طريق الوثوق بالخبر في
أمور التشريع أن يعمل أئمة الصحابة أو فقهاؤهم بما يوافقهم أو يجري عليه عملهم لا يختلفون فيه، لأنه
عن مشاهدة جيل لمن قبله حتى عهد الرسول فهو من باب السنة العملية، أما أفعال النبي الشخصية
كالهجرة أو ما ملته لزوجاته، فتلك أمور خاصة به وبالدين وهو يقول «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .
لكن حالة الأمة والخلافات التي نشبت حرضت على اختراع الأحاديث أسلحة للحرب
الداخلية، وكان كل حزب يزكي رأيه بالحديث الصحيح والحديث المخترع، وكثرت أسباب الاختلاق
كما بينا من قبل، وأصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب — كما قال الدارقطني —
كالشعر البهيماء في جلد الثور الأسود، وفشت في السكوفة القالات لكثرة الشقاق، وقلة الرواة،
ولأن الثورات لم تكد يفرخ روعها بعد، حتى كان مالك يسميها دار الضرب «ضرب
الجملة»، إذ تمسك فيها الأحاديث كما تمسك النقود .

وكان الثقة من الرواة يختلفون في النصوص عن الحديث الواحد، منهم من يختار كلمة تؤدي
معنى بدلا من أخرى تخيرها غيره، كحديث خطبة الوداع ولا خلاف فيه، جاء في نصه الخلاف بين
الرواة، ولم تكن الأحاديث كلها نقلا عن النبي بل كان يشترك في بعضها الصحابة، وكانت لغة
الناقلين متغايرة ونطقهم مختلفا فنتج من ذلك اختلاف كبير بعضها بحسن نية وبعضه باهمال،
وكثير منه خال من الإخلاص . ولم يك أحد، حتى الصديق والفاروق، يستطيع الإحاطة بجميع

الأحاديث ، ثم إن من الأحاديث ما لم يثبت عند محدثه أو محدث محدثه ، ثم آفة النسيان .
فالفاروق نفسه نسي فذكره عمار فلم يتذكر ... !

سئل عن الرجل يجنب في السفر فلا يجد الماء فقال لا يصلي حتى يجد الماء فقال له عمار : يا أيها
المؤمنين أما تذكر إذ كنت أنا وأنت في الابل فأجنبنا . أما أنا فتمرغت كما تمرغ الدابة ، وأما
أنت فلم تصل فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنما يكفئك هكذا وضرب بيديه
الأرض فمسح بهما وجهه وكفيه فقال عمر : اتق الله يا عمار . فقال عمار : إن شئت لم أحدث به
قال عمر : بل نوليك من ذلك ما توليت .

من أجل ذلك كان عمر لا يقبل الحديث إذا رواه واحد إلا إذا استشهد على روايته
شاهدين ، وكان على يستحلف الراوى ، أما ابن مسعود فكان إذا قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم استقلته الرعدة وقال هكذا ... أو نحو ذا ... أو قريب من ذا ... وكان إبراهيم
النخعي لا يقول قال النبي وإنما يقول قال ابن مسعود أو قال علقمة ... وكان الشعبي يقول « كره
الأولون الصالحون الا كثار من الحديث ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت إلا
بما أجمع عليه أهل الحديث » .

وإذا كان ذلك شأن الخلفاء قبل أن يستفحل الشر ، فهل يخضع له أبو حنيفة بعد أن بلغ السيل
الزبى ، وهو هو الذى لا حجة عنده إلا للثابت الصحيح .

أفينحنى معصوب العينين أمام هذه الأحاديث التى بلغت مئات الألوف ، دون أن يعمل
فيها قواعد ؟ أفيقبل قول أهل المدينة إن الوسيلة لتحقيق صحة الحديث هى أن يعملوا بها وأن
يردوا الأحاديث التى لم يجر العمل عليها لديهم كما صنع مالك مع أبي يوسف وهو قاضى القضاة ؟
سأل أبو يوسف مالكا عن الأذان فسأله بدوره عن الأذان لديهم ، فذكر مذهبهم فيه فقال
مالك : من أين لكم هذا ؟ فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سأله أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر
فقال مالك : ما أدري ما أذان يوم . وما صلاة يوم . هذا يؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
وولده من بعده يؤذنون فى حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين بعده ! يشير بذلك إلى
أن ماجرى عليه العمل عند أهل المدينة أولى بالاتباع .

إن أبا حنيفة يوجب البحث عن طريق الثقة بالسنة ، ويجب لذلك عنده أن تكون متواترة وإلا فمشهورة ، وإذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه على وجه يتفق وعلل الشريعة وأحكامها . وسبيل التواتر أن يروى الحديث جماعة عن جماعة حتى يؤمن التواطؤ ، وأكثر السنة المتواترة في الأفعال كالشعائر والعبادات ، تتناقلها الأجيال . وسبب ذلك أن أعمال الرسول هي وسيلة تطبيق الأحكام التي وردت في القرآن يحاكيها الناس ، فيتعلمونها ويتوارثونها كأسلوب الصلاة والوضوء وشعائر الحج .

وقل أن يوجد حديث قولى متواتر .

فإن لم يكن الحديث متواتراً فيجب أن يكون الراوى عدلاً موثقاً به ينقل عن عدل موثق به ، وأن تكون الأمة والنقهاء وبعض الصحابة قد عملوا به دون أن يخالفهم أحد فيه لأن هذا يدل على إقرارهم له ، إذ لو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، ومن هذا النوع كانت الأحاديث التي آلت إلينا عن عمر وابن مسعود ، روتها عنهم جماعة بعد جماعة ومنها حديث ... (لا ضرر ولا ضرار) وحديث (إنما الأعمال بالنيات) .

أما ما يخالف القرآن من السنة فليس منها .

وأما أحاديث الآحاد التي يرويها واحد عن الرسول أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر عن واحد عن الرسول - وما أكثرها - فلا يطمئن إليها أبو حنيفة وإن كان الكثير منها في نواح أخرى من المسلمات .

وهو يعرض الحديث على عمومات الكتاب وظواهره ، والسنة ، فإن خالفت ظاهر القرآن استبعدتها وأخذ بالقرآن . وإن خالفت السنة المشهورة استبعدتها ، لأن القوى لا ينسخه الضعيف وإن طعن فيها السلف رفضها . وكذلك يرفضها إذا خالفت العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين ، وإذا جاءت أخبار الآحاد مخالفة لقاعدة من قواعد الشرع فلا يعمل بها ، ولا يقبلها في الحدود لأنها تدرأ بالشبهات ، ولا في الكفارات ، ولا يقبل حديثاً عمل راويه بعد روايته بخلافه ولا يقبله فيما نعم به البلى أو إذا عارضه آخر مثله وتأييد المعارض بالقياس .

كان الصحابة الذين أقاموا بالمعراقين قلائل أمرهم عمر ألا يحدثوا الناس . وإليك مثلاً : كان

حذيفة بالمدائن وكان واليها سلمان . وكان حذيفة يذكر أشياء قالها الرسول لأناس من أصحابه في الغضب ، فينطلق أناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون ذلك فيقول سلمان : حذيفة أعلم بما يقول ، وعاتب حذيفة سلمان على هذا التعبير فهدده سلمان بقوله : فوالله لتنتهين أو لأكتبن احمر !

لقد كانوا يهابون الدرة في يده ! ويهابون أنه حبس ثلاثة من الصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن الرسول .

سئل أبو هريرة يوماً أكنت تحدث الناس في زمان عمر هكذا ؟ قال : لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بحفقه .

فلا عجب إذا كانت ظروف العراق توجب الاحتياط في تلقي الأحاديث . ولا عجب إذن في أن يقول أبو حذيفة « عندي صناديق من الحديث ما أخرجت منها إلا اليسير الذي ينتفع به .. » ولا عجب أن كان يروى أربعة آلاف حديث ، ألفين منها عن حماد ، وألفين عن غيره ، وأنه كان إذا هبط الكوفة يحدث بعث أصحابه على أثره ينظرون هل عنده شيء من الحديث . ولا عجب مع هذا كله إذا انحصر المتفق عليه عند الحنفية في قليل جداً من الأحاديث .

كان مالك بن أنس يتخير أحاديثه في الموطأ ينقصها عاماً بعد عام ، وكان ينهى ابن وهب تلميذه عن الاكثار من السماع الذي لا يحدث به ، بل إنه يندم على ألا يكون طرح من الأحاديث أكثر مما طرح ، ولما مات وجد في تركته حديث كثير لم يحدث به .

وهذا وأمثاله رد الفعل لحالة طال عليها العمر بعد أبي حذيفة حتى ليقال إن البخاري اختار أحاديثه سبعة الآلاف - ومنها نحو ثلاثة آلاف مكررة - من ستمائة ألف حديث كانت متداولة عند ما وضع صحيح البخاري . ١١١

بل قال حنبل بن اسحق عن عمه الامام احمد بن حنبل « جمعنا عمي : وقرأ علينا المسند . وقال لنا إن هذا الكتاب جمعه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً . . . » .

بل ويقول أبو زرعة لعبد الله بن أحمد بن حنبل . « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث » فيسأله الرجل وما يدريك ؟ فيجيب : ذا كرمته . فأخذت عليه الأبواب ١١١ .

ولم يكن مسند ابن حنبل يزيد على أربعين ألفاً من الأحاديث ١
فكيف بدولة المحدثين وقد جاء أبو حنيفة ينقصها من أطرافها، يتربها وينخلها، حتى ليرى
بعض المؤرخين أن ما صح عنده سبعة أحاديث متواترة . . . ١ أو كما قال ابن خلدون. « إن أبا حنيفة
رضي الله تعالى عنه بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها . ١١١ »
والصحيح أن أبا حنيفة انفرد بمائتي حديث وخمسة عشر حديثاً غير ما اشترك في إخرجه
مع سائر الأئمة . وله مسند روى فيه في الصلاة وحدها ١٢٨ حديثاً ولما جمع أبو المؤيد الخوارزمي
مسنداً له وقع في ٨٠٠ صفحة .

من أجل ذلك - وتلقاء ما لم يثبت عنده من العدد الضخم من الأحاديث - كانت قواعد أبي
حنيفة قبله لا يحس أثرها القاري بقدر ما أحسنه الشهود أي المعاصرون وقدر ما نزل بالمصالح بين وهم الرواة .
لقد زلزلت دولة المحدثين زلزالها أمام تلك الغزاة الفكرية ، المقبلة من المشرق مع الدولة المقبلة
من العراق ، حتى جاء الشافعي يرد إليها مكانتها بمجداله العبقرى في بغداد والحجاز وفي الفسطاط
وهياً لذلك المباحبان نفسيهما ، بعد إذ مات الشيخ في بغداد وتبعهما الشافعي ، بأسلوبه القوي فاعتزت
به دولة المحدثين أيما اعتزاز .

* * *

حتى أبو حنيفة الاسلام من أن يقصر الفقه دون مطالبه ، فأدخل فيه الاجتهاد ، وحى الفقه نفسه
من أن يبني ، بالمبادرة إلى تدوينه ، فنقل إلى الأجيال اللاحقة فقهه وفقه السابقين .
وقف أبو بكر عند ما ارتد العرب وفقته المشهودة فجرد لقتال المرتدين من استطاع تجريدهم
من المسلمين الأولين وسقط في هذا القتال كثيرون من الحفاظ ، فراح عمر يقول له في إثر واقعة
اليمامة « إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ،
فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن . »
ولم يزل يراجع حتى شرح الله صدره لذلك ، ورأى رأى عمر ، فجمعت المصحف ثم صارت
« المصحف الامام » في خلافة عثمان بن عفان . أقيمت منها نسخة واحدة لديه ، ووزعت خمسة في
الأقطار في مكة والمدينة والسكوفة والبصرة والشام .
أما السنة فلم تجمع وإن كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجاز جمعها .

روى أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه .. فنهتني قریش فقالوا: إنك تكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق » . وصحيفة عبد الله هذه هي المسماة « بالصادقة » .

ولما خيف تحريف الأحاديث بعد وفاة الرسول جمع أبو بكر الناس وقال « إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافًا ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئًا ، فمن سألكم فقولوا يفتاؤ بدينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » حتى إذا ولي عمرهم بجمع الأحاديث ، ثم أصبح يوما فقال للناس إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم ذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

وأبى ابن الخطاب أن يجمع الأحاديث مع أنه صاحب الرأي في جمع الكتاب العزيز . كان الصحابة لا يذكرون أحاديث الرسول إلا مقايين على ما أسلفنا من بيان ، ولما بعث عمر بعثه الأول إلى الكوفة قال للمبعوثين (إن أهل العراق لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم برواية الأحاديث وأنا شريككم) .

وقد نجا كان من شرائع أسبرطة أن لا تدون القوانين إلا في القلوب ، وأن يترس الناس بها في حياتهم وتدرج الناشئة عليها في أيامها الأولى ، لتكون الأئدة رعاها لا النصوص . فمنع « ليكرج » تدوين الشرائع ، وكانت فلسفة التدوين عنده تتحصل فيما عبر به عن فلسفته في القيود والحدود حيث قال « ليست بغير سور هذه المدينة التي لا سور لها إذا كانت تحميها قلوب الشجعان » وما تزال أمم كإنجلترا دستورها غير مكتوب تقوم على حياتها مهج ليس أرخص عندها من أن تسيل في سبيله . وكانت حضارة المصدر الأول من الإسلام روحية خالصة ، وبهذا نستطيع أن نفهم تردد الناس في التدوين وقلة حاجتهم إليه ، وقول القائل إن إنبات السنن بعد جموعها ليس أصلح منه قبل ذلك .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز هم بجمع السنة وتدوينها على يد ابن شهاب الزهري وأبي بكر محمد بن عمرو .

كانت كل الأشياء تلج على الأمة للتدوين سواء في الحديث أو الفقه أو التاريخ أو الشعر أو العلوم ، وكانت أشد حاج الأمة إلحاحاً حاجة فقهاء إلى التسجيل حتى لا ينهار بين أيدي الشيع المتخاذلة ، وحتى يتمكن الكافة منها بتلك الوسيلة التي لا رسول مثلها بين الأجيال نفعي بها الكتابة والغذاء الفكري لا يقدم للعقل البشري إلا في وعاء من الورق : في كتاب .

لم تكن الوراقة تكاد تعرف بعد ، وكان الورق بعيد المنال ، حتى أن الدولة في عهد المنصور (سنة ١٣٦ - ١٥٨) كانت تكنز القراطيس مخافة نفادها ، وفي ذات يوم وقف المنصور على كثرة القراطيس بخزائنه فأمر ببيعها وإن لم يعط عن كل طومار إلا دانقاً ($\frac{1}{4}$ درهم) وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم ، وفي الغداة عدل عن رأيه واستبقى القراطيس مخافة أن يقع بتصر حادث تنقطع القراطيس بسببه ، ولهذا العلة كان الفرس يكتبون في الجلود والورق تخلصاً من الحاجة إلى ورق لا يصنعونه في بلادهم .

وكان أبو جعفر يأمر كتابه بجمع الخط حتى لا يسرف كاتبه في القرطاس .
وأول من كتب في الطوامير الخليفة الوليد بن عبد الملك . وفي خاتمة القرن الأول كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل من عماله بعث إليه يطلب قراطيس « دقق القلم وأقلل كلامك تكثف بما عندك من القراطيس »

وكان ما يكتب في الدواوين يثبت في صحف ، فلما جاء خالد بن برمك وزير السفاح (١٣٢ - ١٣٦) أمر بإثباته في دفاتر .

لكن الكتابة كانت شغل مدرسة أبي حنيفة في عهد المنصور ، وقبل ختام ذلك العهد بسنين وعشرات السنين ، كانت المسائل تدون في الحلقة على ما أسلفنا منذ رأسمها ، وكان هو يدون لنفسه المسائل وهو تلميذ في حلقة حماد ، كما كان الأئمة والمجتهدون ينظرون في كتبه في حياته ، ولم يتأكد لنا التدوين الفقهي عند غيره من فقهاء الجمهور الإسلامي إلا بعد أن كان أبو حنيفة قد بلغ رسالته في الكوفة وفي مكة والمدينة وفي كل مكان ، وسجلها تلاميذه في كتبهم ، ثم تحرك دولا ب العلم

واستخدمت أداة التدوين ، فساعد التدوين على الوراقة ، وساعدت الوراقة على التدوين ، وأخذنا نسميهم أن العلماء (أصحاب الخبر) - وبدأ التاريخ بتسجيل فضل أبي حنيفة إذا صح ما قيل فربط اسمه بالقلم والدواة .

فمن أين هذه الكنية للنعمان بن ثابت « أبي حنيفة » ؟

المعول عليه أن التاريخ لا يعرف له من البنين إلا حماداً ، وإن التاريخ ليذكر نحو الثلاثين من العلماء كنوا بهذه الكنية بعده كالإتقاني ، والدينوري صاحب كتاب النبات ، والبخاري ، والفارسي الملقب (من فقهاء الشافعية) ، والمغربى (النعمان من فقهاء المالكية) ، ثم إن حنيفة إحدى القبائل التي عرض الرسول نفسه عليها ، فأبو حنيفة ليست من جراء أبوة لفتاة ، ولذلك قال البعض إن سبب هذه الكنية هو أن حنيفة مؤنث حنيف ، والحنيف هو المائل إلى الدين . قال تعالى « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً » وقال جل شأنه (فأقم وجهك للدين حنيفاً) ولذلك تسمى الشريعة بالحنيفية السمحة كما قال عليه الصلاة والسلام (بعثت بالحنيفية السمحة) ولكن المرء يتساءل لماذا لم تكن أبا حنيف بدلاً من أبي حنيفة ؟ وإذا أنث الحنيف في شأن من كنوا بكنيته تشبهاً به فلماذا أنثت كنيته هو ؟

ولهذا فننتقل إلى قول آخر قاله (الكافي) ، وأورده ابن حجر ، وردده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق . . .

وسواء أصح القول أم لم يصح فإنه يحمل بيننا وبين عقيدة ثبتت في التاريخ عن ارتباطه بالدواة أو ارتباط اسمه بها وارتباط مذهبه بالتدوين والتحرير .

وهذه هي اليد الكبرى لأبي حنيفة على الإسلام فإذا كان لأبي بكر وعمر الفضل في تدوين الكتاب العزيز ، أو كان لعمر بن عبد العزيز فضل التفكير في تدوين السنن دون أن يتم له ما أراد ، فإن لأبي حنيفة فضل تدوين الفقه الإسلامي ، وتدرسه باباً باباً ، وترتيب دراساته والأمر بتدوينها ساعة تدرسها ، فدونت في حياته وتضخمتم بعد وفاته ، خلفت البحوث الضافية التي شغلت بها المدرسة ثلاثين عاماً أو تزيد ، وولغاها الصاحبان وتلاميذها وخلفاؤهم ، ثم تسامها الشافعي وتلاميذه ،

ومالك وتلاميذه وابن حنبل وتلاميذه وغيرهم من المجتهدين والمقلدين ، فبنوا لنا ذلك الصرح الممر الذي يقف الرائي إزاءه مشدوها تروجه ضياعته قدر ما تبهره متانته .

ولئن كان قد دون تفسير بعض الآيات لابن عباس من قبل ، أو جمعت بعض السنن ، إن ذلك كان خاصاً بالتفسير والسنة وكان فيما يتعلق بالأحاديث شخصياً لا يقصد به نفع الجمهور كـ حنيفة ابن عمرو المسماة بالصداقة أو صحف الزهري .

ولئن قال بعض الفقهاء بأن تدوين السنن كان في سنة بضع وأربعين ومائة ، أو حدها البعض بسنة ثلاثة وأربعين ومائة ، إنها جميعاً تواريخ لا حقة لرياسة أبي حنيفة حلقة الكوفة ببضعة وعشرين عاماً .

ولقد يكون حقاً ما قيل من أن علي بن أبي طالب كان يجمع في قرابة سيفه بعض أحكام الفقه وأن بعض الشيعة دونت لهم كتب لكن التدوين والتأليف للجمهور الاسلامي على نطاق شامل ، لم يبدأ إلا على يد أبي حنيفة .

قيل إن مالكا جمع الموطأ في ذلك العصر . لكن الموطأ كان كتاب سنة قبل أن يكون كتاب فقه يحتوي عرضاً وشرحاً ، وفروضاً وحلولاً وأصولاً وتفاصيل وأسئلة وإجابات ، ثم إن مالكا لم يكن قد تخطى السابعة والعشرين عندما كان أبو حنيفة في رياسة الحلقة الكبرى بمسجد الكوفة بعد نحو عشرين عاماً من النجاة والهداية في حلقة حماد ، وبعد أن كان يكتب المسائل قبل وفاة أستاذه بعشر سنين وعرضها عليه إذ يقفل راجعاً من رحلته كما بينا حوالى سنة ١١٠ هـ ، وفي تلك الأيام لم يك مالكا قد سلخ من عمره إلا بضع عشر ربيعاً ، وكان أبو حنيفة في حلقة حماد تلازمه كنيته التي تحدثنا عنها .

قالوا إنه لما استقامت الأمور لأبي جعفر خرج حاجاً إلى مكة سنة ١٤٨ هـ فكان فيمن دخل عليه مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله إني رأيت أني أجاسك في هذا البيت فتكون من عمار بيت الله الحرام ، وأحمل الناس على علمك ، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدكم . لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق . فقال مالك « يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولاً تعدوا فيه طورهم . . . فإن رأى أمير المؤمنين إقرارهم على حالهم فليفعل . . . فأعفى . . . فأعفاه »

وذكروا أن مالكا حج في سنة لاحقة فقال له أبو جعفر : يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودون منه كتباً ... واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لتحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك . . . فقال مالك : أصدق الله الأمير : إن أهل العراق لا يرضون علمنا . ولا يرون في علمهم رأينا فقال أبو جعفر : يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف . . فتهجل بذلك وضعها فسيأتيك أبني المهدي العام القابل إن شاء الله إلى المدينة يسميها منك . . . وذكروا أن مالكا لما أخذ في تدوين كتبه قدم عليه المهدي فأثاه بكتب الموطأ فأمر المهدي بانتساخها وأمر له بأربعة آلاف دينار . . . ولا بد أنه بألف .

لم يكن مالك يحب الكتابة فقليل له : ماذا نصنع ؟ قال : يحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون إلى الكتابة !

وكان ابن حنبل مثله يكره أن يكتب كلامه . وهي ظاهرة تعرف أسبابها من جواب جابر ابن يزيد إذ قيل له إنهم يكتبون ما يسمعون منه منك فقال « إنا لله وإنا إليه راجعون . يكتبونه وأنا أرجع عنه غداً ! . . »

والذي روى عن أبي جعفر في تكليف مالك ، روى مثله عن الرشيد مع مالك ، وسواء أضح تكليف هذا له أو ذلك ، فانما كان بعد سنة ١٥٠ أو سنة ١٤٩ أو سنة ١٤٨ أي بعد أن استأثر ثرى الكوفة بعظام أبي حنيفة ، أو بعد أن كان قد أدى رسالته وأمر بالتدوين تلامذته على النحو الذي شرحنا .

إنما تنسب النهضة الرائعة في التدوين إلى أبي حنيفة وتلاميذه وتلاميذهم ، الذين أقبلوا على التدوين مدفوعين بغيرة الأمة المشغوفة بالتأليف والتصنيف ، بالاملاء أو بالكتابة ، في مجالس الافتاء أو في مقاعد الدرس ، حتى لتجد في خاتمة القرن الرابع أوفاتحة القرن الخامس مجلساً للطيب الصعلوكي يضع فيه الشيخ في وقت إملائه أكثر من خمسمائة محبرة . . .

لم يضع الصحابة والتابعون في عالم الشريعة أبواباً مبنية ولا كتباً مرتبة ، وإنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ويحملون قلوبهم صناديق علمهم ، وجاء أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشراً يخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، فدونه ورتبه مبتدئاً بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات

ثم بالمعاملات ثم ختم يكتب الموارديeth لأنها آخر أحوال الناس ، وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط .

رووا عن مالك أنه قال : وضع أبو حنيفة ستين ألف مسألة في الإسلام . وقيل ثلاثة وثلاثين ألفاً منها ثمانية وثلاثون ألف أصل في العبادات وخمسة وأربعون ألف أصل في المعاملات وقيل بل ... خمسمائة ألف . .

وروا أن مالكاً كتب إلى خالد بن مخلد القطراني يسأله أن يحمل كتب أبي حنيفة ففعل . وصنع ذلك الأوزاعي مع عبدالله بن المبارك بهدد كتب أبي حنيفة كما سئري بعد . وصنعه الشافعي عن طريق محمد بن الحسن .

وصنعه سفيان الثوري فرأى الرأي تيمت رأسه كتاباً استأذنه في قراءته فاذا هو كتاب أبي حنيفة في الرهن فسأله : أنتظر في كتبه ؟ قال . وددت أنها كلها مجتمعة عندي . صنع هؤلاء الأئمة ذلك وصنعه الفقهاء والمجتهدون والمقلدون والناس جميعاً .

الباب التاسع

امام أهل البيت

« علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه »

« أبو حمزة »

كان أبو حنيفة قياساً « يقيس المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد ويدور حول الاتباع » كقول .

أو كقول في وصيته لنوح بن مريم عندما ولي نوح القضاء بـ « إن أبواب القضاء لا يدر كها إلا العالم المحرير . . . فإذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة والاجماع فإن وجدت ذلك ظاهراً فاعمل به ، فإن لم تجده ظاهراً فرده إلى النظائر واستشهد عليه الأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

كان القياس هو النبع الذي سال منه فقه أبي حنيفة ، فبان هذا الشأو البعيد من التفصيل والشمول والانتشار . وأضحى في تناول الكافة حلول لكل ما يعرض لهم من شئون المعاش والعبادات . لم يكن من ذلك بد ، فالناس في بحر الحضارة الجديدة أحوج ما يكونون إلى معالم تميز حدوده وأدوات تسمح لراكبيه أن يسبحوا فيه ، ولا غنى في تلك القلة النادرة من الآيات أو الروايات ، لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، والذي له نهاية لا يضبط شيئاً بلا نهاية . فإما أن يترك الناس مع أهوائهم في المتهاتات ، وإما أن يقفوا تلقاء هاجمدين ، فلا يكون بد من التوقف المؤدى إلى تعطيل التكليف ، أو إلى مالا يطاق ، وإما أن يؤذن للناس بالاجتهاد ، لأن الوقائع لا تختص بزمان دون زمان .

وفي بلد متحفز كالعراق ، حيث توجهت قوى الاسلام لتنطق في مضمار الحضارة ، كانت تقع أمور ذات بال تدفع الفقيه إلى الابتكار ، فلا ممدى عن الاجتهاد بالنسبة للعالم والقاضى والكافة باستنباط القواعد العامة من الشريعة لتقاس عليها المسائل التي تحدث للناس . والقياس في كتاب الله كثير ، من ذلك قوله تعالى « ولو ردوه إلى الرسول وأولى الأمر منهم لعله يستنبطونه منهم » وأول أبواب الاستنباط وأهلاها هو القياس .

وفي السنة اجتهادات وقياسات كثيرة : قصد إلى الرسول رجل ينكر ولدآله رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام « هل لك إبل ؟ قال : نعم . قل : ما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيها من أوردق ؟ قال : نعم . قال : فمن أين ؟ قال الرجل : لعله نزع عرق قال : وهذا لعله نزع عرق . »

قال ذلك عليه الصلاة والسلام من أربعة عشر قرناً ويقول له العلم الآن .

واجتهد النبي اجتهدات صححها القرآن وفي بعض ذلك قوله سبحانه (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك) . ولما أذن للمناقطين في التخلف عن غزوة تبوك نزل قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

بل إن من اجتهداته عليه الصلاة والسلام ما صححه الصحابة أنفسهم كيوم نزوله في بدر دون الماء فقليل له بوحى أم برأى .

أما اجتهدات الصحابة ، فكانت كالأعلامات التي تشير إلى ما تحت الثرى من كنوز . أمر النبي صبحه يوم الأحزاب بأن يصلوا العصر في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم فصلاها في الطريق ، قائلين إن النبي أراد السرعة ، وأبى آخرون إلا أن يصلوها في بني قريظة فصلوا هنالك ليلاً ، - وهؤلاء هم سلف أهل الظاهر - الذين يتمسكون بظاهر النصوص أما الأولون فهم الآباء الفسكريون لأصحاب انقياس والاجتهاد .

ولما كان على بن أبي طالب باليمن اختصم إليه ثلاثة نفر في غلام وقعوا على أمه في طهر واحد فقال لاثنين منهم : طيباً بالولد لهذا . قالوا : لا . قال لاثنين فيهما الثالث : طيباً بالولد لهذا قالوا : لا . قال : أنتم شركاء متشاكسون ، إني مقرر بينكم . فقرع بينهم وجعل الولد للقارع وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية .

فبلغ ذلك الحكم النبي فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء على .

واجتهد صحابيان خرجا في سفر فحضرت الصلاة وأيس معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يمد الآخر فصوبهما النبي وقال للذي لم يمد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين .

ولما قتل خالد بن الوليد قوماً قالوا : صبياناً . قال النبي « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » ووداهم من مال المسلمين لآمن مال خالد وعذره لاجتهاده .

لكن الصحابة لم يكونوا كلهم عالياً ولا عمر وأمثالها فكانوا يتخرجون دون القياس أو

الاجتهاد ، وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجاً ... كان سعيد بن المسيب واسم الفتي حتى
ليسمى سعيد بن المسيب الجريء ، فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس
إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا .

ولقد أثر عن حذيفة أنه قال (إنما يفتي الناس أحد ثلاثة رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه
وأمر لا يجد بداً أو أحق متكلف » فقال ابن سيرين : فأنا لست أحد هذين فأرجو أن لا أكون
أحق متكلفاً .

حتى إذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشى أسمائها (القياس . أو الاستنتاج .
أو الاجتهاد . أو رأى) وقلبها في كفه كمصا موسى ، فجاءت بالأعاجيب .

ومضى الأئمة على غرارهم وجرى المجتهدون في غبارهم ، اللهم إلا أشياع داود الأصفهاني
(الظاهري) الذين يقولون بأن العمدة على ظاهر النص ، وإن في عمومات النصوص كفاية
للأئمة ، وقد درس مذهبهم .

وإذا بتلك الثروة الضخمة من التشريع الاسلامي تربو وتنمو حتى ترفع الفقه الاسلامي إلى
مستواه الرفيع العالي بين مستويات الشرائع المقارنة تطامح إليه في قمة الشوامخ . ذلك الفضل
من الله أنه أبا حنيفة . وهو الذي جعل الشافعي يهتف بذكره قائلاً (من أراد أن يعرف الفقه
فليزِم أبا حنيفة وأصحابه فان الناس كلهم عيال عليه في الفقه) .

وانتقلت هذه العصا السحرية إلى اللغة والنحو كما يذيع الخبير ، ويشيع النور ، وتنتقل الصحة .
- والصحة تمدى كما يمدى المرض - فاذا بالقياس في البصرة والكوفة يهب اللغة العربية طرازات
كأنها الاختراعات .. فلو كنت من أهل البوادي في ذلك الزمان ممن يقولون في اللغة على السماع
وحده كهؤلاء الذين كانوا يقولون في الفقه على النصوص وحدها ، ثم جئت إلى مصر أو إلى
الشام بله العراق - بعد أن أعمل علماء الكوفة والبصرة في اللغة آلة القياس - لظننت أن
العربية التي تسمها ليست هي العربية التي تعهدا .

كان أبو حنيفة منطقياً ، والمنطق جوهره القياس ، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته .
وإذا كانت الشريعة معقولة المعنى ، فلماذا لا يتعرف المجتهد باستقراء الأحكام الشرعية

وجوه المصاحفة في النصوص ليس يخرج منها القواعد العامة التي يقوم الشرع عليها، ويحقق ما لا نص فيه بما فيه نص لاتحاد عملة الحكم في الأمرين؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلا بد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها من دفع ضرر أو جلب نفع .

فالقياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجوداً وعدماً، كما أن المعقول دائر مع أخبارها وجوداً وعدماً، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل - وعلى ذلك ففي كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للإسلام سواء بنص أو باجتهاد حيث لا نص .

وإذن فليعمل المفكرون فكرهم في تعرف العلل وإضافة الأحكام إليها وضبط النتائج، وتفريع الفروع في فهم وإحاطة خالق الأحكام وابتكار الآراء، وفي ذلك تتفاوت الملكات، وتتميز الكفايات من الكفايات، تميز الزجاج من البللور وتميز البللور من الماس، ذلك يخترقه الشعاع بلا حائل وذلك يعكس الاضواء بعض الانعكاس، أما الماس فهو الماس، يعكس الشعاع ألف شعاع ويسكب فيها فيوضاً من النور والبهجة والائتلاق .

لقد طالما نزل أبو حنيفة إلى معارك المتكلمين في صدر شبابه بخلاف هذا النزال أثره في ملكة الجدل، وربط حاضره بماضيه في حياة عملية ذات ألوان وأحداث .

والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهى سواء في الفقة أو القضاء أو الدفاع لأنها جميعاً تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس .

لم يك أبو حنيفة إلا غلاماً طرى الالهاب عند ما صحب الشعبي في سفينة فسمع الشعبي يقول، (لا تذر في معصية ولا كفارة فيه) ، فاستوى الفتى الرشيق الفهم، مناظلاً راشق السهم، يقول، (بل فيه الكفارة لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الظهار الكفارة بعد أن جعله معصية فقال، (وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) وقد أوجب فيه الكفارة . . .) فلم يحرج زعيم المحدثين جواباً سوى أن قال: أقياس أنت؟

والظهار لغة هو أن يظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها: أنت على كظهر أمي، وشرعاً هو تشبيه المسلم زوجته أو جزءاً منها بحرم عليه، مؤبداً .

ولو امتد الأجل بالشهي أعواماً لجاؤه الأيام بالجواب .

ولنه لفي المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه في مسألة يديرونها بينهم إذ صاح من ناحية المسجد قتي أزله انطلق الشكس فقال : ما هذه المقاييسات ؟ دعوها فأول من قاس إبليس ، فلم يفضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسليب الحجة ، بل أقبل على القتي يكتبه بأى السكتاب ، فذلك أدنى الأيرتاب . قال : يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، إبليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » . وقال تبارك وتعالى « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » . وهذا القياس الذى نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأننا نرده إلى أصله أمر الله تعالى في كتابه ، أو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى قول الأئمة من أصحابه والتابعين ، فاتبعنا أيضاً في ردنا كتاب الله وسنة رسوله والابحاج ، فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى ، فإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردده فكيف يستويان ؟

أتت القتي هذه الحجج بفتة فبهتته ، وكأنما أحاطت به خطيئاته قرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول : غلطت يا أبا حنيفة وتبت نور الله قلبك كما نورت قلبي ...

كان من رأيه أن قراءة المصلين خلف الامام في الصلاة تكفى عنها قراءة الامام ، فقصد إليه رهط من أهل المدينة يحاجونه ، قال لا يمكننى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم ، فاختاروا لجماله أعلمهم ، قال : وهل إذا ناظرته أكون قد ناظرتكم ؟ قالوا : بلى ، قال ان ناظرته لزمتمكم الحجة لأنكم اخترتموه فجاءتم كلامه كلامكم . وهكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا فأقروا بالالزام .

كان يبحث عن علل النصوص فيجربى الحكم الشرعى على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ ، فاذا سمع حديث النبي عن الزكاة أن فى كل أربعين شاة شاة - رأى أن مراد الحديث أن يتصدق صاحب الأربعين بشاة من الأربعين أو بما يعادل ثمن شاة . وإذا طبق حديث صدقة الفطر صاع من تمر أو شعير . قال إنما يراد به أن يتصدق المرء بصاع أو ثمن صاع أو بدقيق الصاع .

وإذا فسر رواية أبي هريرة لحديث الرسول عن رد الشاة المصرّاة بعد اختلاطها ورد صاع من تمر (وهي الشاة التي تربط ضرعها قبل البيع حتى يظن المشتري بها غزارة اللبن) فالمقصود عنده هو الصاع أو ثمن الصاع .

ذلك بأن أبا حنيفة يرى أن ضمان التلف في الشريعة هو أن يرد المثل إن كان التالف من ذوات الأمثال أو القيمة إن كان من ذوات القيمة .

أما المدرسة الأخرى فتري أنه لا يجزئ عن شيء من ذلك ثمنه أو مثله .

قالوا إنه يترك النصوص والأحاديث لأقيسته ١ والحق غير ذلك فأبو حنيفة هو القائل : ... وكل شيء تكلم به عليه السلام فعلى الرأس والعين قد آمننا به وشهدنا بأنه كذلك ، وشهد بأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بشيء يخالف أمر الله ، ولم يقتل غير ما قتله الله تعالى وما كان من المتكافئين . قال تعالى « من بطع الرسول فقد أطياع الله .. » وإن كتب أبي حنيفة للملأى بترك القياس الحديث .

قال زفر : لا تلتفتوا إلى كلام المخالفين فإن أبا حنيفة وأصحابنا لم يقولوا في مسألة إلا من الكتاب والسنة والآقاويل الصحيحة ، ثم قاسوا بعد علمها .

والشافعي نفسه يقول « أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعيها لتول أحد وما يخال من مخالفتهم للسنة فعذرهم أنه لم يصلهم الحديث أو وصلهم ولم يثقوا به ... »

إنما كان الأمر عند أبي حنيفة وصحبه أمر ثبوت السنة أو عدم ثبوت . قال ابن خلدون (وأعلم أيضاً أن المجتهدين من الأئمة تفاوتوا في الاكثار من هذه الصنعة .. وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، فلهذا قلت روايته ولا سبيل إلى هذا المتقدم في كبار الأئمة ... وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها ...) .

وقديماً قدم على بن أبي طالب القياس على خبر الواحد .

قال أبو يوسف : (ماخلفت أبا حنيفة في شيء فتدبرته إلا رأيت مذهبه الذي ذهب إليه أنجي في الآخرة وكننت رباً ملت إلى الحديث . وكان هو أبصر بالحديث مني ...)
وفي سبيل الاستيثاق من الروايات اعترت مدرسة الكوفة وأستاذها بسلسلة الكوفة ورواتها .
اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي بدار الحنّاطين بمكة ، فسأله الأوزاعي عن سبب عدم رفع أيديهم عند الركوع في الصلاة وعند الرفع منه ، فأجابه : لأنه لم يصح عن النبي شيء فيه .
قال الأوزاعي : كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع . قال أبو حنيفة حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود إلى شيء من ذلك .

قال الأوزاعي : أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن إبراهيم فأجاب أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهري .
وكان إبراهيم أفقه من سالم .

وإن كان لابن عمر صحبة أوله فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله أما عن سلسلة الأوزاعي : فالزهري هو ابن شهاب وأما سالم فهو ابن عبد الله بن عمر وأبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب - وكان عبد الله كثير الاتباع للأنصار ينزل منازل الرسول حيث كان يصلي ، ويتعهد الشجرة التي جلس تحتها الرسول حتى لا تبس ، لكنه كما قال عنه الشعبي وهو أحد خصوم الرأي : كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه .

أما سلسلة أبي حنيفة فهي سلسلة الكوفة : حماد هو أستاذ حماد ، وإبراهيم هو إبراهيم النخعي ، وعلقمة هو علقمة النخعي الذي قال عنه ابن مسعود إنه مقرأ شديداً أو علمه إلا قرأه علقمة أو علمه ، والأسود هو الأسود بن يزيد بن أخي علقمة وتلميذ حماد وابن مسعود ، وأما عبد الله فهو عبد الله ابن مسعود العظيم .

ولقد كان الأوزاعي يجادل في أبي حنيفة قبل أن يجادله أبو حنيفة .

قال عبد الله بن المبارك : « قدمت الشام على الأوزاعي فرأيت به بيروت فقال لي : يا خراساني

من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فأقبات على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فحُتَّ يوم الثالثة وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم والكتاب في يدي فقال : أى شئ هذا الكتاب ؟ فناولته فنظر في مسألة منها ... فما زال قائماً بعد ما أذن حتى قرأ قدراً من الكتاب ثم وضع الكتاب في كفه ثم قام ، وصلى ثم أخرج الكتاب ، حتى أتى عليها ثم قال لى يا خراسانى من النعمان بن ثابت هذا ؟ قالت : شيخ لقيته بالعراق . فقال : هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثِر منه قلت : هذا أبو حنيفة الذى نهيت عنه . . . »

فلما اجتمعوا بمكة جاراها في تلك المسائل فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك ولما افترقا قال الأوزاعى لابن المبارك « غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت فى غلط ظاهر . الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغنى عنه . »

وكما كشف الأمور للامام « الأوزاعى » كان يكشفها للامام « الثورى » ، جاءه رجل يقيمه لهم ويقعده قال : حلفت بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل أن تكلمنى قالت : والعناق لازم لأكلمك قبل أن تكلمنى فكيف أصنع . ؟ قال اذهب فكلمها ولا حث عليكما ، فذهب الرجل إلى « سفيان الثورى » فهرول سفيان إلى أبي حنيفة يقول « أتبيح الفروج » قال أبو حنيفة « هو كذا : إنها لما قالت له وعلى العناق الخ .. شافته بالكلام فأنحلت يمينه فاذا كلفها لم يقع الطلاق . »

قال الثورى : إنك لتكشف ما كننا عنه غافلين .
حقاً : كم كان صحيحاً قول الشافعى : قول أبي حنيفة أعظم من أن يدفع بالهوينا . وقول عبد الله ابن المبارك : رأيت الأكابر فى مجلس أبي حنيفة صغاراً وما رأيت أحداً حاور أباحنيفة إلا رحمته بل قوله : هاتوا لى مثله وإلا فدعونا ولا تعذبونا .

* * *

ويتصل بمذهب أبي حنيفة فى القياس مذهبه فى الاستحسان وهو الأخذ بمصلحة جزئية فى

مقابل دليل كلّي يلجأ إليه إذا كانت نتائج القياس لا تستساغ . بأن كان طرد القياس يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه فيعدل عنه بعض المواضع ويقتي المجتهد بما يحسن وقعه في النفس في تلك الحالة بذاتها ، فيفرد للوصف الذي تحسن به نفسه حكما غير ما ينتجه القياس .

قال عليه الصلاة والسلام : (استفت قلبك وإن أفثاك المفتون ...)

ولقد نعموا على أبي حنيفة تركه القياس إلى الاستحسان ، قولا بأنه خروج منه عن قاعدته الكبرى وهي القياس ، لكن الذين آخذوه على الاستحسان ظالما كافوا يستحسنون .

بل كيف يقف المجتهدون دون الفتوى إذا ساء القياس بأن قبحت النتيجة . روى عن مالك أنه قال (تسمة أعشار العلم الاستحسان)

إن القياس أداة تحركها عين باصرة ويدكها إحساس . والمفكر الذي كانه أبو حنيفة ليس هو الذي تستعبده أدواته . ومن يصنع شيئا لا يسجد له ، والرجل الذي يطعمه الحسن في ذاته ، وفي كل أسباب حياته ، لم يكن ليتجنبه في متولاه .

قال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينصفون منه ويعارضونه حتى إذا قال استحسن لم يالحقه واحد منهم لكثرة ما يورد في الاستحسان فيدعونه جميعا ويسلمون له . وقال ابن شبرمة : إن كان يجوز لأحد أن يتكلم في دين الله برأيه فأبو حنيفة إذا قال استحسننت .

حضر مع العلماء ولية رجل زوج ابنته من أخوين فخرج الولي وهو يقول أصبنا مصيبة عظيمة ، غاطنا فزفت إلى كل واحد غير امرأته . وأصابها . قال سفيان لا بأس بذلك كما حكم به على كرم الله وجهه . . . فقال أرى أن على كل المهر بما أصاب من المرأة وترجع كل إلى زوجها فاستحسن الناس منه ذلك وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر : قل فيها . قال سفيان وما عسى أن يقول فيها خلاف هذا . . . قال أبو حنيفة على بالعلامين ، فأحضرا ، فقال لكل واحد منهما أتحب أن تسكون عندك التي زفت إليك ؟ قال نعم ، قال فما اسم امرأتك التي عند أخيك ؟ قال هي فلانة ، قال قل هي طالق مني . ثم زوج كلا المرأة التي مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فمحب الناس من فتياه بذلك حتى قام مسعر فقبله وقال : تلومونني على حبه . . . وسفيان

ساكت لا يقول شيئاً .

وكلا الحكمين حق فحكم على حكم الوطأ بشبهة وهو يجب فيه المهر ولا يرفع النكاح ...
وحكم أبي حنيفة حكم يدرأ ما يترتب من القسوة به إذ أفضت كل امرأة إلى رجل بما أفضت
من محاسنها مما تعلق به الأنفس . ولو صارت تحت غيره . فكان حكم أبي حنيفة إلهاماً موقفاً ، لأن
له صاحب عدة الوطء بشبهة أن يعتد بالموطوء فيها ، وفي ذلك من المصلحة ما أسكت سفيان وجعل
مسماً يقبله . * * *

قال أبو حنيفة يوماً لتلميذه داود الطائي عن العلم : أما الآلة فقد أحكمناها قال داود : وهل
بقي شيء ؟ قال الامام : العمل .

فلننقل عنه هذا التصوير للعلم إلى الآلة التي صيرت علمه مذهباً في العالمين وهي أداة الاجتهاد
أو أداة القياس .

وضع أبو حنيفة يده على تينك الآتين فاختاطا في يده وصارتا كالوليد العظيم للقوى ، وجرى
اسمهما في التاريخ على أنهما « الرأي » أو كما قال الشافعي أصبحا اسمين لمعنى واحد ، ذلك بأن
الاجتهاد لا يكون إلا بدلائل والدلائل هي القياس ، وإذا بهذه الحركة الفكرية الكبيرة تدب
في كل الآلات والمحركات ، وإذا بحقائق الفقه تصحى كعامل الانتاج الكبير حتى تكاد الأذان
تسمع وقع المسجلات ودق الآلات وجلبة العمال خلال هذه القرون الاثني عشر ، وإذا بهذا الروح
الخالق يهب الحياة للانتاج الهائل الذي خلفه لنا القرنان الثاني والثالث وما زال يهب الفقه حياته
كلها إلى الآن .

حقاً إن هاتين الآتين لم تكونا من مخترعاته لأن النبي والصحابة قد اجتهدوا وقاسوا لكن
الرسول إذ يشرع هو صاحب الشريعة واجتهادات ابن الخطاب عمر بن الخطاب ليس يقدر عليها سوى
الفاروق ، كذلك كانت اجتهادات أبي بكر وعلي . وما عداه من اجتهادات الصحابة والخلفاء لم تك
إلا ومضات خاطفة لمعت في المناسبات ، أما الفتى الخراز كما يسميه بن أبي ليلى فلم يكن أميراً
للمؤمنين ولا والياً ولا قاضياً ، لسكنه جمل هذه الومضات العابرة شمساً تمر لا تكون كلها بالنور
واتخذ منها تمثالاً شاخحاً يربط كل مافي الوجود إلى قاعدته بخيوط من الشعاع الذهبي المسمى

الفكر ، فيتحكم فيما حدث وفيما سيحدث وفيما قد لا يحدث من الأمور .
وأية جسارة كانت هذه الجسارة !

لقد كان أبو بكر يقول (أى أرض تقانى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن مالا أعلم)
وهو مقال ينم عن خطورة التعرض لتطبيق أحكام الكتاب وتفسير آياته .
سئل أبى بن كعب وهو من فقهاء الصحابة المتقدمين عن شىء فقال : أ كان هذا ؟ قال
السائل : لا . قال : فأجئنا حتى يكون فإذا كان اجتهدنا لك رأيا .

وروى عن زميله زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فإن قيل له وقعت أفنى
فيها . وإن قيل له لم تقع قال دعها حتى تكون .
وكان عبد الله بن عمر لا يكثر من الفتوى تورعا منه رغم أنه تصدى لافتاء الناس ستين عاما
وأن أهل الشام مالوا إلى توليته الخلافة فزهد فيها .

كان التابعون يرفضون الجواب عما لم يقع كأن فى الافتراض نجامة أو رجما بالغيب أو تحديا
للمستقبل ، مخافة أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا دون إلمام تام بالظروف .
سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال : لم أسمع فى هذا شيئا . قال السائل : فأخبرنى
أصلحك الله برأيك . قال : لا . ثم أعاد عليه فقال : أرضى برأيك فقال سالم : إني لعلى إن أخبرتك
برأى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره فلا أجذك .

قال ابن سيرين أول من قاس إبليس ، وما عبدوا الشمس والقمر إلا باللقايس . وروى
الليث بن سعد أنه جاء ابن شهاب الزهري بشىء من رأى فتبص وجهه كالسكره ثم جاءه
بأحاديث من السنن قهله وجهه وقال : إذا جئتنى فأتنى بهذا .

وكان الشهي يقول : (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح والرأى) .
ويقول : احفظ عني ثلاثا لها بيان إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك
أرأيت (أى لا تفترض) فإن الله تعالى قال فى كتابه (أرأيت من اتخذ إلهه هواه . . .) وإذا
سئلت عن مسألة فلا تقس شيئا بشىء فربما حرمت حلالا أو حلت حراما ، وإذا سئلت عما لا تعلم
فقل لا أعلم وأنا شريكك .

كان ذلك قبل أن يظهر علم أبي حنيفة ، وكان الأمر كذلك من بعد ظهوره ، روى أسد ابن الفرات بعد إذ قدم إلى المدينة على مالك (وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلون أسأله فإذا أجاب يقولون قل له : فإن كان كذا ، ففذاق على يوماً فقال لى : هذه سليسلة بنت سليسلة ، إن أردت هذا فعليك بالهراق ١)

وفى كلمة مختصرة كان أهل الأثر لا يأخذون بالرأى إلا اضطراراً مكرهين عليه إكراهاً ، ولا يستخرجون أحكاماً لمسائل لم تقع بل لا يفتنون إلا فيما يقع .

لكن أبا حنيفة إذ يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع ، لا يفرق مما قدمت يدها . بل يفرضها على الفقهاء فرضاً ، ويهيب بالكافة أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها ، ثم يقف إلى جانبها جباراً يملأ العين والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين ، عقوداً ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى للهجرة . معلماً للملا أنهما أداته التى يخلق بهاملاً يعلمون ، وأن العقل والنقل ، أو الفكر والنص ، هما الأساس الذى تبنى عليه أصول الفقه الإسلامى وفروعه ، حتى إذا سجلوا عليه وزر هذه الأداة باهى بما سجلوا عليه وكافح فى سبيله .

ذلك الرجل إذا لم يك مخترع هذه الأداة فإنه كاشفها الذى جمع القطر فصيره من فيض عقله بحاراً ، والكشوف العلمية لم تخترع المكتشفات اختراعاً ، وإنما بصرت بها بين المجاهيل . والرسالات الفكرية كالكشف تهمى إلى الحق الكائن بعد أن يسبقها التمدد والارتداد .

لم تكن الكهرباء ابتداءً ، ولا الراديو ، ولا البسترة (التعقيم على طريقة باستور) ولا أمثالها وإنما هى كشف هبت إليها الصدفة حيناً والكدر والضنى أحياناً ... وكذلك كان كشف المولد الذى قدمته مدرسة الكوفة إلى العالم الفقهى ، أثر الجهد ناصب دام أربعين عاماً فى عهد أبى حنيفة ، بعد أن ظل قرناً كاملاً من الزمان جنيئاً يخطرب فى بطون التاريخ الإسلامى حتى قدمته يد أبى حنيفة إلى الوجود .

تر ماذا كان مصير الشريعة الإسلامية إذا هى وقفت فى حدر ظاهراً النصوص أو اكتفت

بمدلولاتها المباشرة ، سواء في المائتي آية أو العدد القليل المسلم به من الأحاديث أو غير المسلم به منها ، أو بذلك الاجتهاد الفردي أو التماس المرضى ا ترى ماذا كان مصير هذه الحضارة الاسلامية إذا لم تستند إلى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة التي يهدف إلى نشرها هذا الدين ؟ ماذا كانت صانعة هذه الآلاف من الملايين وهذه الهزات الفكرية وهذه الحياة الدائمة المتجددة ، وهذا العالم المتباين المتغير ، وهذه القرون التي يحمل كل منها طوابعه ، وهذه البقاع والأجناس والحضارات من أسيوية إلى أندلسية ومغربية وهندية وصينية وأوربية ومصرية وغيرها ! ومن حضارة القرون الأولى إلى حضارة القرون الوسطى إلى حضارة الآلات إنما يرجع الفضل في سداد الشريعة الاسلامية لمطالب الحضارة الاسلامية إلى هذا المولد الدائم التوليد مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة يتضاعف نباتها دواليك حتى يكسف القمران ، أو كالتواليات الهندسية التي تجعل العدد البسيط (١٠ مثلاً) مائة مليوناً في ثلاث عمليات فحسب ، أو كالجواهر الأصلية التي تخرج منها كل المركبات وتستجيب لجميع الحاجات لكأنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول : (من يطلب الفقه ولا ينفقه مثل الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدرى لأي داء هي حتى يجيء الطبيب . كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه) والذي يقوله عن طالب الحديث هو القول الصحيح فيمن لا يتصرفون في النصوص ، فأولاء يلتزمون النصوص كأثك يختزنون الدواء ، لا ينفعون به ولا ينتفعون . عجوزوا عن أن يجعلوا من العقارات الناجمة ، مركبات نافعة ، تتلاءم في كمياتها وعناصرها مع أشخاص المرضى وأصناف الداء ، أما الطبيب الحق فيأخذ من كل عقار ما يشفي الداء كما يشاء ، خالهاً أو ممزوجاً أو متفاعلاً .

بهذا المولد الدائم ، وبالفكر النافذ ، لم يتردد أبو حنيفة عن أن يقول « أرى » و « رأيت » ويحكم على المستقبل ويرفع سماء الفقه على عمد الحرية . فلم يبق في الأمة مشاكل بلا حلول ، ولم يعد الفقه الاسلامي محجوراً عليه أن يملأ كل فراغ في مستقبل الزمان ، لأن العلماء كما قال أبو حنيفة (يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله ليعرفوا طريق الدخول فيه والخروج منه) .

فيا للفكاهة التي زعموا عن الشافعي تعريضا بكتب أبي حنيفة وتلاميذه عندما سبق الشافعي ليحياكم في بلاط الرشيد حيث قال : (. . . قدمنا على هرون . . . ومعي خمسون دينارا . . .)
ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقعة فأنفقت الخمسين دينارا على كتبهم ، فوجدت مثاهم ومثل كتبهم
مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ وكان يحمل الدهن في زق له ، فكان إذا قيل له : عندك
فرشنان ! قال . نعم فان قيل له : عندك زئبق ! قال : نعم ، فان قيل له : عندك خيزي ! قال : نعم ،
فاذا قيل له أرني ؟ وللق زءوس كثيرة ، فيخرج له من تلك الرءوس ! وإنما هي دهن واحد !
كذلك وجدت كتاب أبي حنيفة إنما يقولون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإنما هم
مخالفون له . . .)

بلى هو دهن واحد حقاً كما نسبوا القول إلى قتي قریش العظيم ، لكنه أصول الشرع الاسلامي
وقواعد الفكر السليم ، وهو دهن يخرج الزئبق والخيزي والفرشنان ، ويخرج من كل الأكل ومن كل
الالوان ، كما أخرج هو منه كل شيء بعد قليل من الزمن ، وإذا كان كتاب أبي حنيفة قد
خالفوا الشافعي في فهم الكتاب والسنة فهو خلاف المجتهدين المتأيين أجمعين .

سمع ابن سريج رجلا يتكلم عن أبي حنيفة فقال : يا هذا . . . فان ثلاثة أرباع العلم مساهة له
بالاجماع والرابع الرابع لا يساهه لهم ، قال : وكيف ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب وهو أول من
وضع الاسئلة ، فهذا نصف العلم ثم أجاب عنها ، فقال بهض أصاب وقال بهض أخطأ ، فاذا جعلنا
صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقي ، والرابع الرابع ينارعههم فيه ولا يساهه لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (حسن السؤال نصف العلم) وعلى هذا الحديث فرع
الملك عيسى الأيوبي فقال مقالة ابن سريج .

وفي الحق إن الاسئلة نصف العلم لأنها الاستعراض النظري للمشاكل التي تحتاج إلى حلول ،
ولقد طالما عرف عن بعض الفقهاء قوة الحكم وضعف الاستعراض وهو ما يسمى بضعف
السؤال وقوة الجواب ، كما عرف عن البعض قوة السؤال وضعف الجواب ومن أجل هذا كانت
للأسئلة رجال وللأجوبة رجال .

قيل عن الحسن بن زياد إنه أحسن الناس سؤالا ولم يكن جوابه على قدر سؤاله .

أما أبو يوسف فقد قيل عنه إنه أحسن الناس سؤالاً وجواباً. ولما مدح الشافعي محمد بن الحسن أثني عليه « لبيانه وثبته في السؤال والجواب والاستماع » أما محمد فقال عن الشافعي (إن كان أحد يخالفنا وثبت له فالشافعي رضى الله عنه) قيل: ولم؟ قل « لأنني - وثبته في السؤال والاستماع ».

والكل من الضعف في السؤال أو في الجواب أسباب لسنا بسبيل شرحها، فبحسبنا التنبيه إلى أن هذه المدرسة أول من استعرض مسائل الفقه استعراضها الشامل وأجاب على فروضها الاجابات الإضافية، فكان لها فيما أصابت فضل السؤال وفضل الجواب وفيما أخطأت فضل السؤال وفضل الاجتهاد. وكان لها فوق هذه الأفضال جميعاً فضل السبق في التدوين والترتيب والتبويب.

أنجب الفقه الاسلامي هذا الانجاب وتبارت في مضماره الأجيال اللاحقة مدفوعة بما يشبه الحى نحو قرنين من الزمان، وقف بعدها التيار إذ أوفى على التمام، حتى إذ مات الطبري سنة ٣١٠ هـ ذهب بهوته آخر الأولين، وأصبح الناس من بعد وقد تهيات أسماعهم لاستقبال ذلك الصوت الأجلش البغيض: أن قد أقفل باب الاجتهاد وانفتح باب التقليد، وسرت عدوا كالولاء يتخطى القرون والقارات، وانطبع العلم بطابع الجود، ومُسخت روعة وأصبحت قضاياه كالألغاز.

* * *

ستذكر الانسانية هذه اليد لأبي حنيفة عليها وعلى الاسلام فتسلكه في سلك المناضلين المتلائين في ظلمات الاضطهاد، كلما صب فوق رؤوسهم من عذاب الجحيم برزت كالعسجد الحر مزاياهم. وتميزوا من الناس كما يتميز الماس من الفحم - وهما من أصل واحد - لأن الماس يتحمل الضغط العالي ولا يفنيه الحريق وكما صبت عليه النار ردها أنواراً، أما الفحم فهو الفحم، ظلمات بعضها فوق بعض، لا يصبر على الضغط وصلاحيته الأولى للوقود.

سيدكر المؤرخون ذلك الاضطهاد على أنه مجد الامام الأعظم، فلو لم يُنْقِضْ إليه الحق رؤوسهم لدلوا على أنه لا وزن له ولا لعمله، فبقدر ما يوزن للرجل في ميزان الرجال يوزن له من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع ولا عجب إذا كان الرجل صاحب الرأي هو الرجل صاحب الخصوم. والعمرات الهائلة التي خلد بها مجد الاسلام لم تمنع أن يكون للفاروق خصماء رأوا في وجهاته

التشريعية واجتهاداته بعداً عما ذهبوا إليه من التمسك بظاهر الكتاب والسنة ، وهو هو عمر
الذى كان في يده من كنوز الامبراطورية الاسلامية ما إن مفتاحه لتنوء بالعصبة أولى القوة
ولكنه لم يك يملك إلا قيصه ودموعه وتقاوه . . .

وقف عليه إعرابي فقال : يا عمر الخير جزيت الجنة ، اكس بنائي وأهمهه .

قال عمر : فان لم أفعل ماذا يكون ؟

قال الاعرابي : والله عنهن لتسألنه ، إما إلى نار وإما إلى جنة .

فبكى حتى أخضبت لحيته ، وقال لغلामه يا غلام أعطه قيصى هذا لذلك اليوم « يوم السؤال

والحساب » لا لشعره .

ثم قال : والله ما أملك غيره .

ولم تمنع عن عمر المطاعن شهادة الرسول له أنه لم ير عبقرياً يفري فريه ، أى يصنع صنيعه ،
وأن (عمر مهي . والحق مع عمر حيثما كان) و (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) .

ولم يك أبو حنيفة عاطلاً من الفضل العمرى وأشباهه بل هو كان قطب الزمان ، زهادة
وعبادة ، وقوة إيمان وسداد رأى ، وزعامة فكر ، وهى جميعاً أسباب خصومه لأنها أسباب كرامة
وسينسى الناس ماسال فى هذه الحرب من جراحات اللسان والقلم . فأبو حنيفة الامام الأعظم
لأهل السنة فى علوم القرآن والحديث والتفسير لا يعرف اللغة العربية . . . فلا يجبر المجرور ،
وإن كانت تجرة حروف الجر الغلاظ . . .

قال الليث بن سعد : « بلغنى أن أبا حنيفة يريد الحج فخرجت إليه قاصداً فلقيته بمكة فسألته
عن مسائل كثيرة فى أبواب متفرقة وسألته عن مسائل الجنايات وعن قتل الخطأ وشبه العمد فقال
لى فى بعض ما أجابنى ، (وإن ضربه بأبوقبيس) - جبل أبى قبيس - وفى رواية أخرى بأبوقبيس ،
فقتضينا المناسك ورجعنا ، ثم بلغنى بعد ذلك أنه يريد الحج فخرجت إليه قاصداً فأردت أن آخذ
عليه حرقاً واحداً ما قدرت عليه ، فما أدرى أنذرت منه تلك الكلمة أو تسكلم بحجة . »

فيا لأدب الليث وبالخاصة الخصوم ! إنها لم تنذر من أبى حنيفة وإنما تسكلم بحجة . فتد يكون
تسكلم عن أبى قبيس باعتباره عالماً بالعلم لا بغير . وإبدال الواو فى « أبوقبيس » ياء عند الجر أو ألفاً عند

النصب واجب يعرفه الأحداث فلا يجادل فيه إمام الأمة الأعظم ، المفسر الكتاب ، المتكلم الأستاذ ، الفقيه .

تلك واحدة في اللغة ، وهذه أمثالها في العقيدة .

فأبو حنيفة مرجىء إذ يقول إن العمل ليس ركناً للإيمان .

وأبو حنيفة زنديق ، تاب ، ثم فسق عن أمر ربه فترندق مرة أخرى ، ثم تاب . وإياه كافر تاب

من الكفر مرات ١

بل هذا رجل يقول : أراه كان يهودياً ١

وهؤلاء آخرون يقولون : كان جهمياً ١

فلندع قولهم إنه كان زنديقاً أو كافراً أو يهودياً .

أما أنه كان من أشيع جهم بن صفوان الذي كان يقول إن الإنسان . مسير لاخير وينفى

صفات الذات الالهية . ولا يشترط للإيمان النطق به ، فحسبه تكذيباً أن جهماً قصد إليه يجادله فجها

بقوله (الكلام ملك عار والخوض فيما أنت فيه زار .) ثم طفق يقرع حججه واحدة إثر واحدة

حتى فصل عنه جهم وهو يقول « لقد أوقعت في الخلد شيئاً فسأرجع إليك »

وكيف يكون جهمياً من كان مذهبه أن الصلاة خلف الجهمي لا تجوز .

أما أن أبا حنيفة مرجىء ، فلعلها من تهم الخوارج أو المعتزلة الذين لا يقولون بالارجاء ،

فليس ثمة ريب في أن عامة المسلمين مرجئون على المعنى الذي شرحناه من قبل لا يكفرون وتركب

المعصية كالخوارج ولا يجعلونه في منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة ، وإنما يرجون له التوبة والمغفرة

ويتركون حسابه إلى الله .

قال عمر بن حماد بن أبي حنيفة « أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت لعل الحساد

ذكروا جدي عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا

فعظي . إن الامام كان لا يخرج أحداً من الايمان بذنب قال أصاب . قلت : وكان لا يكفر قاتل

النفس . قال أصاب فمن قال غير هذا فقد كذب وأخطأ . قال بلغني أنه كان يقول إيماني كإيمان

جبريل . قالت بلغك الباطل كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله

عليه وسلم كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان . فلا إيمان إلا بإيمان واحد لا إيمانان أو ثلاثة ، ولا إيمان هذا وإقراره غير إيمان ذو إقرار ذا . فبسم كل راضى به ولم يقل شيئاً قلت وكان ينكر الشك في الإيمان . قال : وما الشك فيه ؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إننا مؤمنون حتى يستثنوا أو يقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم لا فأنا نكر وقال من يقول هذا . «
ذلك قول مالك في قول أبي حنيفة .

والناس يرون أبا حنيفة بأعينهم رجالاً هو المثل العالى همه في الدين ، يحيا حياة طويلة ليست في عداد الزمان ، إلا سجدة مخصصة لله ، ولا يبقى من ماله الضخم إلا النفقة ، ويسمعونه بآذانهم في المسجد ، وفي كل مكان ، يجاهد بقلبه ولسانه وبيده حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وهم يقرءون ويستمعون إلى كتبه « العالم والمتعلم » و « الفقه الأكبر » و كتابه في الأرجاء إلى عالم البصرة عثمان البتي وإلى القواعد الواردة في الوصية المعزوة إليه وفيها جميعاً الحجج الباهرة على أهل الالحاد والبدع . وهم يعرفون إخفاؤه لأهل الاتحاد ويتناقلون تشبيهه للعالم بالسفينة ، ونخالته بالسفان حيث يسائل المشككين . (. . . ما تقولون في رجل يقول لكم إن سفينة مشحونة بالاحمال ، مملوءة بالأمعة والأثقال قد احتوتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها . هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا . لا ، قال : فإنا سبحانه الله إذا لم يجوز في العقل وجود سفينة تجرى مستوية من غير متعهد ولا مجرٍ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها . . .)

فلم يبق إلا التهمة التقليدية التي وجهت من قبل إلى السيد المسيح وهي أن أبا حنيفة يحرض على عدم التعاون مع السلطان ، لكن السلطان ليس أذنأ لهم ، فلا يلف لفهم ، ولا تقع الواقعة ، فلم يعد في جمعة السهام إلا أخيبها : سهام القذف والكلم القوارص .

فأبو حنيفة من أبناء السبايا . . . ومن الدجاجلة . . . بل إنه ليروى عن شريك أنه قال :
(لأن يكون في حى من الأحياء خمار خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبي حنيفة) وإنه لم يولد في الاسلام من هو أشأم منه على الاسلام . . . وهو كان جرّاباً يراه الرجل مقبلاً نحوه في المسجد فيقوم قائلاً لأصحابه ، قوموا لا يعرنا بجريه . . . فيقومون . . . بل هو لا يثق بنفسه فيحضر

تلميذه أبا يوسف على الشك في مقولاته بقوله: لا تردني فاني والله لا أدري أخطيء أنا أم مصيب !
ثم إنه أجراً الرجال على الرجال . قالوا . . . إن رجلاً جاءه من خراسان يقول : عندي مائة ألف
مسألة أريد أن أسألك عنها قال أبو حنيفة : هايتها . ونساءلوا فيما بينهم أسمعم أجراً من هذا !
والجواب أن الجريء على الحق ليس بهذا المحيب وإنما ذلك السائل ! الوافد من خراسان
لا يعرف عند إلا إنه إمعة من الامعات ، ومع ذلك يزعم أنه يعي مائة الف مسألة ! فن أين له المائة
ألف ؟ ومن أين له دقل يحفظها أو لسان يسطها ! ولماذا لم يجيء ذلك اللوذعي بمسألة أو بضع
مسائل من المائة ألف ليرى الناس من آيات إعجازه الكبرى ؟ .

لقد كان جواب أبي حنيفة له جواب أستاذ عذب الروح يسمو على الأغلوطات .
ومن قبل أبي حنيفة كان ابن سيرين إذا سئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل أمسكها حتى
نسأل عنها أخاك إبليس !

والأغلوطات - كما فسر الأوزاعي نهى النبي عن الأغلوطات - هي صعبات المسائل .
سأل عمر بن قيس مالك بن أنس عن محرم نزع زبي ثياب فلم يرد عليه شيئاً .
أما أبو حنيفة فلم يسف المسائل بالكلام كابن سيرين ولا بالامتناع عن الكلام كابن أنس
لكنه أطاش حلم السائل بأن جعل نفسه رذن أمره فدفع الرجل نفسه وأخرأه الله .
وأما عن الرد على مائة ألف من المسائل فان قواشد أبي حنيفة وفروعها تحوى أكثر من
ذلك وأمثاله لمن يشاء . . .

يا لله أصحح أنه لم يولد في الاسلام من هو أشأم من أبي حنيفة على الاسلام ! أصحح أن وجود
أبي يوسف أو محمد أو داود الطائى أو زفر وأمثالهم في حى من الأحياء شر عليه من وجود خمار
يلبيح فيه بنت الحان !

أم أنه كما يقول الرسول عليه السلام « ويل لعالم أُمي من جاهله » ؟
أم أنه المجد وارتفاع المقام بعينه محمد بن الحسن إذ يسمع قدح الخصوصم في أساتذه فيقول:
محسود وشمر الناس منزلة من كان في الناس يوماً غير محسود
أو كما قال تلميذه الآخر عبد الله بن المبارك :

حسدوا أن رأوك فضلك الله بما فضلت به النعجباء
أو كما قال هو ذات يوم إذ أقبل عليه رجل ، فـأله : من أين أقبلت؟ قال من عند شريكـ
ركانت بينهما وحشة كما رأيتـ فرفع رأسه وقال :

إن يحسدوني فاني غير لائيم غيري من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهـ و ومات أـ كثرنا غيظاً بما يجد

لقد كانت قاعدة « أن السلف لا يخالفون » في قدسيتهما عندما أعمل فيها معاولة ، ولم يكشاع
في الوسط العلمي أن أحكام المعاملات ليست تعبدية ، وعزيز على أنفس المتهنتين أن يقبلوا الاتجاه
القاضي على ما ألفوه دون أن يتجمعوا ضده ، أو يصبروا على الجهر والالحاح والتحدى بأن رأى
إنسان من الأناسي يعتبر مصدراً للحكم على حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم !

أم أنه ليس الحسد ، وليس الجهل ، ولا التعصب هي التي جعلت على قلوبهم أكنة أن
يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإنما هي الخصومة القديمة الضاربة بجرائنها بين القديم والجديد .

لم تك هذه التهم إلا نهماً تقليدية يلقاها الباحثون على صفحات التاريخ في كل زمان ومكان .
شنشنة عرفها رجال الفكر من أعدائه ، ومن أديائه ، تدعى أياً ما تدعى ، بأسماء مختلفة أو متشاكلة ،
لكنها لمسمى واحد قد يسمى في المشرق بالزندقة : تحويراً لتعبير فارسي يراد به الإلحاد ، ويسمى
في الغرب بالهرطقة *hérésie* يراد به - في الواقع - أعداء الكنيسة في الاعتقاد .

لكنما تضيق صدور سكان هذا الكوكب الواسع بأسماء النابغين . وإن كانت الدنيا
لا تضيق بأجسادهم ، وإلا فقيم لا يطبق الناس قيام المجد إلا بعد أن يزابل صاحبه دنياهم ، فيصبح
معنى من المعاني وذكرآ في الزمن !

وكأننا ترسل النفس القوية على الأرض شعاعاً تعشى من ضيائه الأبصار ، فإذا صعدت إلى
بارئها تنفس الصعداء هؤلاء الملتصقون بالثرى . وفتحوا أعينهم في أفق أوسع وألمع !

هنالك يبايع الأحياء موتاهم ويقيمون التماثيل لمن أخلى لهم مكانه في الوجود . . . فإذا
بايعوا الأحياء بايعوهم مجبرين غير مختارين ، ورضوا بهم كما يرضون بقضاء الله الذي لا يرد ، وبظواهر
الطبيعة التي لا تقاوم .

لجديد تحت الشمس ، ولا جديد فيما قارفه خصوم أبي حنيفة في عهده ، ولا فيما صنعه خصوم
الفكر من قبله ومن بعده ! لقد فقد « ليكرج » من ألفى عام قبل ذلك إحدى عينيه من جراء
إحدى شرائعه !

إننا الجديد في صدد أبي حنيفة أن الولاة لم يسمعوهم ولم يخدموا ، على فرط ما استمعوا
وما انخدعوا في حوادث الايقاع بسواه . فلعلها بركة السنة على إمام أهل السنة الأعظم ، فلم تشمل
له عين ولم تقع له ذراع ، ولم تصبه محاسن التفتيش ولا مذابح العقائد ، وحى التاريخ مدرسة
الكوفة وإمامها . فلم يقع فيها ما وقع في أثينا وروما وبيزنطة ومديريديس وبغداد وغيرها في
الشرق والغرب ، في عهد الحضارة الأولى أو في القرون الوسطى أو الحديثة .

هنالك ترى في العصور الأولى سقراط يحكم عليه بالاعدام خمسمائة قاض من الجماهير ، لأنه
يفسد عقائد الآثينيين ! وأرسطو يهرب خوفاً من تهديد مواطنيه ويموت في مهربه ! !

وترى في مطلع العصر الحديث ، بين مصدق ومكذب ، (كاثقين) زعيم الإصلاح الديني
بعد مارتن لوثر - فارس الخلبة لآتهام برونو بحجة الهرطقة ! وهناك حوكت القديسة جين دارك
وسرفانتس وكثيرون جد كثيرين من رواد العقل البشري !

وهنا تجد المتصم - بطل عمورية - وأخا المأمون الفقيه - يجلد ابن حنبل بالسياط والجلد
والمجلود صائمان . . . وابن عبد القدرس ، والبويطى ، وأحمد بن نصر ، ومحمد بن نوح ،
وابن تميم وأمثالهم .

هنا وهناك لقي الفكر الانساني من العذاب ما تندى له الجباه . . .

لقد صعد هذا الفكر الانساني درجات المشنقة ، وهوت عليه المقصلة ، وشرد ، وجرد ، وحرم
الألقاب ، وذاق عذاب الحريق ، لكنه كان يبعث شعاعه على عمد المقصلة ويلاً الأرجاء بالاشراق ،
وكانت غياية السجن له أولى درجات الخلود .

الباب العاشر

في القضاة

« كن من السلطان كما أنت من »

« النار ، تلتفع منها وتتباعدها »

« ولا تدن منها فانك تحترق . »

أبو حنيفة

كانت وظيفة الحكم في الكوفة عملاً لا يغبط عليه من وسد الأمر إليه ، وكان هم الولاية المقيم المقعد أن يستقضوا عليها أفتته الفقهاء .

فإذا قلبت الصفحات الماضية من تاريخها استقبلتك أسماء من الطراز العالى . . .

ولى « شريح » القضاء فيها لعمر بن الخطاب ، فاعثمان بن عفان ، فاعلى بن أبى طالب ، ليظفر منه بقوله : « أنت أفضى العرب » . وتولاه لمن جاء بعده فظل نحو ثلثى قرن فى عمله لم ينتطع إلا ثلاثة أعوام فى فتنة ابن الزبير حين استقال الحجاج فأقاله ، ومات فى العشرين بعد المائة من العمر وفى الثمانين من الهجرة .

وتلاه « الشعبي » . وما أدراك من الشعبي ! بعثه عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم ، فلما قنل راجعاً سامه الملك خطاباً إلى أمير المؤمنين . وقرأ عبد الملك الخطاب فإذا فيه « عجباً من أهل ديارك ! كيف لم يستخلفوا رسولك ! » قال الشعبي « يا أمير المؤمنين أراد أن يغريك بقتلى حسداً . . . »

وباغ ذلك ملك الروم فقال : لله در أبيه ، ما أردت إلا هذا .

جلس الشعبي للقضاء نحواً من ربع قرن حتى مات سنة ١٠٤ خلف من بعده (الأستاذ الأول

لأبى يوسف) محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حتى سنة ١٤٧ .

وكان طبيعياً أن تشرئب الأعناق إلى أبى حنيفة ليتولى منصب القضاء ، بعد أن جلس مجلس

ابن مسعود فى الافتاء ، فاتجه إليه يزيد بن هبيرة عامل مروان على العراق (١٢٧ - ١٣٣) حين قامت الفتن بالعراق فى أخريات أيام بنى أمية .

جمع يزيد ببابه ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وداود بن هند وولى كل واحد منهم صدراً من

عمله ، وتنازل لأبى حنيفة عن جزء من سلطانه ليكون فى يده خاتم الدولة يختم به كل أمر ،

وجعل له حق إنفاذ الأحكام التى يصدرها القضاة والخراج أيضاً وختم أوامر الوالى ، فرفض

أبو حنيفة ، وألح يزيد وأشار أصحاب أبى حنيفة عليه بالقبول فقال « لو أراد أعدله أبواب

مسجد واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على

ذلك الكتاب ، فوالله لا أدخل فى ذلك أبداً .. »

قال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فإنه هو المصيب .
 وسجن يزيد أبا حنيفة أسبوعين وأمر بضربه بالسياط . قيل : ضربوه مائة سوط وعشرة
 كل يوم عشرة أسواط فلم يزد العذاب إلا ثباتاً .
 لكن للدولة مآرب أخرى في رضى الأستاذ ، فان لم تفلح في أن تضمه إلى رجال الحكم
 فليتمدد إليه بسبب من الأسباب . وعرض عليه يزيد أن يسلكه في الطراز - (بيت المال) -
 لكن الأستاذ كان أسمى من الأمراء ، وأغنى عن الخلفاء فأبى .
 وقيل إنه ترك الكوفة إلى مكة سنة ١٣٠ وبقى إلى جوار بيت الله بضع سنين حتى تولى
 الخلافة أبو جعفر المنصور .

كان العراق إقليماً ثائراً على ما وصفنا وكانت الكوفة عنوانه ، لا يقتصر شغبها على الخلفاء
 والأمراء بل يتعداهم إلى الولاة والقضاة .

روى الشعبي عن شريح أن قد جاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها فقال له : يا أبا أمية
 ما أخال هذه البائسة إلا مظلومة ! قال ياشعبي إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يسكون وهم
 له ظالمون ١١

وكان ذلك أيام لم يألف الناس أن يتباكى الظالمون كما يتباكون في القرن العشرين ، كضاحك
 المزن . دمع ولا حزن .

ودخل على الشعبي في مجلس القضاء زوجان فأدلت الزوجة بحجتها وكانت بارعة الجمال فلما
 فرغت من بيانها التفت القاضي إلى المدعى عليه يسأله وما دفاعك ؟
 فرد الشيطان على غير استحياء بهذه الآيات :

ففتن الشعبي لما	رفع الطرف إليه -
ففتنته بدلال	وبخطى حاجبيه -
قال للجلواز قر	بها وأحضر شاهديه -
فقضى جوراً على الخمد	م ولم يقض عليها

والجلواز في الفارسية ، هو الحاجب في العربية أو الشرطي .

ولم تلبث الواقعة أن طوى خبرها الجزيرة فجاء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في دهشق فلما دخل عليه الشعبي ذات يوم ضحك وقال : فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها . . . وسأل القاضي : ماذا فعلت بالرجل ؟ قال : أوجعته ضرباً يأمر المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وما افتري به علي . قال : أحسنت .

تغير العراق في الدولة الجديدة فأضحى مركز الدائرة بعد إذ كان مجرد قطر من الأقطار ، ولقد بويغ المسفاح في سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م ، بالانبار ، ثم انتقل إلى الهاشمية ، وخلفه فيها المنصور سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فبداه أن يبني عاصمة للدولة غير الكوفة ، وجعل يرتاد المواضع حتى وصل إلى موضع بغداد فرسمها بنفسه ، وحشد لها الصناع من كل الأصقاع ، وشرع يهدم مدينة إيوان كسرى وينقض القصر الأبيض ليدخل الانقاض في بناء بغداد ، ثم كف لكثرة التكاليف وتخير لها الأبواب من كل البلدان وبنى قصره (الخلد) في وسطها وبلغ ما أنفق ثمانية عشرة مليون دينار ، ثم حشر إليها العلماء والشعراء وأصحاب الآراء وأتباعها الناس من كل فج حتى غدت بحق عاصمة الدنيا . وبلغ سكانها نحو المليونين في عهد حفيده الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) - (٧٨٦ - ٨٠٨) .

كان المنصور يقول لخاصته : ما أحوجنى إلى أن يكون علي بابي أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم ، قيل له يأمر المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، أما أحدهم فقاضي لا تأخذه في الحق لومه لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ، والرابع . صاحب بريد يكتب إلى يخبر هؤلاء على الصحة .

وكان ولاية البريد في الآفاق يكتبون إليه أيام خلافته بسعر القمح وكل ما كول وبكل ما يقضى به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وما يرد بيت المال . وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب . يكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة . فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء عن حالة كتب إلى الوالي والعامل . وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من يحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويأمره .

هذه المدينة الكاملة التي أنشأها وهي بغداد كان يموزها ماكمل محمد اسبارطة : اسم كاسم « ليسرج » وما جهل محمد أيدينا . مشرع مثل « صزلون »

كان يموز رجال بغداد الرجل الذي يضع تخوم الحضارة التشريعية عند أساطين مسجد الكوفة فأشخصه أبو جعفر إلى بغداد فشنخص إليها .

هنالك دعاه إلى ولاية القضاء في بغداد ، وقيل في الرصافة التي بناها لولده المهدي . وقيل دعاه ليوليه قضاء القضاة فيخرج القضاة من تحت يده إلى جميع كور الاسلام ، أى إلى الوظيفة التي أنشئت لأبي يوسف في عهد الرشيد .

كان أبو حنيفة يعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، وقاضيان في النار . قاض عمل بالحق في قضاؤه فهو في الجنة ، وقاض علم الحق فجار متعمداً فذلك في النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لأعلم فهذا في النار » كما كان يعلم حديثه عليه الصلاة والسلام (يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يشقى أنه لم يقض بين اثنين في ترة قط) ويعلم حديثه الآخر (ويل للأمرء وويل للعرفاء وويل للأئمةاء . : ليمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيتهم كانت معاتمة بالثريا يتجملجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا .) وكان يعلم ما يثناؤه الرواة عن عثمان بن عفان إذ نادى عبدالله بن عمر « اذهب فاقض بين الناس » قال : أو تعافيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : وما تكره من ذلك ، وقد كان أبرك يقضى ؟ قال : إن أبى كان يقضى فإن أشكل عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سأل جبريل ، وإني لأجد من أسأله . . . » .

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بمصر ليدعو كعب بن ضنة للقضاء فدعاه وأقرأه الكتاب ، وكان بن ضنة ، حكما في الجاهلية فلما عرف مادعى له قال « والله لا ينجيني الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم أعود فيها بعد أن نجانى الله منها » .

ورفض حياة بن شريح القضاء بمصر فجئى بالسيف والنطع فلما برق السيف أبرز مفتاح داره وقال هذا مفتاح دارى وقد اشتقت إلى لقاء ربى . . . ولما رأى الأمير إقباله على ربه حرمه من لقاء وأعماه . ودعا أبا خزيمة فأبى حتى هدده بالسيف فقبل قضاء الأمير عليه بأن يتولى القضاء .

ولما أقبل ابن أبي الأسود صاحب خراسان ليشهد عند قاضي البصرة إياس ، قال إياس :
مرحبا وأهلا بأبي مطرف وأجلسه معه ثم قال له : ما جاء بك ؟ قال : لأشهد لفلان . قال : ومالك
والشهادة ، إنما يشهد الموالى والتجار والسوقة ! قال ، « صدقت » وانصرف من مجلسه راضياً
فقالوا له : إنه خدعك . إنما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها !
قال : « لو علمت ذلك لعلوت رأسه بالقضيب » .

وهكذا كان القاضي في عهد عمر بن عبدالعزيز نفسه بحاجة إلى ذكاء إياس - مضرب المثل
في الذكاء - ليحتفظ باستقلاله !

كان الشيخ يعلم ذلك . لكنه لا يتردد أمام تبعاته ، وإن مافيه من زكامة وعلو همة ليمعه من
التردد وإن به لفتنة وسعوا عن الهوى تحميان عقله أن يجور .
وما تبعات القضاء شيئاً مذكوراً إذا قهست إلى تبعات الفقهاء . .
لقد كان شريح يقول (أنا أقضى ولا أفتي) فكان قاضياً لأنه لم يكن يستطيع أن يكون مفتياً
ولكل مقام رجال ، فالقاضي يقضى في قضية بذاتها ، أما الفقيه فيشرع القواعد للقضاء
وللمتقاضين أجمعين -- ولهذا يرى خطأ الفقيه على خطأ القاضي مرات .

قال سحنون (إنا لله . ما أشقى المفتي والحاكم) وقال « هأنذا يتعلم مني ما تضرب به الرقاب
وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق . أما كنت عن هذا غنياً ؟ » ذلك بأن فتوى الفقيه - على حد
تعبير ابن القيم - شريعة عامة تتعلق بالمستفتي وغيره أما الحاكم (القاضي) فحكمه فردي لا يتعدى
إلى غير المحكوم عليه والمحكوم له .

إنما يقوم المفتي في الأمة مقام النبي ، وكما قال عليه الصلاة والسلام (إن العلماء ورثة الأنبياء .
والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم) .

فليؤد العلماء إذن أمانتهم وليوزعوا في الناس ما ورثوا من الأنبياء وإنيها لأمانة تنقض
الظهور وتؤدد أقوى الأقوياء على القضاء وإذا صح قول الشافعي (من ولي القضاء ولم يفقر فهو
سارق) فإن أبا حنيفة فقير مع كثرة ماله وغنى بالله عن العالمين .

وإنما هي الوظيفة في خدمة السلطان يقف أمامها متسائلاً .
ماذا عن الغد ؟

إنما هي عظات الماضي ينشرها بين يديه . والماضي مرآة المستقبل .
ففي مطالع هذه الدولة الجديدة (سنة ١٣٣٣) قذف جندي بمصر رجلاً من الأهلالي فسبحنه القاضي
وأخرج الوالي الجندي السجين من سجنه فلم يك من القاضي إلا أن تركه وظيفته . . . ومن قبل
ذلك في مصر أيضاً (سنة ٨٩) أقام القاضي ابن شراحبيل الحسني الحد على كاتب الوالي لشربه
الخمر فمطل الوالي قضاءه فاستقال .

وكانت تسيل بالأنباء أعناق المطي في الصحراء ، مثلما تسيل الآن بالأنباء موجات الهواء
واهتزازات الكهرباء ، كما كانت يتناقضها أعضاء المؤتمر العام ، الذي ينعقد كل عام ، إذ يلتقي
الحجيج في جوار البيت الحرام .

واستعرض الامام الأعظم حوادث بضعة عشر ربيعاً خلت من عمر الدولة العباسية لا يأذنون
فيها بمخالفة من أمير أو وزير ويأبون إلا أن تكون كلمتهم هي العليا . . . وهو أدرى الناس بما
يجب للقضاء من استعلاء ، وما يلقاه رجلاه من ابتلاء ، وهو القائل لتلميذه نوح بن مريم إمام
مرو عندما أعلمه أنه ابتلى بالقضاء « ورد كتابك ووقفت على جميع ما فيه وقلدت أمانة عظيمة
يمجز عنها الكبار من الناس وأنت كالغريق فاطلب لنفسك مخرجاً . . . »

وعقب على ما فات بتلك الآيات التي يبعث بها القرن الثاني إلى القضاة في كل العصور
« فإذا جلس الخصمان فسوِّ بين الضعيف والقوى والشريف والوضيع في المجلس والاقبال
والسكلام . . . ثم كلهما برفق وأفيمهما كلامك ولا تعجلهما ودعهما حتى يفرغ من جميع ما يريدون
إلا أن يأخذوا في فصل فتضمنعهما عن ذلك وتبين لهما ذلك . ولا تعجل بفصل القضاء بين القرابات
ورددهم مجالس لعلمهم يصلحون . »

استعرض أبو حنيفة ذلك كله ثم ذكر قوله (من جعل قاضياً فهو كالغريق ، إلى متى
يسبح وإن كان سابحاً .)

وراجع نفسه كرة أخرى إذ يقول لتلاميذه وهم في داره (أنتم مسار قلبي وجلاء حزني
قد أسرجت لكم الفقه وألجمته . . . فسألتكم بالله بتدر ماوهب لكم من جلالة العلم لما صنتموه

عن ذل الاستئثار) .

وإن منهم من سيرفض القضاء غداً لأبي جعفر كزفر، وإن منهم من سيرفضه للرشد
كو كيع .

فلما دعا الرشد تلميذى أبي حنيفة وكيعاً وحفص بن غياث ليلى القضاء أبى وكيع وقبل
حفص نخاصم وكيع حفصاً حتى مات .

استعرض الشيخ ذلك وأمثاله مجهرآً مكبرآً وفى سرعة الأفلام، وراح يستنبط على طريقته
ويقيس ويستحسن ، واستوقفه ولا ريب أن يكتب أبو جعفر إلى القضاة يلومهم إذا عارض
آراءهم أو عارضتها آراء حضارته ، واستوقفه أن يكتب عنهم ولالة البريد كما يكتبون عن العمال
ثم تذكر قوله عليه الصلاة والسلام (إن قليل العمل مع العلم كثير . كما أن كثيره مع الجهل
قليل) . وقوله (تعلموا ما شئتم فإن يأجركم الله حتى تعملوا ...)

فليتبع الأجر من الله بالعمل فى سبيل الله . لافى سبيل الخليفة . وإذا كان أبو جعفر يجاهر
بإعجابه بالحجاج قائلاً « ليت لى مثله » ! وكانت سيرة الحجاج لم تلوث بأقبح مما تلوثت به من
قتل العلماء والتمثيل بهم حتى ليحرف عن القبة سعيد بن جبير كى يهلى وتضرب عنقه .
إذا كان ذلك أبا جعفر ، وهذا هو الخطر ، فإن أبا حنيفة يتحدى بنفسه الخطر ، فحزم أمره
واستخار به نهاره . ورفض ما طلبه إليه أمير المؤمنين . وأصر إمام المسلمين وأصر أمير المؤمنين .
وحلف أبو جعفر ليفعلن . فخاف أبو حنيفة ألا يفعل . وقال : إنى لأصالح للقضاء قال الربيع
ابن يونس الحاجب . ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ .

قال أبو حنيفة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى .

فأمر به أبو جعفر إلى الحبس فى الوقت ثم دعا به . قال : أترغب عما نحن فيه ؟ قال : أصالح الله
أمير المؤمنين لأصالح للقضاء .

قال الخليفة : كذبت .

فانطلق أبو حنيفة يقول : قد حكم على أمير المؤمنين أنى لأصالح للقضاء لأنه ينسبنى إلى

الكذب فإن كنت كاذباً فلا أصالح ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لأصالح . . . وطفق أمير المؤمنين ينازله في الأمر وهو يقول : اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمور الرضا فكيف أكون مأمور الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تفرقني في الفرات لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصالح لذلك . . . وكيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب !

قيل : وداروا به في الأسواق أياماً كثيرة على أن يقبل القضاء فأبى وردوه إلى السجن . وقالوا : إن الوزراء نصحوا أبا جعفر بأخراجه من السجن وجعله في منزل ومنعه من الفتوى للناس والجلوس لهم والخروج من المنزل فكانت تلك حالته إلى أن مات بعد قليل من الزمان وقيل بعد أيام معدودات .

وقالوا : إنه ضرب مائة سوطاً أو مائة وعشرة أو ثلاثين سوطاً . حتى سال الدم على عقبه فقال عبد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة للخليفة : سللت على نفسك مائة ألف سيف . هذا فقيه أهل العراق فقيه أهل المشرق . فأمر له أبو جعفر بثلاثين ألف درهم . مكان كل سوط ألف درهم . فإما وضعت بين يديه رفضها فقليل له : لو تصدقت بها . قال : أيوجد عندهم الحلال . . . ؟ وهكذا حبس الرجل الذي ظلمت الحرية نصف قرن اسماً هو مساه ، والذي عاش سبعين عاماً يصنع الحرية بيده صنماً ويخاقها خلقاً في تلاميذه وتعاليمه . حبس الجسم من ذلك القلب الذي لم يحبس نوره أحد ولن يحبسه قيد أو صمد .

إن مقاييس هذا العالم وقيوده للناس وللولاة ولكنها ليست للعباقرة .

تلك كانت القضية الأخيرة التي سمع فيها قول أبي حنيفة نقل التاريخ إلينا منها جملة الواقعة ولم ينقل التفاصيل . وبحسبك أن تستعرضها لتستخلص ما فيها من القضايا .

فكيف يولى الخليفة على القضاء رجلاً كاذباً إن صح قول الخليفة فإذا لم يصح قامت قضية أخرى كالقضية الأولى :

كيف يتولى القضاء رجل يتذفه أمير المؤمنين .

وكيف تسخر الدولة العلماء . وكيف يخدم الأئمة الخلفاء ؟

كانت قد أثقلته مفاخر السنين الطويلة التي حمل فيها كرامة العلماء في عصره وكرامة
الرأى الإنسانى فى الأعصر كدفة ، وكان أخوف ما يخافه على القضاء نزوات السلطة وشهوات
الحاشية . وما أفنك الطمعة إذا أصابت الرأس ، فكيف يسلم زعيم الفقهاء نفسه لطغيان الأمراء .. !
ولئن كان فى كنف السلطان رغبة تسيل اللعاب ، إنما ليسيطر عليها القلق والعذاب والاسترهاب .
قالوا : دخل شريك يوما على المهدي فقال له المهدي : لا بد أن تجيئنى إلى خصلة من ثلاث :
أن تلى القضاء أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل عندى أكلة . ففكر ساعة ثم قال . الأكلة
أخفها على نفسى . قال الفضل بن الربيع « خدشهم والله . وعلم أولادهم . وولى القضاء لهم » .
لله در أبى حنيفة فيما قال لأبى يوسف عن السلطان إذ تفرس فيه أنه سيلي القضاء .. (فكن
منه كما أنت من النار تنفع منها وتتباعدها ولا تدن منها فانك تحترق وتتأذى منها ، فان السلطان
لا يرى لأحد ما يرى لنفسه ...) .

ومارمى أبى جعفر لأبى حنيفة بالكذب إلا الخطوة الأولى ، وقد خطاها ، فماذا كان يخفى له
الغد من نزوات ، وأى نذر كانت تلك النذر ... !

لقد كان أبو حنيفة أعلى وأكبر من أن يقذفه أبو جعفر . وإن التاريخ ليعرف أبا جعفر
ويعرف أبا حنيفة . ويشهد أن الذى صدق هو الإمام وأن الذى كذب هو الخليفة .. !
ولقد حمل أبو حنيفة لواء الحرية عالياً ، ورفع صوته جهرديا مدويا — فلن يلتقى أعلام الحرية
تحت أقدام الخلفاء ، بل هو كان أجدر الناس بأن يقول المنصور ، ماقاله الزهرى من قبل لهشام
ابن عبد الملك : والله لو نادانى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت !

ولم يجر فى بال الشيخ أن يقدر له الزمان مع أبى جعفر من النجاح ، ما قدر مع الرشيد
لأبى يوسف فلئن استطاع أبو يوسف أن يجمع بين الدين والدنيا وتعظيم السلطان لقد كلفه ذلك
كثيراً من عبقرياته ! وكم كان من الفروق بين المهديين وبين الرجلين وبين الرسالتين بعد ربع قرن

لكن لأبي جعفر من الحق على التاريخ أن يزن رأيه التاريخ ، فلقد أهمته وظيفته القضاء ، على ما سلفنا من المقال . وما كان أعظم حاجة البلدة التي تحمل اسمه (بغداد - مدينة المنصور) إلى أبي حنيفة في حين لم يكن بأبي حنيفة حاجة إلى تلك البلدة أو إلى الرجل الذي تحمل اسمه ، وفي عصر قال فيه ابن المتفعم « الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك » وفي عهد كان يستباح فيه من أجل الدولة ما لا يباح .

كان المنصور يريد أن يقرن مجد البسالة الزائل بمجد العدالة الذي لا يزول . وفي سيرته من التدلى والسمو ما لا مثابه له إلا في سير أفذاذ الساسة والمؤسسين . كأنما تأبى السماء على الأرض أن تستوى أشيائها وتنسط ، أو تأبى الطبيعة على النفس أن تستمر في تحليقها السماوى فتربطها بطبائع الغاب . والظفر والناب .

في هذا الرجل عدالة عمرية وفيه خيانات دونها الكثير من الخيانات . ١ . اختاف مع زوجته (أروى) أم المهدي ، فجعل لها أن تختار قاضياً في خصومتها واختارت قاضى مصر غوث بن سليمان فحمل القاضى إلى العراق ووكلت خادما لها ليخاضم الخليفة في مجلس القضاء فقال غوث لأبي جعفر (إن رأى أمير المؤمنين أن يساوى الخصم في مجلسه) فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم وأقر بشروط لها في كتاب الصداق وقضى القاضى ضده .

وكتب إلى سوار بن عبد الله قاضى البصرة أن ينظر فى أرض اختصم عليها أحد قواده مع رجل من تجار البصرة . وكانت الأرض فى يد التاجر . وكان أبو جعفر يرى أن يدفعها إلى القائد . فأبى القاضى فكتب إليه (والله الذى لا إله الا هو لتدفعنها إلى القائد) فكتب إليه سوار (والله الذى لا إله الا هو لا أخرجها من يده إلا بحق) واستقبل أبو جعفر تحدى سوار وجهارته بصياح الفرخ فقال « لا أئتمها عدلا . وصارت قضائى تردنى إلى الحق . » وكانت آية إعجابه بحكم غوث بن سليمان أن أمر باحتباسه ليتولى قضاء الكوفة بدلا من قضاء مصر واعتذر غوث بخربته فردده إلى ضفاف النيل .

واستقضى الليث بن سعد إمام مصر بل قيل إنه عرض عليه ولايتها . فأبى .

واستقضى يحيى بن سعيد الأنصارى إذ استقدمه من المدينة إلى الهاشمية .

واستقضى عبد الله بن وهب . فلزم ابن وهب داره واتخذ منها مخبأ ١ ...
 فهدم الوالى عليه بهض داره واطاع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ في صحن الدار فناداه
 « ألا تخرج إلى الناس فتقضى بكتاب الله وسنة رسوله ١ » فرفع رأسه وقال « إلى هنا انتهى
 عقلك ؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟ »
 وسمع الناس ابن وهب يقول : يارب يفادو عليك إخواني غدا علماء حكماء فقهاء وأقدم
 عليك قاضيا ، لا يارب ولو قرضت بالمقاريض ... ١

وألح أبو جعفر على عمرو بن عبيد ورجاله ليحلبوا معه تبعات الحكم .
 كان أبو جعفر بناء مثالياً من بناءة الدول وافتداً من الميدان — والسنة في الميدان سنتان — فيه
 عزيمات الفتوة والتفانيات المنصك فأخذت يسراه تبطش بمخضوم الدولة وانطلقت ينهيه في بسط
 وإيناس تحمل ميزان المعدلة في الناس ...

كان سخاؤه من أجل الدولة يضرب المثل ومن أجهلها أيضاً كان شحه مضرب الأمثال ، حتى
 ليصمى بالدوانيقي أو (أبي الدوانيقي) والدانيق ١/٢ درهم .

طلب إليه سوار (القاضي) أن يسوى أجر كاتبين لسوار — مرتب أحدهما أربعون درهما
 ومرتب الآخر عشرون — فكتب أبو جعفر إليه أن ينتص ذا الأربعين عشرة ، وأن يزيد ذا
 العشرين عشرة ١ وإنما أراد سوار أن يلحق صاحب العشرين بصاحب الأربعين ١١
 ولما علم أن ابنه المهدي وهب عشرين ألف درهم لشاعر ، استرجع من الشاعر ستة عشر
 ألفاً ١١١

وقال له : إن المهدي غر خدعته ولا يعرف قيمة المال !

ومع ذلك تجده يمنح الرجل من بنى العباس مليون درهم ليجعل له داراً ومكاناً ...
 وبينما يصبح بأنه ملاء الأرض عدالة ، ويجمع حوله التواقين إلى العلم وعشاق الحكمة إذا بنفسه
 تسول له أن ينقض العهد الذي عاهد عليه يزيد بن هبيرة بعد مفاوضات ظل الشهود يختلفون
 فيها أربعين يوماً ، فلما انصرف يزيد من مجلسه قال أبو جعفر : عجبت ممن يأمرني بقتل
 مثل هذا ... ١

لكن القائل أبو جعفر فلا عجب إذا كان القاتل أبا جعفر ... لقد قتله وقتل معه ولده داود قبل أن يجف مداد العهد و (في اليهود وفاء لا غدر) ١

ودعا إلى قصره أبا مسلم الخراساني الذي أخرجه وأخاه من محبتهما في الكوفة من بضع سنين لينحيه وينح أخاه من قبله دولة تبقى إلى سنة ٦٦٥ هـ. في بغداد وخلافة تبقى إلى سنة ٩٢٣ بمصر، — دعاه إلى قصره مبيتاً له بليل، حتى إذا كان بين يديه وثب به عبيده فقتلوه . .

ولما هزمه عبد الله بن علي قائد الجيوش العباسية المظفرة احتفى عبد الله بأخيه سليمان بن علي بالبصرة فأعطاه المنصور أماناً حتى سلم الأخ أخاه . لكن المنصور حبسه حتى مات وقتل أنصاره . فلما عرض الأمان على محمد بن عبد الله جمع محمد مخازي أماناته فكتب إليه (أما أمانك الذي عرضت فأى الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله من علي ؟ أم أمان أبي مسلم ؟ والسلام . . .)

قيل له : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو قال لأن بنى مروان لم قبل ربههم بعد ، ونحن بين قوم قد رأونا بالألمس سوقوا اليوم خلفاء ، فليس يتمهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة .

فهى السياسة إذن تدفعه إلى البطش وتعميه عن المغفرة ، والغدر عنده مصالحة عالياً والبطش عنده حكمة بالغة .

لكنه لم يك يختار ويفدر حيث لا تلزمه السياسة أن يخيس بهده .

شرط لزوجته أروى ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . ولما هم بالزواج من سواها حجته بعهد فـكان يكتب للفقهاء تلو الفقيه ، بالحجاز والعراق يطالب في كتاب الشرط رخصة فلا يجد . حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ١ فهو فيما بينه وبين الله صاحب عهد ١ أما في السياسة فعهد الدولة يدور وجهه مع صالحها حيث كان ، فإذا أمن الأذى عاينها تراءى لك البشر الذي يستقبل به القضاة ضده ، والنصح العنيف له . . .

كان يستقبل عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة بالترحاب وينشد فيه (كاسكم يشى رويد . كاسكم طالب صيد . غير عمرو بن عبيد) وكان عمرو شيخاً جريئاً يطلق لسانه في الملوك وفي الصحابة ١ قال لأبي جعفر يوماً « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها . وذكر ليلة تمخص

عن يوم لا ليلة بعده . . .) فوجم أبو جعفر فقال حاجبه الربيع بن يونس : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للخليفة « إن هذا - وأشار إلى الربيع - ضحكك عشرين سنة لم يرك عليه أن ينضحك يوماً واحداً وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قلت لك خاتمي في يدك فتهال وأصحابك فاكفني . قال عمرو : لا . ادعنا بعدك تسخ أنفسنا بعونك . بيابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . . .

ودخل عليه سفيان الثوري فأغلاظ له في القول . فسأله أبو جعفر فأجاب ثم قال : فما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد بغير إذنهم . وقد قال عمر في حجة حجة وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه . « ما أرانا إلا وقد أجهفنا بيت المال » . وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس عن إبراهيم عن الأسود عن عائمة عن ابن مسعود (سلسلة السكوفة) أن رسول الله قال « رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً » . فقال له أبو عبيد الكاتب : أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟ . فقال له سفيان « اسكت قائماً أهلك فرعون هامان وهامان فرعون » . ثم خرج سفيان فقال أبو عبيد : ألا تأمرني بقتل هذا الرجل فوالله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه . فقال أبو جعفر « اسكت يا أنوك (أحق) فوالله ما بقى على الأرض أحد اليوم يستحي منه غير هذا ومالك بن أنس » .

كانت حالة أحكام عرقية في دولة لم تكن تستقر بعد ، يحشد لها التوى من كل حذب وصوب ! ولقد أمر أمير المؤمنين أباحنيفة ولم يطع ، فهي عنده الثورة ، وحلف عليه فلم يطع فهما ثورتان . بل إنه ليحلف على عدم تنفيذ حلف الخليفة فهي عنده ثورات .

لقد كان يخطب في نفس العام الذي دعى فيه أبو حنيفة للقضاء فيقول : إنما أنا سلطان الله في الأرض . ! ولقد كان السلطان الذي في يده أضعاف ما كان بيد الملك الذي قال بعد قرون : « أنا الدولة » ونعني به لويس الرابع عشر . وكانت خطبه ملائى بدعوى الحق الإلهي في الخلافة . كان يطربه ويطرب بنى العباس أن يقال للرجل منهم : ابن عمك رسول الله ! ! حريصين على أن يكون ملكهم قائماً على رضا الشعب لا يقبلون أن يراجع كلتهم أحد ، وأشدهم في هذا أبو جعفر

حتى حتى له بنو هاشم أنفسهم هاشم العوالى .

قال مالك « دخأت على أبى جعفر ورأيت غير واحد من بنى هاشم يقبل يده المرتيز والثلاثاء
ورزقنى الله العافية من ذلك فلم أقبل له يدًا »

ومن أجل ذلك تراه إذ قيل إنه منح أبا حنيفة عشرة آلاف فرفضها، يرجو ألا يذيع فى الناس
أنباء العطاء والآباء، فى الرضى ثورة أو استعلاء وهو لا يقبل الثورة ولا يطيق الاستعلاء، فكيف
يمرض عليه القضاء فيقف فى وجهه مرة إثر مرة يقول : لا ...

لكن ما هال أبا جعفر من رفض أمره جعل حقاً على أبى حنيفة أن يأبى وأن يصر على الآباء .
فالدولة التى لا تأذن بأن « يخضع السلاح للوشاح » كما يقول المثل اللاتينى، ويضرب فيها القضاة
هى أخرى الدولات بأن يجانبها رجال الوشاح وهم العلماء ورجال القضاء . (ان الناس إذا رأوا
الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعتاب من عنده) . كما قال عليه الصلاة والسلام .
رفض أبو حنيفة القضاء بين يدى أبى جعفر وبين يدى ابن هيرة وخرب بالسياط ، وكانت
أمه إلى جواره تقول : يا نعمان إن علماً ما أفادك غير الضرب والحبس لتحقيق بك أن تنفر عنه .
فأجابها « يأمه لو أردت الدنيا لوصلت إليها ولكنى أردت أن يعلم الله أنى صنت العلم ولم
أعرض نفسى فيه للهلكة » .

وأدخل السجن فلم يقبل أن يأكل من طعام الخليفة وبعث إلى ولده حماد يقول : قد علمت
أن قوتى فى الشهر درهمان من سويق (الناعم من الخنطة أو الشعير) . وقد حبسته عنى فمجله .
ومكث فى السجن أياماً معدودات ثم صعدت روحه إلى بارئها .

وهكذا تعدى أبو جعفر الإلحاح إلى الأكراه ، وتعدى الأكراه النفسانى باليمين ، إلى
الأكراه الجثمانى بالسجن وتعدى ذلك كله إلى التمديب والضرب . فأى جناية تلك يستحق بها
عذاب الله وحساب التاريخ ... ومهما قيل عن نباله الغاية فأنها لا ترحض عنه الوصمة والمذمة
فإذا كان الضرب أو السجن أو الألم النفسى أو الجثمانى قد سبب موت الشيخ وهو فى السبعين
فيا هول ما يلقى به ربه أبو جعفر ... !

كان التجنيد للقضاء نهجاً نهجه الخلفاء من قبل المنصور ومن بعده ، وقد بنا كان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام (إن خروجه قد أدخل المدينة وأهلها في الفتنة وما كان يفتيهم به) ولقد كالم أبا بكر في أن يحبس له حاجة الناس إليه فأبى ذلك عليه . . .

لكن عمر لم يفكر في سجن معاذ كما سجن أبو جعفر أباحنيفة ، وإن اتداول الفاروق مع الصديق في إبقائه بالمدينة لحبسه عن السفر كما كان عمر يفرق الصحابة في الأمطار ويحبس زيد بن ثابت عنده لأن أهل المدينة (محتاجون إليه فيما يجدونه وفجا يحدث لهم فجالا يجدونه عند غيره) .

والفرق بين الخليفين كالفرق بين التوفيق والاندفاع . بين رجل الله ورجل الملك وبين ، خليفة الصديق وخليفة السفاح .

وعرض الأمور للقضاء على تلميذ أ ب يوسف ، معلى بن منصور غير مرة فأبى . وعرض قضاء بغداد على تلميذ محمد ، موسى بن سليمان الجوزجاني ، فامتنع فأجلده سبعاً وهدده إن لم يقبل ليعذبه وليحبسه فقال له « يا أمير المؤمنين : قد صح عندي أنك إذ عرضت على أحد الأخوين الصالحين سهل بن مراحم حيث كنت بمرور فامتنع عليك فعاقبته ثم ندمت فقلت لا أكره أحداً على العمل بعد ذلك فرأيتك لا تكرهني . » فجعل المأمون يقول : أخوين صالحين برون . فتنكر ساعة ثم قال للجوزجاني . قم انصرف .

ولما كان بمصر دعا على بن معبد للقضاء فامتنع ، فرجاه في أن يولى أخاه بدلاً منه كما يستعين هو بأخيه المعتصم ، فاستفاد بن معبد .

ولقد جرت ولاية القضاء في الوسط العاصي على أنها ابتلاء يفرع منه العلماء ، فزع الأصحاء ، من الوباء كما جرت على الألسن العبارات التقليدية « ابتلى بالقضاء . وامتنحن بالقضاء » . حتى ليسترجع الناس ويترحمون على من اختاره الوالي لقضائه كأنما أصابه الله بقضائه !!

ولى عبد الرحمن بن حنبل قضاء مصر وبلغ الخبر أباه في فلسطين فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ! هلك الرجل . . .

وهذان قاضيان ووال يتداولون في شأن القضاء على أنه (شفيع جهنم) ١

كتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه ليجمع بين إلياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فيولى القضاء

أنفذهما . فلما اجتمعا قال إياس للوالى : أيها الرجل : سل غنى وعن القاسم فقيهى البصرة الحسن وابن سيرين . - وكان لا يجاس إليهما و كان القاسم يفعل ذلك - فعلم القاسم أنهما إن سئلا أشارا إليه فقال : لا تسأل عني ولا عنه . فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفتقه منى وأعلم بالقضاء . فأن كنت كاذباً فما ينبغي أن تولينى . وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى . قال إياس للوالى : إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف فقال الوالى « أما إذ فهمتها فأنت لها ... » واستقضاه ...

وهذان مذهبان يتلاومان : ولى القضاء ابن سريح فعتب عليه ابن خيزان بقوله : « هذا الأمر لم يكن فى أصحابنا ... وإنما كان بليه فى أصحاب أبى حنيفة »

بل إنه ليس بليه فحسب . ولا شفيع جهنم فحسب ولكنه (ذبح بغير سكين) .

ولى سحنون قضاء أفريقية وسنه أربع وسبعون سنة فلما دخل على ابنته قال لها « اليوم ذبح أبوك بغير سكين . » فعلم الناس بقوله القضاء .

ولئن عجبت لا اعتبار ولاية القضاء ذبحاً بغير سكين ، إن العجب ليوفى على الغاية من فهم

السامع المراد بهذا التعبير دون تفسير !

وهذا ابن مسكين من تلاميذ سحنون يتولى القضاء إذ تكاد السيوف تسلمه للاحتوف .

جس ابراهيم بن الأغلب أمير أفريقيا وبحضرته عيسى بن مسكين فسأله :

ما تقول فى رجل قد جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعيت هذه الأمة ،

فامتنع ؟ قال : يلزمه أن يلى . . . قال الأمير : تمنع . قال : تجبره على ذلك بجحد . قال الأمير

الداهية « قم فأنت هو » قال : ما أنا بالذى وصفت وتمنع ! فأخذ الأمير بتجامع ثيابه وأدى

السيف من نحره . فتقدم بعد أمر عظيم واجتماع الناس عليه على اختلاف مذاهبهم .

ولما عرض الرشيد القضاء على الأخيرة بن عبد الرحمن فقيه المدينة بعد مالك - وكانت

جائزته أربعة آلاف دينار - قال « والله يا أمير المؤمنين لأن يختتننى السلطان أحب إلى من

القضاء » . فقال الخليفة السميع : ما بعد هذا شيء وأجازه بألفى دينار . .

وكذلك الذى يؤثر أن يختنقه السلطان هذا الذى قيل إنه يؤثر أن يدعو الله على نفسه

ثَبِّحْهُ اللَّهُ إِلَيْهِ .

سأل الأمير قاسم بن ثابت بن حزم أن يلى القضاء فامتنع فأراد أبوه أن يكرهه عليه فسأله أن يمهله ثلاثة أيام يستخير الله تعالى . فمات في الأيام الثلاثة فكانوا يرون أنه دعا على نفسه . ودعى ابن خيزان للقضاء فامتنع فختم عليه الباب عشرة أيام حتى احتاج إلى الماء فلم يقدر عليه إلا بمناولة الجيران من الكوة ! فقال الوزير الذى حبسه « ما أردنا بالشيخ أبى على إلا خيراً أردنا أن يعلم الناس أن فى مملكتنا رجال يعرض عليه القضاء شرقاً وغرباً وفعل به مثل هذا وهو لا يقبل » .

ولقد عرضت الجواز على الإمام الطبرى فرفض ، وعرض عليه القضاء وولاية المظالم فرفض وأشار عليه صهبة قائلين : لك فى هذا ثواب وتحيى سنة قد درست فنهزم قائلان « كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك نهيتهمونى عنه » .

ولما أبطأت عليه النفقة من مدينة أمل حيث كان أبوه ينفذ إليه الشئ ، بعد الشئ ، آثر أن يفتق كى قيضه فيبعدهما .

وأكره القائم بأمر الله الفيروز ابادى على أن يتقلد له النظر فى الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً فامتنع ، فوكل به ، فكتب إليه « ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكنى معك » فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء ، إنما أردنا أن يقال إنه كان فى عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع وقد أعفيناها .

صنع العلماء ذلك - وأمثاله كثيرة فى التاريخ الإسلامى - خشية أن يزلهم الشيطان فيخطئوا أو يفرط عليهم السطان ويظنى ، بل بلغ التخرج بالبعض أن يردوا شهادة الرجل إذا خرج لقدم الأمير استحسا كما بحرمة القضاء كى لا تثبت الدعوى بشهادة من يخاف الأمراء .

* * *

هؤلاء العلماء الأفاضل قد نشأ بهم آثار الفضل التى خلفها لهم ملأف صالح فى قمة أسمائه أبو حنيفة الزمان ، يحملون آثارهم فى وجه التاريخ مفاخرين ، كما حملوا رؤوسهم على أكتفهم مخاطرين ، وكما صنع أبو حنيفة فى عهد القوة القاهرة ، والدولة المسيطرة ، والمستبد الذى لا يغفر أن تعصى رغبته

ويكتسح سلطانه الأمراء والقواد العلماء والآئمة . . .

فلم يكن عدلاً لهذا الجبروت إلا ذلك الاستعلاء ، ولا كفئاً لهذا الطاغية العظيم إلا ذلك الامام الأعظم .

وبهذا كان الدرس رائعاً ونافعاً للعلماء والآئمة العلماء كما ذكره ابن حنبل بكى وترحم على أبى حنيفة بعد مذاق ابن حنبل من إرهاب في محنة خلق القرآن .
هنالك وضع نفسه رابع الآئمة حيث وضع نفسه أول الآئمة .

لم يقبل ابن حنبل أن يقول إن القرآن مخلوق . . . ودعا نائب المأمون إليه العلماء كما طلب المأمون يسألهم فوراً ولم يجيبوا ، أما ابن حنبل فقال : هو كلام الله لا أزيد على هذا . . . فوجه به إلى المأمون بطرسوس ثم إلى الرقة ، وكان المأمون قد مات ودفن بطرسوس ، بعد أن أوصى خليفته المعتصم بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فرد ابن حنبل إلى بغداد مصفداً .
ومكث في حبسه ثمانية وعشرين شهراً وفي رجليه أربعة أصفاد . . . وأخيراً حمل إلى المعتصم وإلى جواره قاضيه ووزيره والمحرض الأكبر في فتنه خلق القرآن أحمد بن أبي دؤاد وطائفة من العلماء لينظروه أياماً ثلاثة ، فلما كان اليوم الثالث ، تقدم الجلادون يضربونه ، كل منهم سوطين والمعتصم يقول للجلاد : شذ قطع الله يدك . ولما لم يجد العذاب فيه تقدم المعتصم إليه يقول : أبى والله عليك لشفيق . . . ونحس ابن حنبل ناخس بالسيف وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم . . . وقام قائل يأمر المؤمنين دمه في عنق أقتله ؟ وجعل آخرون يقولون : يأمر المؤمنين أنت صائم وأنت في الشمس قائم !

كانوا يخشون صيامه وقيامه ، ويخافون الشمس ، ولا يخافون جنهم التي يوعدون !
ثم قال المعتصم ويحك يا أحمد ماتقول ! وعاد يقول للجلاد : أوجع قطع الله يدك ! فجمعوا يوجعون . وعاد يقول أجبنى . ويقول للجلادين : أوجموا . . حتى فقد ابن حنبل رعيه ، فلما أفاق وجد الأصفاد قد فككت ، وقال له أحد الحاضرين : أنا كبذالك على وجهك ، وطرحتك على ظهرك ودمناك . . . وجيء به والدم ينزف منه ، وكان صائماً وأبى أن يشرب ، فقام وصلى حينما حضرت الصلاة في الظهور والدم يسيل منه . قالوا : كيف تصلى كذلك . قال « صلى عمر وجرحه يشعب دماً . »

تعلم ابن حنبل على أبي حنيفة ، وتعلم آخرون على ابن حنبل ، كزميله البويطى إذ حمل من مصر إلى بغداد ليقول مثل مادعى لقوله ابن حنبل فأبى ومات فى أصفاده ، وقتل الواثق أحمد بن نصر لنفس الأسباب .

وتعلم العلماء على أئمتهم فكرم الله بهم الاسلام فى كل مقام .
سمع عز الدين موسى من أمراء دولة بنى أيوب بمصر عن الإمام القاسم الشاطبى إمام القراءات فدعاه ليمثل أمامه . فبرم الشاطبى بالدعوة وبهت اليه برقمة فيها .

قل للأمير نصيحة لا تركن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

ترى هل يذكر الذاكرون اسم الشاطبى وهم يسلكون (شارع الموسيقى) إلى أقدم جامعة فى العالم ! نعى الجامع الأزهر . الكائنات خطت يد التاريخ من ذلك الشارع تمثالا لكرامة العالم ، وإن كانت أطلقت عليه اسم الأمير .

وفى عهد الأيوبيين أيضا ولى السلطان نجم الدين أيوب على قضاء مصر شيخ الاسلام أبامحمد العزبن عبد السلام . ورأى الشيخ أن يباع أمراء الدولة باعتبارهم ممالك وتضاف أثمانهم إلى بيت المال ! فهاجوا وأرادوا قتله ، لولا أن حخته منهم رعاية السماء وحمتهم منه عناية السلطان ، فاشتراهم السلطان بماله ودفع اليه الثمن ليصر فيه فى وجوه البر كما يرى .

وكان أحمد بن طولون صاحب مصر يعظم بكار بن قتيبة القاضى الحنفى فيجىء إلى مجلسه ولا يحس بكار بمقدمه إلا إذا جاء إلى جنبه ، فلما طالبه بعن الموفق (ولى عهد الخليفة العباسى) توقف وقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقيل لابن طولون إنما قصدك بهذا القول ، فطالبه ابن طولون برد الجوائز التى اجازها بها فأخذها كما هى بنحواتها وسجنه فى دار اكتريت له . فكان يجلس فى طاق ويحدث الناس باذن التمسوه من ابن طولون .

فلما عرضت لابن طولون علمته التى مات فيها وجه اليه يستحله ، فقال للرسول : قل له أنا شيخ كبير وأنت عليل والميتقى قريب والله الحاجز بيننا .

ومات ابن طولون فكان بكار يقول : مات البائس .

وكما اجتمع الناس حول بكار في سجنه اجتمع آخرون ليملي عليهم السر خسى من محبسه في جب السجن في أوزجند إذ نهض الخاقان فأسخطه فحبسه .

وتعالى العلم بالعلماء عن أن ينحنوا أمام الأمراء . فلما أصيب بالفالج شيخ الحنفية ببغداد عبيد الله بن الحسين الكرخي ، كتب أصحابه إلى سيف الدولة في حلب ليعينه . وبكى الشيخ إذ علم ودعا الله قائلاً : اللهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عودتي .

واستجاب إليه ربه فمات قبل أن تصل إليه عشرة آلاف درهم .

وسأل السلطان علي بن الحسن النيسابوري : لم لا تجيئ عندي ؟ فقال « أرئت أن تكون خير الملوكة إذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء حيث أزور الملوك » .

ولما تهيأ للحج شمس الدين الخيالي وأخبره المصدر الأعظم بتعيينه للدرس قال له شمس الدين « إن أعطيتني وزارتك وأعطاني السلطان سلطنته لأترك هذا السفر . » ١

الختامة

في الدنيا

« سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريقى »

« لأموت ، وأنتم في طريقكم لتعيشوا ، »

« والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلا »

سفر

لم تكن حياة أبي حنيفة وإن طالمت إلا معركة واحدة مسلخ فيها الفكر الانساني سبمين عاماً بين التحضير والتدبير والمحملة ، ولم تكن لبطلها غاية ولا وسيلة إلا الحرية والتسامح ، في كل أطوارها .

والعالم الذي يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة . والوجود المنبعث من نفوس هرة هو وحده السبيل إلى عمارة الدنيا بالنشاط الفكري والرخاء المادي .

وبعد أن دأبت نظريات أبي حنيفة في الايمان وفي الحرية وفي الاجتهاد بالرأى استقل بامامة ثلثي الأمة عن سائر المذاهب والأفراق ، ورقى سلم المجد إلى اسمى ذرواته ، لينزل في التاريخ منزلة الإمام الأعظم لأهل الاسلام .

ولما ختم حياته في سبيل الحرية كان كالذي كشف الغيب فوضع نفسه ، حيث وضعت الأجيال ، وكان كالمؤلف يضع على مؤلفه بعد الفراغ منه عنوانه .

فهل صحيح ما قيل من أن حبسه كان لسبب سياسي هو تشييعه لمحمد بن عبد الله (بن الحسن ابن الحسن ابن عليّ أبي طالب) المسمى بالنفس الزكية أو لأخيه ابراهيم ؟ أم أنه لم يحبس إلا من أجل القضاء . . . ؟

إن من المسلم به أن محمداً وأخاه ابراهيم قتلا في سنة ١٤٥ إذ خرج محمد بالمدينة على أبي جعفر وبعد أن خرج عاياه ابراهيم في البصرة .

وإذ كان من المسلم به أن الأجل وفي أبا حنيفة عقب حبسه بأيام في سنة ١٥٠ فإنه يكون عجيباً أن يتشيع أبو حنيفة الموتي بعد إذ ماتوا بخمس سنين . وأعجب منه أن يرتاع رجل شديد البأس قوى المراس كأبي جعفر من العطف على ذكريات الموتي ، لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذي يخرج الفقيه الأعظم عن حكمة السبعين عاماً !

لقد كان أبو حنيفة إذا سئل عن علي ومعاوية وقتلي صفين أو خلافت الشيعة والأمويين يقول « أخاف الله أن أقدم على شيء يسألني الله عنه . وإذا أقامني يوم القيامة بين يديه لا يسألني عن شيء من أمورهم . يسألني عما كلفني والاشتغال بذلك أولى »

الواحدة. قال الله تعالى فان ختمكم ألا تعدلوا فواحدة . فينبغي أن نتأدب بأدب الله فنتعظ به وادخله .
وسكت أمير المؤمنين وطال سكوته . وخرج أبو حنيفة . فلما بلغ منزله جاءه غلام بهدية من السيدة
التي أدب من أجابها أمير المؤمنين ذلك الأدب : خمسين ألفاً ، وجارية ، ودابة . . .
فقال للغلام « أقرمها سلامي وقل لها إنما ناضت عن ديني » وما مديده إلى شيء حتى حمل
من بين يديه .

دخل على أبي جعفر يوماً وإلى جوار أبي جعفر الربيع بن يونس . وفي روايه أخرى محمد بن
اسحق صاحب المغازي . وكان الربيع بنفس على أبي حنيفة مكانته ، فابتدره بقوله يا أمير المؤمنين ،
هذا أبو حنيفة يخالف جدك في الاستثناء المنفصل (فلقد كان جدّه عبد الله بن عباس يقول : إذا
حلف الحالف ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين إلى سنة في قول ، وأبدأ في قول آخر ، جاز
الاستثناء من اليمين ، في حين يرى أبو حنيفة أن الاستثناء لا يجوز إلا متصلاً باليمين ، والاستثناء
عنده لا يصح إذا صدر القول باتاً في المجلس) .

فلم يحزن أبو حنيفة قوله ، بل واجهه العاصفة بالأعصار فنذف في وجه الربيع بآية من آياته .
قال يا أمير المؤمنين « إن الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جنك بيعة ! قال أبو جعفر وكيف ؟
قال أبو حنيفة . « يحافون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم !! » وبهت الذي
أثار الثائرة لأن أبا جعفر كان يلتمس البيعة من كل الأقطار .
وضحك أبو جعفر وقال : ياربيع لا تهرض لأبي حنيفة .

بلى . ولو أبيع الاستثناء المنفصل لم تكذب تقع يمين . إذ كان الناس يستثنون بدلاً من
الكفارات ويستثنون حتى لا تطلق نساؤهم .

في تلك المقابلة أو في نظائرها دخل أبو حنيفة على أبي جعفر ، فوجد أبا العباس الطوسي
- وكان سىء الرأي فيه - فقال لمن حوله في صوت خفيض (اليوم أقتل أبا حنيفة) . وأقبل عليه
يقول : يا أبا حنيفة ، إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل . لا يدرى ما هو أبا حنيفة
أن يضرب عنقه ؟ فأجابه الشيخ باحدى روائع القياس . قال « أمير المؤمنين يأمر بالحق أم
بالباطل » ؟ قال الطوسي . بالحق قال « أنفذ بالحق حيث كان ولا تسأل عنه » ولانتمت إلى من
قرب منه وقال (أراد أن يوثقني فربطته)

وأى رباط ! لقد وضع له الجواب من سؤاله . والسؤال عن وجه الحق لا يصدر إلا من رجل لا يعرف أن الخليفة يأمر بالحق أم بالباطل . وبهذا سلم المسئول وانكشف السائل . هذه الأنباء وأمثالها تدلنا على أن أبا حنيفة كان يدخل على المنصور بملهاشمية أو بمدينة السلام ، إماماً رفيع المقام ، مسموع الكلام ، قبل أن يدخلها في طريقه إلى السجن . وتدل على أن غضب الخليفة كان غضب الفجاءة لأسباب جاءت كذلك فجاءة .

وفي الحق إن مدينة المنصور كانت كل شيء للمنصور . وكان أبو حنيفة في أخريات أيامه يحمل على مفرقه عدة من التيجان . فكيف تخلو المدينة الخالدة من الرجل الذي كتب له الخلود . وكيف لا تزدهى به مثما تزدهى به الكوفة . وكيف تتمتع هذه التيجان التي تكال هامة الإمام الأعظم عن أن تنتظم في جواهر التاج الأكبر ! لقد كان عليه أن يقبل القضاء في بغداد وأن يحنى رأسه للخليفة وإلا فإن الرفض ذنب عند أبي جعفر لا يغفر .

كان أبو جعفر يحس إحساس (تيزيه) إذ بنى أثينا . وإحساس رومولوس إذ شاد روما . والذي يشيد مدينة يمشقها فيهرها كوى الغانيات بل أشد . لأنه يخلد فيها نفسه وأولاده ومفاخره وآراءه وحضارة جيله ، وفي سبيل هذا التخليد هانت على البنائين كل التضحيات فهم لا ينشئون مدائن حسب وإنما ينشئون مدنيات ودنى كاملة ، أين منها الصروح الممردة والآثار ولقد كلف أبو جعفر بالبناء حتى ليعتبر أبا المدائن بحق . بنى بغداد لدنيا وأحاطها بالقطائع وبنى الرصافة لولده المهدي وبنى الكرخ . وكلف المهدي ببناء الرافقة بل إن أبا جعفر هو الذي بنى الدولة العباسية نفسها .

وانتقلت نزعة البناء إلى الوزراء . قال يحيى بن خالد لولديه الفضل وجعفر « لاشيء أبقي ذكراً من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً » فاتخذ كل منهما لنفسه قصراً ، وقيل إن جعفر — في عهد الرشيد — أنفق على قصره عشرين مليون درهم غير الأثاث

ومنذ ألفى عام قبل المنصور تنازل « تيزيه » عن ملكة لينشيء « أثينا » ومنذ ثلاثة عشر قرناً قبله كان « رومولوس » لا يقتل الأعداء ولا يسي النساء وإنما يأمرهم بهدم قراهم ودمسأكرهم وأن يقدموا للعمير « روما » . وكان « تيزيه » أول من تنازل عن الملك لخير الشعب كما قال سقراط . وصار « رومولوس » فيما بعد إلهاً يخر له الرومان سجداً إلى الأبدان .

وكان سلطان أبي جعفر أعظم من سلطان تيزيه ورومولوس معاً . فيجب أن يهر بغداد وفق مايهوى والويل لمن يقف في الطريق .

فحبس أبي حنيفة إنما كان في سبيل أن يتولى لأبي جعفر قضاء بغداد وأن يستريح بما يؤمر ولا يرد على الدهن أن يكون ذلك السبب اختراعاً . لأن بغداد كانت قد تم بناؤها ولأن من السائغ أن يرى أبو جعفر أن الولاية على قضائها لم تلك تصلح إلا له . وليس تشييد مدينة السلام بحادث عادي وإنما هو الحادث الأعظم وهو جدير بدعوة الإمام الأعظم وخليفه لدى المستقبل المطاق السلطان بأن ينزل به ما أنزل من العقاب في نفس الزمان ونفس المكان .

ولو كان الغضب من أجل محمد وإبراهيم لأحدث في أبي حنيفة آثاره أيام أحدث فيهما آثاره فلم يكن الإمام الأعظم نكرة فينسى خمسة سنوات أو عشرة سنوات بعد أن نكل المنصور بالأخوين الشهيدين وأبيهما وأباهما .

لقد بدأ المنصور البحث عن محمد وإبراهيم من سنة ١٤٠ ولما لم يعثر عليهما خرج سنة ١٤٠ وطالب بهما أباهما فأنكر معرفته لقرهما فحبسه وصادر أمراله ، فكيف ينال عن أبي حنيفة كل ذلك الزمان وليس من طبيعة أبي جعفر أن ينال .

كان مالك في أوج مجده العلمى والدينى في جوار النبى ، إذ قيل إنه أفتى بأن بيعه الناس للمنصور كانت مكرهة أى غير ملازمة للناس مما ألاة منه لمحمد بن عبد الله عند خروجه أو قيل إنه سئل عن البغاة ، يجوز قتالهم ! فقال « إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز » فقبل فان لم يكن مثله ؟ فأجاب « دهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » فلم يحل ذلك المجد بين عامل أبي جعفر على المدينة وبين جلد مالك .

ولئن راجع أبو جعفر واليه فيما صنع لقد كان ذلك خوفاً من الله لا خوفاً من الناس . ذلك بأن أبا جعفر كان قد مسكن الدولة فلم يسكن يخاف ولم يسكن يخفى . والذي يخفى هو الذى يخاف كالذى يخاف هو الذى يخفى .

فلو أخذ المنصور على أبي حنيفة مأخذاً لناقشه الحساب من فوره جهرة مثلما أخذ محمداً وإبراهيم جهرة . وحبس أباهما في وضح النهار .

ولم يك أبو جعفر ليأمن جانب الكوفة . فيأمر الإمام الأعظم في مسجدتها خمس سنوات طويلا يسكب في دروسه السخط المدمر - لو صح مايقولون - وأبو جعفر أعلم الناس ببلغ ما أحدثته الدعاية على يديه ويدي أخويه أبي العباس وإبراهيم الإمام وأشياهم في الكوفة نفسها وفي خراسان وفي سائر البقاع .

وإذا روى عن تلميذ من تلاميذه أنه اعترض على استأذه لخوضه في ذكر محمد أو إبراهيم فإن ذلك لم يتأيد من مصادر متعددة وهو لا يثبت على المقارنة التاريخية للملابسات التي ألمنا بها في إيجاز وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة . أما الشيعة فذات فقه خاص وأحاديث ومعتقدات خاصة تضمنتها مؤلفات ضخمة دون منها الكثير زيد بن علي وجعفر الصادق وغيرها . ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه روج لفقه الشيعة بل لم ينعكس على مرآته الصافية أثارة فكر شيعي .

ولئن كان يعطف على الضحايا من أهل بيت النبي إن أفئدة الأمة جمعاء تهوى إليهم ولقد كان « صاحب الأغاني » حفيداً لمروان آخر خلفاء بني أمية . ومع ذلك كان شيعياً . . . ١ .
وليس معقولاً أن يكون أبو حنيفة شيعياً بفعله أو قوله أو بهواه دون أن ينكشف الخبي من أمره أو ينعكس أثره على عمله ، في مماركة الخالدة مع الخوارج ومع المحدثين ومع الولاة ومع الخليفة وسواهم .

ولما خاصم ابن هبيرة كان خصامهما حرياً بأن يكشف أستار غيبه . بل إن بني العباس كانوا مع الشيعة حتى بويج لأبي العباس في سنة ١٣٢ فهم المايحون حقاً بأشباع الخفاء .
فكيف يكون من هؤلاء ، ولا يأخذ السفاح أو المنصور عليه شيئاً مما أخذاه على زعماء أهل البيت في بضعة عشر ربيعاً كانت كايا النكال للشيعة .

وإذا صح ماروى من صلاة المنصور على قبره بعد وفاته فإن المنصور لا يصل على من أراد اقتلاع دولته من الأعماق .

لقد رفض أبو حنيفة القضاء لبني أمية كما رفضه لبني العباس . ولو كان يدفعه الهوى والغضب لكان هوام مع الدولة المقبلة من الشرق من بلاد أجداده وبخاصة وقد ناله من أذى العهد المنصرم

ما كان قيناً بأن يصل أسبابه بالنظام الجديد ، لو كان أمر امتناعه راجعاً إلى الهوى أو إلى الأذى أو إلى النظام .

* * *

إنما عافت نفس أبي حنيفة القضاء لأبي جهفر لأنه ليس القاضى المحسوب على الحكام والحاشية .
وليس هذا القاضى إلا ألعاباً يعرض على النظارة فنونا من الظلم على أنها العدل ، وماهى فى الحق
إلا نتاج العبودية والمهانة والابتذال .

واقضاء المسخر كالفكر المشتري والقلم الأجير أتس مافى الأسواق من سلع وعروض
والرأى هو العرض . . . يبيع عرضه من يبيع رأيه . ذاك لشهوات الحس واللمس وهذا
لشهوات الفكر والنفس . بل إن من يبيع رأيه يبيع جسده . فما الصمت أو البيان ، أو اللسان أو
البيان ، إلا أجزاء من جسم الانسان .

وفى يوع الفكر يغطى المتبايعان عقود الاسترقاق بشتى مظاهر الاستقلال والاحترام
وبغلو الفقيه العبد كل الغلواء فى دعوى الالباء وحرية الآراء ، وبقدر ما يتطلب من الغطاء
يحدث من الضوضاء . وكلما ذلت النفس استحكمت مركب النقص ، فكبرت الدعوى
وكثرت الأستار .

ما أتس دنيا الفقيه العبد لو قدر لك أن تكشف الغطاء الجسدى عن تفكيره فى هواه
أو هوى مولاه .

هنالك لا تجد الأشياء ولكن ظلال الأشياء . ولا تسمع الأصوات ولكن تسمع الاصداء .
وتجد حساباً لما ليس فى الحساب . المعلوم يتحكم فيه المجهول ، والعلل ينتجها المأول ! وأسماء تعود
المظلومون أن يسموها . كالمصلحة العامة والنظام وماهى إلا نهمة الدنيا وهامم العيش وفساد الضمير
هنالك تشهد الفقيه العبد فى شوهته ودمامته وانحلال شخصيته كامثل الهزيل فى أعقاب
الرواية هذلة الذبذبة الدائنة وقبحه الاصطناع . فأسمى مسخاً شائها ترى دمامته كل الأنظار .
وهو لا يكاد يراها . . .

هناك الأرضى يحارب السماوى وتسمى بغير أسمائها الأشياء .

هناك تسيطر الأفكار التجارية ونزعات السوق ، ويتعامل أهل الرذيلة على أهل الفضيلة .
ويأخذك العجب وتساءل : لماذا يتواصل أهل الرذيلة فى حين أن ذوى الفضل فى ابراجهم
لا يتواصلون . . .

هناك النفوس الرديئة تحاول أن تطرد النفوس الجيدة . ويتعامل رجال الحكم ورجال العالم
بقانون المرض والطالب ، والفضة والذهب ، والمصاحبة فى شتى صورها وعروضها ، كوظيفة
والرضاء ، والحلية الوادعة الساجية ، وماهى إلا رشى مستورة من رغبة ورهبة ، أو منظورة
ذات لمان ورنين .

رووا أن قاضيا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه فوقعت
قضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى فأرجأ القاضى القضاء فيها حياء من جماعتهم :
وردفته قضية أخرى كتب بها إلى يحيى فعصرف يحيى رسوله وقال له . لا أشير عليه بشئ . فلما
انصرف اليه رسوله وعرفه بقوله ركب من فوره إلى يحيى وقال له لم أظن أن الأمر وقع منك
هذا الموضع وسوف أقضى له غدا إن شاء الله فقال له يحيى « وتعمل ذلك صدقا ؟ » قل نعم .
قال له « فالآن هيئت غيظى . فأنى ظننت إذ خالفنى أصحابى أنك توقفت مستخيراً لله . متخيراً
فى الأقوال . فأما إذ صرت تتبع الهوى وتقضى برضى مخلوق ضئيل فلا خير فيما تجسئ به ولا فى
إن رضيتك منك فاستعف من ذلك ، وإلا رفعت فى عزلك » .

فرفع يستعفى فعزل . . .

وهكذا طب الفقيه العظيم بدوائه قاضياً ممن عناهم « فولتير » بقوله عن قضاة « كلا » :
لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة . بل قاضياً من نوعدهم عمر بقوله
« ويل لذيان من فى الأرض من ديان من فى السماء ، يوم يلتقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق
ولم يقض على هوى ولا على قرابة ، ولا على رغب ولا على رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه
ليس أبو حنيفة هذا القاضى ولا ذلك الفقيه : لقد قال له الأمير يوماً لم تغشأ ؟ فقال
لأنه ليس عندى ما أخافك عليه . وإن قربتنى ففنتنى وإن أوصيتنى أخزيتنى . والذى يقول

هذا الأُمير هو الذى يقول للناس ، « من كرمت عاياه نفسه هانت عاياه الدنيا وكل شدة فيها »
 لقد عاش حياته فى ذروة الفضل بين الناس وبين أقطاب الشرائع فلم يبق أمامه إلا أن يموت
 ميتة تليق بهذه الحياة . كان قد عمر سبعين عاماً ليست طويلة فى أقيسة الزمان ولكنها عريضة
 الذكر عميقة الأثر . رفيعة المثل ، والحياة لا تقاس بالطول بقدر ما تقاس بالعرض والعمق وارتفاع
 المقام والفعال النابعة .

ولقد قضى حياته يفرق فى الناس أرباح تجارتها الزافقة آلافاً وعشرات آلاف ، آخذاً نفسه
 بالتجرد اليومي من أعراض الدنيا فى زهادة ونسك وتعليم دونها الزهد كله والنسك كله والتعليم
 كله . والذى يسلط على نفسه هذا التجريد اليومي من فعيم الحياة إنما يسلط عليها سياط عذاب
 مستمر لا بالكف عن اللذات ولكن بالاعتطاع من صميم الذات ، وبالحرمان الفعلى لا النظرى .
 حرماناً مما فى يده فعلاً وهوله . لا مما فى يد الناس ، ولا فضل على الناس لمن تنازل عما فى يد الناس ،
 فأما هو يكسب لشخصه إذ يبرىء نفسه من أذى نفسه . أما ذلك الذى يصبر على الامتحان
 اليومي ، ويقدر على التطهر الكلى ، فقد سما بالوجود الانسانى عن مستواه البشرى ، وأضحى
 ينظر إلى الدنيا من عل ويدق من قرب أبواب السماء . ومن أجل ذلك يشعر الناس بقوى تلك
 النفس التى سميت على أنفس الناس جميعاً .

وكما جمع العبادة والزهادة ، قرن العلم بالعمل . فإذا رأى المنكر غيره بيده . يرى الشرطى
 يسخر رجلاً ويذهب ليخلصه ويتنعم الشرطى فيعطش به ويدفع الناس الشرطى حتى يطلق الرجل .
 ويرى أمير الكوفة خالد بن عبد الله القسرى يتشاغل على المنبر يوم الجمعة بقراءة كتب حتى
 يخشى على الصلاة فيصبح : الصلاة الصلاة . خرج الوقت ودخل آخر .

ذلك شأنه مع الشرطى ومع الأُمير القسرى وهو شأنه مع ابن هبيرة أمير العراق وهو هو
 شأنه مع المنصور أمير المؤمنين . لا ينحنى أمام السلطان فى أى مكان ، ولا يسمح بالعيب فى ذات
 العلم ولا يسهم فى الظلم كالشيطان الآخرس بالسكوت .

كان قد فرغ من شؤون مدرسته وفتح الباب على مصراعيه لشتى المدارس التى أظهرت فقه
 الاسلام ، فسلط على الفكر الاسلامى شعاعاً من النور هو حسبه . وخلف فى دنيا الفقه أسماء راسيات

كانها الأعلام ، وقضاة كالملاك ، وعلماء أثبت مجداً من الملوك . فلم يك باقياً ، إلا أن يضرب الضربة الكبرى فيهبى بالمادة ، وأعراضها وأصحابها إلى الأعماق ، ويخلق بالعلم وبالفكر في طباق السموات ، ويطير إلى الأجيال اللاحقة فكرته الخالدة على ألف جناح ، ويعلم الناس بالقدوة والفداء مثل ما علمهم باللسان والقلم .

وفي كلمة واحدة يعلمهم بمماته مثل ما علمهم بحياته

لكنه لا يموت ميتة « ليكرج » إذ أتم رسالته في شرائع أسبرطه ومجدها فختم حياته متحرراً بالكف عن الطعام اعتقاداً بأن الزعيم الذي لم يبق له عمل في أمته جدير بالاختفاء .

لقد كانت الأمة أحوج ما تكون إلى أمائها الأعظم ولم تشأ السماء أن تعطل خاتمة حياته من أكليلها . فاذلم يدخل الناس في حسابهم هذا العدوان عليه فقد سبق أن سطر عليه في اللوح المحفوظ ذلك المصير . والأذى هو الغذاء المستمر لرواهب الرجل الحر ، والمعارضة هي في الغالب رجع الصدى للرأى . فأى أذى واعتراض يجتمعان على الرجل إذا اجتمعت عنده الحرية والرأى وأى امتداد لذلك التناؤش من بعيد ومن قريب يحالفه عند مماته بعد خمسين عاماً في معركة الحق في مواجهة الناس ومجابهة الخليفة ، وكما لقي من أمره عسراً تدفق من قلبه الاشرار لا الاحتراق ، كأن الشدائد مولد عظيم للقوى في كيانه ، أو كأنها السلاح الذي يشق الأرض لتنفجر الماء أو ليزداد الثرى بنقليه رأى ١١

إنما يعيش هؤلاء البشر في مستوى أعلى من البشر . يتلاقى عنده الإنسان المخلوق والربانى الذى يوحى به ، وفي هذه التمم الشواهد يستقبل الملهمون آيات السماء أول من يستقبل كأطراف السحاب في السماء وذرى الجبال في الأرض أمبق ما يتلقى شعاع الشمس وأول ما يتوهج في الظلام المحيط إنهم لا يحسون ما يحسه عذاباً . بل تتوتر أحاسيسهم إلى أقصى حدود التوتر إذا عالجوا الصعاب وتبدل إلى حد العدم في محيط العذاب ، فاذا رأوا الأذى وردوه ، واستروخوه ، فمنهم من يقضى نحبهم ومنهم من ينتظر ، فلا تطيب نفسه إلا إذا أترفته كؤوس التضحيات ، وعندئذ يدرك أنه قد ارتوى من نخب الخلود . .

إنها لنعمة من السماء على الأرض أن يعذب أهل الأرض قوماً كأنهم من أهل السماء

فهؤلاء الشهداء يعلمون الناس بالأسوة الحسنة أن الحياة ليست الباهنية ولا الرفاهة . ولكنها كفاح دائم للخير تواق للسكال .

ولقد سجل علماء الاسلام هذه الحقائق بحروف من نور فتضى عليهم بارئهم أن يشقوا لينهم الناس وقضى على الأئمة الأربعة أن يردوا المحنة تلو المحنة في سبيل آرائهم . كأنما سبقتوا باماتهم الناس فتحدوا خطاياهم ، فسبق الشافعي من أقصى الجزيرة أقصاها ، دأب عشرة متهمين بالتشيع لقوا مصارعهم بين يديه ونجا وحده ، وجلد مالك من أجل أيمان البيعة أو من أجل جوابه عن السؤال عن البغاة وذاق ابن حنبل بعض الموت في خلق القراءان . أما أستاذهم أبو حنيفة فقد مات في قضية القضايا : قضية الحرية ! أو قضية القضاء . أو قضية تسخير العلماء في خدمة الخلفاء ! فأظهر أن الزهد والعلم ليسا غاية الحياة وإنما العمل هو الغاية في الدنيا والوسيلة للآخرة . وكان المثل الكريم لما يهدي إليه الوحي الذي أشاروا إليه من « أن الله سبحانه وأوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد : أما زهدك في الدنيا فقد تعجبت به الراحة ، وأما انتطاعك إلى فقد اكتسبت به العز . ولكن ماذا عملت فيما لي عليك ؟ فقال : يارب وأى شيء لك على ؟ قال : هل واليت في وليا أو عادت في عدوا » .

إنما تكون العبادة الحق بالجهد لا في الخطوط الأولى للناس ، لا في الاعتزال ولا في الرهينة . روى عن الامام أحمد وغيره أثراً « أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى ملك من الملائكة : أن أخسف بقرية كذا وكذا ، فقال يارب كيف وفيهم فلان العابد ؟ قال به ذابداً . فانه لم يتهعر وجهه في قط ! » .

بلى . بلى . فالعمل الصالح أزكى من مطاق العبادة ! هذا يعنى بن عمر يرجع من القيروان في تونس إلى قرطبة في الاندلس ليرد دانقاً كان عليه وهو يقول : رد دانق على أهله أفضل من عبادة سبعين سنة . !

إنها ضريبة الرضاء النفساني يؤديها الزائد أو العابد أو العالم فيكسح ويكد ليتترك آثاره فيمن يحيط به من العالمين .

وإذا كان أبو حنيفة قد جانب السياسة في حياته لأن رسالته كانت أكبر من السياسة ،

فقد جانبها وهو يختتم هذه الحياة ، والعالم الحق لا يفتن بما يفتن به الناس ولا ياتى بذاته كرجال الدولة فيما يعتكز الناس عليه ، وإن رجل الدولة ، ليقذف بنفسه في المهالك ، يهينه أن يفور التنور وتغلى به القدور ، ليستخرج منها ما يشاء من نتائج وعواقب .

فاذا هاجم البطش المفكر في عقر داره ، أو قدح الخطب وعمت الباوى أو هددت الحرية أو الفضيلة حق على رجل العلم أن يحمل تبعاته وأن يحمى حماه . لأنه لم يعد العالم ولكن غدا العلم . ولم يبق الفقيه وإنما غدا القدوة .

إن هؤلاء الفقهاء ليحملون من التبعات مالا يحمل السياسيون ولا الزعماء ، لما يستيقنه الناس من أنهم ورثة الأنبياء ، فلا جرم إذا التمسوا النجاة عندهم والأمل في روح الله لديهم .

لما والى الملك اسماعيل الأفرنج أيام الحرب الصليبية وسلم لهم صيدا وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب أنكر عليه عز الدين بن عبد السلام هذه الفعلة ، فنضب عليه وعزله واعتقله ثم بعث إليه بعده وبمنه ، فقال له الرسول « تعاد إليك مناصبك وزيادة ، وما عليك إلا إن تنكسر للسلطان وتقبل يده » . فما كان جواب الشيخ إلا أن قال « والله ما أرضاه أن يقبل يدي ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد . . . »

سبق أبو حنيفة الأمثال للعلماء كما سبقهم في ميدان الاجتهاد ، فواجه النوازل في الفكر والفكر ، والنوازل في العمل بالعمل .

واختادت له السماء مجد الخلد على مجد الساعة ، ورضاء الله على رضاء السلطان ، وآثر الآخرة على الأولى وسعى لها وهو مؤمن . واتخذ مكانه في هذا الثبت الفردوسى الحافل بأسماء الصالحين والشهداء .

هنالك تراءى لك الأعماق التي ينبع منها فكر هذا المجاهد الحر ، خلافة للبصر ، وتجلى لك القمم العالية التي ارتفعت إليها هذه الحياة عند ما ختمتها يد القدرة خاتمة أروع من الخيال ، ويتراءى لك فيما بين البداية والنهاية حياة هي العمل ، ورسالة هي الخلق والابتداع ، ليست في تطبيقات كل يوم ، تلك التطبيقات الدارجة ، والفتاوى المفردة ، أو في خدمة السلطان .

إنما كانت وظيفة أبي حنيفة وظيفته الشارع نفسه ، لا وظيفة الذى ينفذ الشرائع والقضاء

تنفيذ والتشريع خلق . والمشرع يضع النظام . والقاضى من حرصه وسدنته .
كانت وظيفة الامام الأعظم تتصل بالقرآن والحديث وبالعقل لاستنباط الأصول والحلول
ودفعها فى الغداة إلى القضاة والعلماء والحكام والخلفاء والكافة . يتناول بها الناس جميعا شؤون
الدنيا والدين ، ويقضى بها القضية فى كل قضية وكل دولة ، وكل جيل ، وكل مكان .
كانت رسالته إنشاء المذاهب وإنشاء الرجال ، والتوثيق بين العلم والحضارة .
كان هو نفسه الانبياء التاريخى الذى شغل به الفقه الاسلامى نفسه . فأين منه ، بل أين من
بعض منه ، كراسى القضاء . على مافى وظيفة القضاء من إشراق وكرامة وعبادة .
لقد ساهم التاريخ فى توكيد تلك الحقائق . فلم يل وظيفة القضاء فى خدمة السلاطين واحد من
الأئمة الأربعة الذين تقاسم مذاهبهم جمهور المسلمين .
تلك مكانة حصل الحديث فيها ابن وهب حيث قال « إن العلماء يحشرون مع الأنبياء وإن
القضاء يحشرون مع السلاطين » .
أجل وكما قال أبو حنيفة « أن لم يكن أولياء الله تعالى فى الدنيا والآخرة العلماء فليس للهولى » .
وإذا كان ذلك شأن العلماء فكيف بأئمة العلماء ، بل كيف بأحق رجل فى الاسلام بما قيل
عن ارسطو « معلم العلماء » .
فأين . . أين . . أين الأمراء من الأنبياء . وأين رجال القضاء من الفقهاء !
وأين أبو حنيفة قاضى القضاة ، أوقاضى الكوفة ، أو بغداد أو الرضاة ، لو قدر وكان من
الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان .
لقد دالت دولة بنى العباس ، ولم يذهب مذهب أبى حنيفة . ونسى الناس أبا جعفر وأولاده
وأحفاده . لكن أسم أبى حنيفة ما يزال يذكر كلما صلى الناس أو صاموا أو كلما واجهوا أمراً من أمور
الشرع فى شأن من شؤون الدنيا أو الدين .

* * *

أحسن أبو حنيفة بالموت فسجد فصعدت روحه وهو ساجد فى رجب سنة ١٥٠ . كأنما كان
يسابق ملك الموت إلى لقاء الله فى الصلاة .

جاءته الدعوة إلى لقاء الله وهو بين يدي الله يصلي ، وبين يدي التاريخ وهو سجين ، وبين يدي الفكر الانساني وهو يتلقى العذاب من جرائه ا

وأخرج من مكان حبسه فحملة خمسة أنفس فأتوا به إلى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضي بغداد . وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال « رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد بيمينك بالليل منذ أربعين سنة . كنت أفقهنا وأعبداً وأجمعنا لخصال الخير وقبرت إذ قبرت إلى خير وسنة وأتعبت من بعدك »

وما فرغوا من غسله إلا وقد اجتمع من أهل بغداد خاق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، حتى خرج من باب خراسان ، كأنما نودي لهم بموته ، فاجتمعوا وحرز من صلى الله عليه فقيل بلغوا خمسين ألفاً ، وقيل أكثر وأعيدت الصلاة عليه ست مرات . وقيل إن المنصور جاء وصلى على قبره ، ولم يمكن دفنه إلا بعد العصر لكثرة الزحام .

ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوماً ولما بلغت المنصور وصيته بأن يدفن بالخيزران لأنها أرض طيبة غير مغموبة قال « من يعذرني فيك حيا وميتا ... ا » .

وقال الحسن بن عمارة على القبر « كنت لنا خلفاً ممن مضى ، وماتركت بعدك خلفاً . إن خلفوك في العلم الذي علمتهم لم يمكنهم أن يخافوك في الورع إلا بتوفيق » .

وأتى نبأ موته مكة ، فرثته البلدة المباركة على لسان فقيها ابن جريح فاسترحم وتوجع ثم قال « أي علم ذهب ا » .

ولما وقف تلميذه عبد الله بن المبارك على قبره ، قال « رحمك الله . مات ابراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وخلفا خلفاً ، ومات أنت ولم تترك على وجه الأرض خلفاً » . وبكى بكاء شديداً .

وفي منتصف القرن الخامس للهجرة (سنة ٤٥٩) بنى شرف الملوک أبو سعد محمد بن المنصور الخوارزمي (مستوفى مملكة عضد الدولة البارسلان محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلاجوقي) على قبر الامام مشهداً وقبة وبني عنده مدرسة كبيرة للحنفية ، وبقي قبره مزاراً للناس في طريقةهم للحج وعودهم منه . ودفن إلى جواره جماعة من نخبة من العلماء ، منهم الدامغانى شيخ العراقيين وقاضى بغداد .

ولما دخل الشافعي بغداد قصد إلى مقابر الخيزران وصلى على قبر الامام الأعظم ركعتين ولم يرفع يديه... فسئل لماذا خرج عن قواعده؟ فقال رضى الله عنه «أدباً مع هذا الامام أن أظهر خلافه بحضرته».

وكان يجرى إلى قبره كل يوم ويقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة. بلى، وأية بركة أصابت الشافعي وأصابها الاسلام! أما الشافعي فقد تلقى فقه أبي حنيفة مبوراً مؤصلاً مقمداً، كما يتلقى الجوهرى الصنع كنزاً من الآلى والأعلاق. وأما الاسلام فهو يذكّر لأبي حنيفة ما لا يذكره إلا لمن جاء بعد النبي عليه الصلاة والسلام من صفوة الطبقة الأولى من أصحابه المخلصين.

فالفقه الاسلامى فى المعاملات وأر العبادات أعلى كنوز الحضارة الاسلامية مكانة وأبعدها أثراً فى الأمة جيلاً بعد جيل لاتصاله بالقرآن والحديث فى منابه الأولى. ولئن كان للغة العربية وآدابها - وهى لغة القرآن - ذلك الشأن الجليل الذى تفاخر به كل اللغات، إن للفقه منها مكان الصدارة. فهو الذى مكن للحضارة الاسلامية فى بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوروبا وآسيا، وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الاسلامى وسيطرت مبادئه فى نظام الأسرة والملكية والحرية فى الرأى والمقيدة والأصول العامة للشريعة.

ولئن كان الاسلام غزاه هذه الأمم بالسلاح، لقد استقر فيها بالشريعة. لقد غلب السلاجقة المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى ولكنهم أسلموا. وغلب المغول المسلمين فى القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا أيضاً. إن الاسلام ينتصر وإن هزم المسلمون!

وحيث وجد الاسلام وجد الفقه الاسلامى ووجد الفقهاء العالميون فى غير جزيرة العرب ممن سبجلوه وخلدوه. يتسابقون فى حلقاته ذلك السباق المتراعى فى حدود الوجود الزمانى والمكانى، حتى إذا أقفل باب الاجتهاد فى عصور التقليد لم يسكت لهم صوت ولم تهدأ لهم حركة ولم يبرح إنتاجهم بشير الاعجاب.

ولو عجز الفقه الاسلامى عن أن يستجيب لحاجات الأمة فى هذه الأقطار المترامية الخيف أن

تعمد إلى اطراحه لتعديش . وإذن لبخمت الحضارة الإسلامية نفسها في كل مكان !
 فأى فضل على الأمة يلقى به ربه ويلقى به التاريخ رجل مكن للفقه الإسلامي أن يكون
 عصرياً في كل عصر . وإقليمياً في كل إقليم ، فمكن للدين نفسه ووطد أركانه .

لا عجب إن قال بعضهم إن النبي قد بشر به . فهو إن صح أو لم يصح ضرب من ضروب
 التمجيد وهو جدير بالتمجيد . جدير بتفسير المفسرين لحديث (لو كان العلم عند النخيل لتناولوه رجال
 من أبناء فارس) وغيره ، تفسيراً ينظمه في سلك المأمولين للإصلاح . وجدير بما قال بعض أئمة
 الزهد (يجب على أهل الإسلام أن يدعوا لأبي حنيفة في صلاتهم لحفظه عليهم السنة والفقه)

لقد كان صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ينظر بنور الله يوم قال المسلمين (اقتصدوا
 بالدين من بسدى أبى بكر وعمر واهتمدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد) وكان عمر مؤمناً
 ممن عناهم النبي بقوله (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) .

فلقد جعل النبي عماراً وابن أم عبد (ابن مسعود) ركنين من أركان الأمة كآبى بكر وعمر .
 وإذا كان أبو بكر قضى على الردة ، وكان عمر أنشأ الامبراطورية الإسلامية فان رسوليهِ إلى
 العراق — عماراً وابن أم عبد — قد أديا رسالتهم نعم الأداء ، كأنما بصر الرسول والفاروق
 ورسولا الفاروق من خلال السنين بما سيؤديه هذا الاقليم العظيم للعالم الإسلامي فيحفظ له أمانة
 الفقه ويشيع في أرجائه الأسلوب الجديد ويحمي الشريعة الإسلامية من أن تهيبها آفة القصور عن
 مطالب المصور .

ولئن كان خالد بن الوليد قد حمى الإسلام من الردة عند الصيحة الأولى على هدى من
 أبى بكر ، إن أبا حنيفة قد حمى الشريعة عند الصيحة الأولى إذ فادت بذلك الحوادث وهو على
 هدى من روح عمر وعهد ابن مسعود .

ولقد نظر ابن مسعود بنور الله يوم ضرب الأمثال في الاجتهاد عند أساطين مسجد الكوفة ليثول
 بجلسه بعد قرن كامل إلى أبى حنيفة الذي نهج نهجه وورث عهده ، ذلك العهد الذي أوصى به الرسول
 نفحات من السماء جات بأبى حنيفة في أوامره . كما جاءت بابن الوليد في إبانته ، لتؤكد لنا أنه
 سبب حياته وتعالى صدق وعده ووفى عهده (. . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

وفي سنة ١٥٠ مات أبو حنيفة وولد الشافعي ، كأن السماء لم تشأ أن تحرم الأرض ذلك الامام إلا إذا حبتها هذا الامام .

كان نابليون يقول عن نفسه (كل شيء ينتهي على بعد ستة أقدام تحت الثرى) ولئن صدق هذا القول على رجال السياسة أو رجال الدنيا إنه لا يصدق على المفكرين . فأولئك يبدأ كل شيء بالنسبة لهم عند ذلك . إنهم يذرون أجسادهم تحت الثرى ويعشون أفكارهم إلى الأفلاك ، وأسماءهم إلى الأزل ، لتصير حديثاً في فم التاريخ وطنيناً في سمع الزمن . أو كما قال هيجو : أيها العظماء : هل تريدون المجد موتوا .

استقبل أبو حنيفة وهو سجين في السبعين من عمره ، حياة الخلود ، كما استقبلها سقراط من قبله بعشرة قرون ، في السبعين من عمره ، محكوماً علوية بالاعدام ، فنظر إلى قضائه وقال (.. سيذهب كل منا في طريقه ، أنا في طريقي لأموت ، وأنتم في طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أي الفريقين أهدى سبيلاً) .

فهرست المراجع المهمة

- ١ - مناقب الامام الأعظم الموفق بن أحمد المكي
- ٢ - » » » ابن البراز الكردي
- ٣ - عقود الجمان في مناقب الامام الأعظم الحافظ محمد بن يوسف بن هلى
- أبى حنيفة النعمان ابن يوسف الدمشقي الصالحى .
- مخطوط بدار الكتب المصرية تحت ن ١٠٧
- ٤ - الخيرات الحسان في مناقب أبى حنيفة النعمان ابن حنجر
- ٥ - الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء للحافظ أبى عمر يوسف بن عبد البر
- ٦ - تاريخ بغداد أبى بكر الخطيب
- ٧ - الرد على أبى بكر الخطيب الملك أبى المظفر ديسى بن عبد الملك
- ٧ - تأنيب الخطيب على ماساقه في أبى حنيفة من الأكاذيب محمد زاهد بن الحسن الكوثري
- ٩ - إحقاق الحق بابطال الباطل في مغيب الخلق » » » » »
- وأقوم المسالك في بحث رواية مالك عن أبى حنيفة ورواية أبى حنيفة عن مالك
- ١٠ - حياة الامام أبى حنيفة الأستاذ سيد عفيفى
- ١١ - الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى الحجوى
- ١٢ - وفيات الأعيان ابن خلكان
- ١٣ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية السكونى
- ١٤ - طبقات الفقهاء أبى اسحق الشيرازى
- ١٥ - طبقات الشافعية الكبرى السبكى
- ١٦ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ابن فرحون - المالكي
- » » »

- ٣٩ - مجلة القانون والاقتصاد السنة السادسة للاستاذ عبد الوهاب خلاف
- ٤٠ - » » » السابعة » » »
- ٤١ - The Moslem Creed. Wensinck. Camdrige 1932
- ٤٢ - Le Dogme De L'Islam. Godziher. Paris 1920
- ٤٣ - شرح الأحكام الشرعية محمد زيد الايباني بك
- ٤٤ - الخراج أبو يوسف
- ٤٥ - الفهرست ابن النديم
- ٤٦ - تاريخ الطبري الطبري
- ٤٧ - تاريخ الدولة العباسية محمد الخضرى بك
- ٤٨ - تاريخ الاسلام حسن ابراهيم حسن
- ٤٩ - الطبقات الكبرى ابن سعد
- ٥٠ - فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب محمد لطفي جمعه
- ٥١ - الامامة والسياسة ابن قتبية
- ٥٢ - الكتاب والوزراء الجهمشيارى
- ٥٣ - العقد الفريد لابن عبد ربه
- ٥٤ - دائرة المعارف الاسلامية
- ٥٥ - » معارف البستاني
- ٥٦ - الامالى ابى على التالى
- ٥٧ - المقدمة ابن خلدون
- ٥٨ - Islamic Civilisation Khuda Bukh. University of Calcutta 1929
- ٥٩ - الحيوان الجاحظ
- ٦٠ - مناقب الامام الشافعى محمد بن عمر الرازى
- ٦١ - القضاء فى الاسلام ابن عرنوس

فهرست الأعلام

حرف الألف :

ابراهيم الخليلي ٩٣ ابراهيم بن الاغلب ٣٣ ١٨٩ ابراهيم النخعي ١٤ ١٦ ٢٥ ٤٩ ١٢٢
 ١٣٧ ١٣٨ ١٤١ ١٥٨ ١٨٦ ابراهيم بن عبد الله ٣٩ ١٩٦ ٢٠٠ ابراهيم الامام ١١٥ ١٠١
 ابراهيم بن عبيد ١٩ ابقراط ١١٩ ابن شبرة ٤٨ ٦٠ ٦٢ ١٥٨ ابن حنبل ٢٧
 ٦٨ ١٢٥ ١٣٧ ١٤٣ ١٧٢ ١٩١ ١٩٢ ابن المقفع ٦٠ ٢٨ ١١٤ ١٨١
 ابن سريج ١٨٧ ابن مسكويه ٢٦ ابن للعديد ٢٦ ابن الأشعث ٣٨ ١٠٧ ابن الهيثم ١١٤
 ابن اسحق صاحب المنازي ٥٧ ٦٣ ١٩٧ ابن تظوفيا ٤٤ أبي عجلان ٦١ ابن الأشعث
 ٣٤ ١٠٩ ابن جريج ٦٣ ٢٠٩ ابن ذهب ١٨٤ ٢٠٨ ابن ماسويه ١١٤ ابن القاسم ١١٨
 أبي حزم ٩٥ ابن شهاب الزهري ٩٩ ١٢١ ١٢٦ ١٤٨ ١٥٨ ١٦٢ ١٨٢
 ابن وحشية ١١٤ ابن دهن ١١٤ ابن أبجر ١١٢ ابن سينا ٢٨ ٤٣ ابن رشد ٤٣
 ابن سيرين ٢٥ ١٣٧ ١٦٢ ١٧٠ ١٨٩ ابن خلدون ١٤٣ ١٥٥ ابن حجر ٤٥ ابن سريج ١٦٣
 ابن شراحيل الحسبي ١٧٩ أبو بكر محمد بن عمر ١٤٦ ابن أبي الأسود ١٧٨ ابن القيم ١٧٧
 ابن خيزان ١٨٩ ١٩٠ ابن تيمية ١٧٠ ابن عبد القدوس ١٧٢ أبو حنيفة الايقاني ١٤٧
 أبو حنيفة الدينوري ١٤٧ أبو حنيفة الملقب ١٤٧ أبو حنيفة المغربي ١٤٧ أبو موسى الاشعري ١١٠
 ١١١ ١٣٢ أبو مسلم الخراساني ١١٠ ١١١ ١٠٥ أبو البختري ١٠١ أبو يوسف ٧٤ ١٧ ٥١ ٥٥
 ٥٦ ٧٠ ٧٥ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٤ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤
 ١٢٦ ١٣٣ ١٣٦ ١٥٧ ١٦٥ ١٧٠ ١٧٤ ١٨٢ ١٨٨ أبو عبيدة بن الجراح ٤٣ أبو عبيد
 الكاتب ١٨٦ أبو العباس الطوسي ١٩٧ أبو المؤيد الخوارزمي ١٤٤ أبو الدرداء ١٢٤
 أبو الجعد ١١٤ أبو معاوية الضرير ١٠١ أبو مقاتل السمرقندي ٦٣ أبو بكر الصديق ٢٣
 ٣٨ ٤٣ ١٠٨ ١٤٠ ١٤٤ ١٤٧ ١٦١ ١٦٢ ١٨٨ أبو هريرة ٢٤ ٤٢ ١١٣ ١٤٣ أبو محجن
 الصحافي ١٩ أبي بن كعب ٣٠ أبو بكر النهشلي ١٦ ٩٦ أبو خزيمة ١٧٧ أبو بردة الضبي
 ١٦ ٥١ محمد بن أبي داود ١٩١ احمد بن حنبل ١٩٢ ١٩٣ احمد بن نصر ١٧٥
 إدريس عليه السلام ٣٢ ارسطو ٥٢ ٨٨ ٩٥ ١١٤ ١١٦ ١٧٢ أروى أم المودى ١٨٥
 ١٨٣ أفلاطون ٣٢ ٥٢ ٧٠ ١١٤ العرجي الشاعر ١٧ الأصمعي ٥٠ الاسكندر المقدوني
 ٩٥ الاوزاعي ٦٣ ١٣٦ ١٥٠ ٥٧ ١٧٠ اسد بن سعد ١٨٤ اسد بن عمرو البجلي ٥١ ١٠٤
 اسماعيل بن حماد ١٠٤ أسد بن الفرات ٣٣ ١٦٣ اسماعيل بن اليسع ١٢٦ اسطفان بن باسيلي ١١٤
 اسطفان ١١٣ اسحق بن حنين ١١٤ اسحق بن يزيد ١١٤ أسامة بن زيد ٢٩ سمينوزا ٣٠ أم مسلمة
 أم المؤمنين ١٢٠ أم جعفر ٩٧ أم عمران ٨٠ الاسود بن يزيد النخعي ١٦ ٤٩ ١٥٨ ١٨٦
 الاصطرخي ١٢٨ الايش بن الاعز ١٥٦ الاشتر النخعي ١١١ الأدين ٩٥ أقليدس ١١٤ ١٦
 أنس بن مالك ١٣ ٢٤ أورليينوس ٥٦ إلياس بن معاوية ١٧٧ ١٧٧ ١٨٩

حرف الباء

بختشوع ١١٤ البختشاري ١٤٣ برونو ١٧٢ بركايس ٢٢ ٢٣ بطليموس ١١٤ البلاذري ١١٤

بكار بن قتيبة ١٩٢ يوشين ٤٧ بوسويه ١١

حرف التاء

تيزبه ١٩٩ — ٢٠٠

حرف التاء

ثابت بن قرة ١١٤

حرف الجيم

الجاحظ ١٠٥ ١٢٢ جالينوس ١١٤ ١١٦ جبريل ١١٥ جرجس بن جبرائيل
١١٣ ١١٥ الجصاص ٤٤ جعفر بن ربيع ٥٩ جعفر بن محمد الصادق ٦٢ ٦٣
جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ٥٠ ١٩٧ جمال الدين الافغانى ٩٣ جهنم بن صفوان ٦٧ ١٦٨

حرف الحاء

الحارث بن مسكين ١٢٢ حبان ٥١ ١٠٣ ١٠٤ حميش بن الحسن ١١٤ الحسن
البصرى ١٦ ٢٤ ٢٧ ٢٨ ١٢٠ ١٣٧ الحسن بن سهل ١١٤ الحسن بن عماره
٥١ ٦٣ ٢٠٩ الحسن بن زياد ٤٢ ٥١ ٩١ ٩٤ ١٠٣ ١٦٥ الحسين بن
على ٩٦ ١٠٨ الحجاج بن مطر ١١٤ الحجاج بن يوسف الثقفى ١٢ ١٠٩ ١١٠ ١١١
١١٩ حربويه (أبو عبد الله بن الحسين) ١٢٨ حنيفة ١٤٣ حفص بن غياث ٥١
١٨٠ ١٠٤ حفص بن عبد الرحمن ٣٨ ٤١ حماد بن زيد ٦٣ حماد بن أبى حنيفة ١٤ ١٥
٢ ٨٤ ٨٦ ١٠٠ ١٠٢ ١٠٣ ٤٦ ١٨٧ حمزه المخرى ٦٣ كنبيل بن اسحق ١١٤ حنين بن
اسحاق ١١٤ حياة بن شريح حماد بن أبى سليمان ١٣ ١٢ ٤٩ ٩٢ ١٢٠ ١٤٢ ١٤٨ ١٥٨

حرف الحاء

خارجة بن مصعب ٦٣ خالد بن الوليد ٤٠ ١٦١ ٢٠٩ خالد بن يزيد ١١٣ خالد بن بردك ١٩٤
خالد بن محمد القطرانى ١٥٠ خالد العمري ١٩٩ الخفاف ٤٤ الخطيب البندادى ٤٤

حرف الدال

داود الظاهري ١٣٧ ١٥٤ داود الطائى ٥١ ١٠٤ ١٦١ ١٧٠ الدارقطاني ١٤٠

الدافقاني ٢٠٧ دسقوريدس ١١٤ الدقاق ٤٤ ديفاليرا ٤١

حرف الراء

ربيعة الرأي ٢٧ ٦٣ الربيع بن يونس ١٨٠ ١٨٦ ١٩٨ رومولوس ١٩٩ ٢٠٠

حرف الزاي

زبيدة زوج الرشيد ٩٥ ٩٦ زفر بن الهذيل ٥١ ٥٤ ٥٥ ٧٠ ٩٤ ١٠٢ ١٠٣
١٠٤ ١٣٦ ١٨٠ زوطي ٢٧ زيدى ثابت ٤٣ ١٣٣ ١٦٢ ١٨٨ زيد بن علي
٣٢ ١٠٧ زيد موالى النبي ٢١

حرف السين

سالازار ٤٢ سالم ١١٣ سالم بن عبد الله بن عمر ٩٥٨ ١٦٢ سالم مولى هديفة ٢١ سحنون
١٧٥ ١٨٩ السرخسي ١٩٣ سرفاتس ١٧٢ سعد بن أبي وقاص ١٩ ٤٣ ١١٠ ١١١
سعد بن عفير ١٢٠ سعد زعابول ٩٣ سعيد بن المسيب ٧٧ ١٣٥ ١٥٤ سعيد بن جبير ١٠
١٧٨ سعيد بن أبي حجر ٦٢ سعيد بن العاص ١٠٩ السجاح ٨٠١ ١١٠ ١١٤ ١٩٦ سفيان
ابن عيينة ١٩ ١٣٣ سفيان الثوري ٤٧ ٦٠ ٧٩ ١٠٠ ١٤٧ ١٥٧ ١٥٨ ٨٤
سقراط ١١٣ ١٢٠ ١٩٣ ٢٠٠ سلم ١١٢ سليمان النابسي ٣٨ ١٤١ سهل بن مزاحم ١٨٦
سقراط ١٨١ ١٨٣ سيف الدين ابن أيوب ١٢٧ سيبويه ٢٦

حرف الشين

الشاطبي ١٩٠ الشافعي ٢٩ ٣١ ٤١ ٦٦ ٩٧ ٩٨ ١١٤ ١٣٤ ١٣٦
١٤٢ ١٤٥ ١٥٢ ١٥٥ ١٦٣ ١٧٥ ٢٠٨ شرشير المدني ١٢٤ شريح السكندري
٤٧ ١٣٠ ١٧٢ ١٧٣ شريك القاضي ٩٣ ١٠٠ ١٦٨ ١٨٠ شمس الدين الحيايى ١٩١

حرف الصاد

صالح بن عبد الرحمن ١١٠ الصابوني ٤٢ الصغار ٤٢ صدلون ١١٤ ١٧٥

حرف الضاد

الضحاك بن تيس ١٠٧ الضحاك بن مزاحم ٢٤

حرف الطاء

طارق بن زياد ٢٤ ٢٥ ٤١ ١١٠ طاووس بن كيسان ٢٢ ٣٢ الطيزي ٢٦ ١٣٥

١٦٦ ١٩٠ الطحاوي ١٢٨ طلحة ١٣٢

حرف العين

طائشة أم المؤمنين ٤٢ ١٢٥ عافية الأودي ٥١ ٥٢ عامر بن شراحبيل الشعبي ١٢ ١٦
 ٣٤ ٢٧ ٦١ ٧٦ ٧٨ ١٣٥ ١٤١ ١٥٥ ١٥٦ ١٦٢ ١٧٤ ١٧٥
 ١٧٦ عز الدين بن عبد السلام ١٩٢ ٢٠٧ عز الدين بن موسك ١٩٢ عبد الله بن عباس ٨ ٢٢
 ٤٦ ١٢٥ ١٤٧ ١٤٨ ١٩٧ عبد الله بن عمرو ١٤٥ عبد الله بن الزبير
 ٢٤ ١٠٨ ١٠٦ عبد الله بن عمر ٢٤ ٣١ ١١١ ١٢٣ ١٢٥ ١٣٣ ١٥٨
 ١٦٢ ١٧٧ عبد الله بن سلام ٧٦ ٧٧ عبد الله بن المبارك ٤٩ ٨٠ ٨٧ ١٠٤ ١٤٩
 ١٥٨ ١٥٩ ١٧٠ ٢٠٩ عبد الله بن أبي ١٣٧ عبد الله بن أحمد بن حنبل ١٤٣ عبد الله
 بن وهب ١٨٤ ٢٠٧ عبد الله بن علي ١٨٥ عبد الله بن الحسن الكرخي ١٩٣ عبد الرحمن بن
 حدير ١٨٨ عبد الرحمن بن علي بن أبي ليلى ١٠٩ ١٣٥ عبد الرحمن بن علي بن عباس ١٨١
 عبد الرحمن بن الياجل ١١٣ عبد الرحمن بن عوف ١٣٢ ١٣٣ عبد الرحمن السكواكي ٩٣
 عبد الرحمن هرمز ٢٤ عبد العزيز بن مروان ٢٧ عبد الكريم بن محمد الجرجاني ٦٣ عبد الملك بن مروان
 ١١١ ١١٢ ١٢٥ ١٧٤ عبيد بن عمر ٤٩ عثمان الليثي ١٦٧ عثمان بن عفان ١٤ ١٧ ١٠٦
 ١١١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٤٤ ١٧٤ ١٧٧ عطاء بن أبي رباح ٢٤ ٢٥ عكرمة مولى
 بن عباس ٢٤ علي بن معبد ١٨٨ علي بن الحسن التيسابوزي ١٩٣ علي بن مهزي ٥١ ١٠٤
 علي بن شرف العافري ٥٣ علي بن عبد الله بن عباس ٢٤ ١٠٨ ١١٠ علي بن أبي طالب ٨
 ١٦ ٤٣ ٥٢ ١١١ ١١٢ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٤١ ١٤٨ ١٥٣
 ١٥٧ ١٦١ ١٧٤ ١٩٦ علقمة النخعي ١٦ ٤٩ ١٢٢ ١٤١ ١٥٨ ١٨٦
 عمرو بن العاص ١١ ٤٢ ١٧٧ عمرو بن عبيد ٥٨ ١٨٥ ١٨٦ ١٩٧ عمرو
 ابن حريث ٢٤ ٢٧ ٣٩ عمر بن عبد العزيز ٢٦ ٤٠ ٤٣ ٦٨ ١١٢ ١١٩
 ١٤٦ ١٤٧ ١٧٧ ١٨٨ ٢٠٠
 عمرو بن الخطاب ١٦ ٢٤ ٤٠ ٤٢ ٥٣ ٧٦ ١٠٤ ١٠٨ ١١٠ ١١١ ١١٩
 ١٢٢ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٥ ١٣٧ ٣٦ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٥ ١٤٧ ١٥٣
 ١٥٨ ١٦١ ١٦٦ ١٧٤ ١٧٧ ١٨٨ ٢٠١ ٢٠٣ عمرو بن ذرابة ٦٤
 عمر بن حماد بن أبي حنيفة ١٦٨ عمر بن قيس ١٧٠ عمار بن ياسر ١١١ ١٤١
 عماره بن حمزة ٢٦ ٦١ عصام ٨٩ عيسى شرف الدين (الملك الأيوبي) ٤٤ ١٠٠ ١٢٩
 ١٦٥ عيسى بن موسى ١٨ عيسى بن مسكين ١٦٣ عبد الله بن مسعود ٤٣ ١٧ ٤٠ ٤١
 ٤٩ ١٢٢ ١٢٤ ١٣٢ ١٣٨ ١٤٢ ١٥٨ ١٨٦ ٢١١

حرف الفين

خوث بن سليمان ١٨٣

حرف الفاء

الفارابي ٧٨ الفراز الفضل بن الربيع ٩٤ ١٨٢ الفضل بن يحيى ١٠١ ١٩٩

الفضل بن فويحت ١١٤ فيكتور هيجو ١٣١ ٣١٠ فولتير ٢٠٣ الفيروز آبادي ١٨٧
فيثاغورس ١١٤

حرف القاف :

القاسم بن ميم ٥١ ١٠٤ القاسم بن أبي بكر ١٢٥ القاسم بن ربيعة ١٨٨ قاسم بن
حزم ١٩٠ القاسم بأمر الله ١٨٨ قسطنطين بن لوقا قبصة بن ذؤيب ١٢٥ قتاده المحدث
٦٣ القتال ٤٤

حرف الكاف

كافور ٢٦ كالفن ١٧٢ كالا ٢٠٣ الكرييس ٤٤ كرومويل ٤١ الكسائي
٩٩ كعب بن ضنة ١٧٧ الكافيحي ١٤٧ كوندية ٧٣

حرف اللام

لابروبير ٩٧ الليث بن سعد ٢٢ ٢٦ ١٣ ٦٢ ٦٣ ٧٦ ٩٠ ١٢٦ ١٢٢
١٦٧ ١٨٣ لويس الرابع عشر ١٨٦ ليكرج ١١٦ ١٤٥ ١٧٢ ١٧٧

حرف الميم

مالك بن أنس ٣٢ ٦٢ ٦٣ ٧٥ ٩٩ ١٣٥ ١٢٦ ١٤٠ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٧
١٤٨ ١٦٠ ١٧٠ مارتق لوتر ١٧٢ الأمون ١٨ ٤٣ ١١٤ ١٢٠ ١١٤ ١٢٧
١٨٨ ١٩١ مقي ابن يونس ١١٤ مجاهد بن جبر ٢٤ مسدد بن كدام ٥١ ٥٧
٦٣ ١١٠ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ٤٨ ٥٧ ٦٢ ٨١ ٨٩ ١٧٤ ١٧٥
محمد بن جابر الحنفي ٥١ محمد بن الحسن ٥٠ ٧٤ ٩٤ ٩٨ ٩٩ ١٠١ ١٠٢
١٦٠ ١٦٦ ١٧٠ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ١١٥ محمد عبيد ٩٣ محمد بن
نوح ١٧٢ محمد بن الحنفية ١٠٩ محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ٨٢ ١٩٦
١٩٧ ٢٠٠ المنصور « أبو جعفر » ١١٠ ١١٣ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٦
١٤٦ ١٤٨ ١٧٦ ١٧٧ ١٨٠ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨
١٩٦ ١٩٧ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٢٨ المختار بن عبيد ١٠٩ مروان بن محمد ١٠٩
مروان ابن الحكم ١٠٢ ١٧٤ مصعب بن الزبير ١٠٩ معاذ بن جبل ١٣٢ ١٨٨ معاوية
ابن أبي سفيان ١٠٨ ١١٢ ١٢٤ المتصم ١٩٤ مكحول ٢٥ معلى بن منصور ١٨٨
الغيرة بن شعبه ١١١ الغيرة بن حمزة ٥٢ الفضل الضبي ١٩٧ المنيرة بن عبد الرحمن
١٨٩ مندل ٥١ ١٠٣ ١٠٤ منك الهندي ١٤٥ ميسار ٢٧ المهدي ١٢٦

الموسكى ١٩٢ النهدي لله ٤٤ الوفي ١٩٢ موسى بن نصير ٢٦ ١٠٩ ١١٢ موسى
بن كثير ١٦ موسى بن سليمان الجوزجاني ١٨٨ ميشيل انجوا ١٠٥ ميمون بن مهران ٢٥ ٤٤

حرف النون

نابليون ١٣٨ ١٩٧ ٢١٢ نافع مولى بن عمر ٢٤ ٢٥ نجم الدين أيوب ١٩٢
نصر ابن سيار ١١٩ النضر بن اسماعيل ١٠٢ النضر بن محمد ٦٣ النضر بن شميل ١٩
١٢٤ ١٢٨ النعماني ٤٤ النعمان بن المنذر ١١ نوح بن مريم الجامع ١٢٣ ١٥٢ ١٧٩

حرف الهاء

الهادي ٩٦ ٩٧ هاشم المنجم ١١٤ همامان ١٨٦ هشام بن عبد الملك ٢٥ ٢٦ ١٠٩ ١١٢
١١٣ ١٨٢ هرون الرشيد ١٠ ١٧ ٧٩ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١
١١٤ ١١٥ ١٢٦ ١٢٩ ١٤٩ ١٧٧ ١٨٢ هوميروس ١٠٥

حرف الواو

الواثق ١٩٢ واصل بن عطاء ٥٩ وكيع بن الجراح ٥١ ١٨٠ الوليد بن أبان ٥١ الوليد
ابن عبد الملك ١٠٩ ١٤٦

حرف الياء

يحيى بن سعيد الأنصاري ١٨٣ يحيى بن يحيى ٢٠٣ يحيى بن زكريا ٥١ ١٠٤ يحيى بن عمر ٢٠٦ يحيى بن
عدي ١١٤ يحيى بن خالد البرهكي ١٩٩ يحيى بن أبي كثير ٢٥ يحيى بن عبد الله العاوي ١٠١ يحيى بن زيد بن علي
١٠٩ يزيد بن المقفع ١٠٨ يزيد بن أبي حبيب ٢٤ يزيد بن معاوية ٧٦ ١٠٨ ١١٢ يزيد بن هبيرة ١٧٤ ١٧٥
١٤٤ ٢٠١ يوسف بن أبي يوسف ٥٩ يوسف بن خالد السمعي ٥١ ٨٩ ١٠٣

٦	 المقدمة
٩	 الباب الأول — الرجل
٣١	 الباب الثاني — التاجر
٤٧	 الباب الثالث — في المسجد
٦٥	 الباب الرابع — المفكر
٨٣	 الباب الخامس — التلاميذ
١٠٧	 الباب السادس — في العراق
١٢١	 الباب السابع — في الكوفة
١٣١	 الباب الثامن — في الفقه
١٥١	 الباب التاسع — إمام أهل الرأي
١٧٣	 الباب العاشر — في القضاء
١٩٥	 الخاتمة — في التاريخ
٢١٣	 فهرست المراجع
٢١٦	 فهرست الأعلام

هـ نورد فيها إلى مقتطفات مما استقبلت به الطبعة الأولى ذاكرين بخالص الشكر من
نشرنا لهم ، ومتدربين عن عدم النشر ، بطروف خاصة بالطباعة .

١ — محاضرة صاحب المطالب المكنون عبد الحميد بروي باشا

القاضي بمكة العدل الدولية

« ... مستوى عال أسلوباً وموضوعاً ... »

٢ — محاضرة صاحب المطالب الأستاذ محمد العسكاري باشا

وزير المعارف السورية

« ... جاء أبو حنيفة في هذا الكتاب مثلاً عالمياً للبطولة التي خلفها الإسلام وكلها وقودها في أحسن تقويم وأفهم دعاءتها
على أساس ركين من الخلق العظيم وكان أبو حنيفة في كتابك رمزاً لجميع نواحي البطولة الحقة . وجاء منهاجك
في البحث واضح الدلال على أن عرضك لأبي حنيفة وجوانب عظيماً لم يكن غاية بل كان وسيلة لمرض أثر الإسلام
البالغ في النفوس والأخلاق والاجتماع والسياسة وإقانة بنائها على دعائم ثابتة من الحرية المعبرة والعدل الشامل . .
وقد لازمك التوفيق في عرض فكرتك سواء من جهة الأسلوب أو المعنى أو الاستطارة فأوفيت على الغاية .
فليكن هذا الكتاب وطريقته وأهدافه مثلاً يحتذى في عرض نواحي التاريخ الإسلامي . وتجلية رجاله وأبطاله
وأئنته للشباب المثقف حفزاً له . . »

٣ — محاضرة صاحب المكنون طه حسين بك :

عميد الأدب العربي

« يظهر أن في ضمير الشرق العربي طموحاً هائلاً إلى الحرية وحرصاً عظيماً على وصل قديمنا بمحدثنا في حب الحرية
والحرص عليها من حبة أخرى
وكتاب الأستاذ عبد الحليم الجندى ممتع كل الامتاع ما في ذلك شك تأخذ في قراءته فتعجب موضوعه كما تعجب
كاتبه . تجد روحاً من الاخلاص يجلب إليك المضي في القراءة . ثم يفرض عليك هذا الماضي فما تزال تقرأ حتى تتم
الكتاب فاذا صرفتك شواغل الحياة عن هذه القراءة فأنت تنصرف عنها كارها وأنت تاتى الفرصة لتستأنف هذه
القراءة التي لا تريد عنها سلوا »

وما أحب أن أشكر للأستاذ عبد الحليم الجندى جهده العظيم دون أن أنوه بأن الأستاذ من رجال المدرسة الحديثة
تعلم في المدارس المدنية وتخرج في كليه الحقوق . وهو يعمل في أقلام القضايا . فعناية بالأدب القديم وإتقانه لهذا
الأدب . وتفرغه للثقافة القديم وبراعته في هذا الفقه . وسبقه إلى التأليف في أبي حنيفة قوماً أجدر أن يؤلفوا
في أبي حنيفة . كل هذه خصال يجب أن تعرف للأستاذ وأن تحمد له أصدق الحمد وقد لاحظ الأستاذ أن الله
رفق بالمسلمين فأهدى إليهم الشافعي حين قبض إليه أبا حنيفة . رحم الله الرجلين العظيمين . فما رأى الأستاذ في أن
يفرغ لدرس الشافعي كما فرغ لدرس أبي حنيفة وللشافعي رحمه الله إلى مكاتبة المتأخرة في تاريخ الفقه والأدب صلة
تصبر لعلها أن تفرى الأستاذ بالفرغ له والعكوف عليه (مجله الكاتب المصري يناير ١٩٤٦)

٤ — ماضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد البنا

مدير إدارة الشؤون الدينية بمجلس الوزراء

وأول ما ينتزع إعجابك من هذا السفر النافع أن يكون عنوانه أبو حنيفة . وأن يتواضع مؤلفه الكريم فيقول في المقدمة إنه صورة لاسيرة . فإذا تصفحت هذا الكتاب وجدته صورة وسيرة بما . وقد كان المؤلف الفاضل في حل أن يجعل هذه الصورة لأبي حنيفة فقط ولكن سيقته في حب الافادة وسعة اطلاعه أيما عليه إلا أن يكون الكتاب صورة لعصر أبي حنيفة كله . فقد صور مدارس المسلمين التشريعية التي كانت تعج بها بقاع المعمورة في تلك الأيام الخوالي وكشف عن نواحي تفكيرهم وطرق استنباطهم وكانما عاين كل فريق منهم فلا يند عنه شيء من ملوهم ولا يفلت منه قليل من تراهم وحين عرفت صديقا من أصدقائي سيكتب عن أبي حنيفة تصورت أنه سيزود المكتبة العربية بسفر يماثل تلك الاسفار التي قرأتها عن أبي حنيفة كلها سرد لحوادث ونقل لاحكام لاتلم بها إلا وأنت متصور أنها حوادث القرون الحالية وأحكام المساجد تلى على عامة المسلمين لينتفعوا بها في دائرتهم الضيقة المحصورة ولم يخطر لي ببال أن صاحبنا سيصل الماضي بالحاضر . ويقارن بين فقه أبي حنيفة وفقه سقراط وشرائع فرنسا في قرونها الأخيرة ، فلما تيسر لي أن أطلع على الكتاب وجدته تجاوز ما ظننته وأراني على ذلك كله .

وما أحسنه إذ يستطرد فيذكر لك إخلاص أولئك الفقهاء لأعمالهم وزهدهم في أعراض الدنيا وقناعتهم بما قدموا للناس من نفع ... ويضرب الأمثال على ذلك في أساليب شائق وسعة تنم عن بحث وتفكير . على أنني إذا كنت لأثما صديق على شيء فليس في المؤلفين من لا يلام . وبجهود الفرد دائما عرضة لأن يكون فيه نقص يجب استكمال . أو ثغرة ينبغي سدّها . وربما عثبت عليه أكثر في أنه حبس آثار ذلك القلم الرائع عن القراء عمرا طويلا حتى عرفناه فجأة بذلك الكتاب القيم . ولا أظن أحد من المشتغلين بالشريعة بل من قراء العربية إلا أن سيتقاض الأستاذ الجندی ديناه في عنقه وهو ألا يحرمه من ثمار تلك القرينة المحبذة وأن يوالى غذاء القارئين »

٥ — ماضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود سائوت :

عضو هيئة كبار العلماء

... ولا أنس بعد جودة البابين « في الفقه » وإمام أهل الرأي » والآخر منهما بوجه خاص في موضوعهما وقوة الدفاع عن الامام ... »

٦ — ماضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر :

رئيس محكمة شين السكوم الشرعية (مجلة الكتاب يناير ١٩٤٦)

الأستاذ عبد الحليم الجندی كاتب قوى ممتاز ما في ذلك شك لم يكن معروفاً من قبل في عالم التأليف والكتابة . أو لم أكن أنا أعرفه في ذلك على الأقل . فإن يكن كتابه هذا أول ما ألف يكن خير فاتحة يبدأ بها مؤلف إنتاجه العلمي . ويكون دليلا على قوة محبوة . تبدو ثم تصاعد وتعاور حتى تصل إلى الناية في الافادة أو تكاد . وظنى أن سيكون ذلك إن شاء الله . وأبو حنيفة (الامام الأعظم) مفخرة من مفاخر الاسلام ... وقد أحسن الأستاذ إذ عني بدرس هذا الامام العظيم . درس سيرته وفقهه وأصوله التي يرجع إليها . ثم أخرج لنا كتابا قيما جديراً بالقراءة . بل جديراً بالتقدير والعناية والكتاب أو أكثره على هذا النهج القويم . والنفس الملهي الممتاز ...

٧ - مدينت حطة الازاعة المصرية للاستاذ أحمد عبد الغفار :

مجلة الراديو المصرى (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٥)

« ... مثل هذا الكتاب الذى أقدمه لكم فى مفتتح هذا الحديج لانصافه كثيرا . فما أبعدكم عن التأليف السهل والتأليف العابر . وما أجدره بالاعجاب الشديد . هذا كتاب يقرأ ثم تستعاد قراءته مرات . ولا يملك القارىء نفسه فى كل مرة من تقدير الجهود الضخم الذى بذله المؤلف فى كتابه أعظم تقدير . ذلكم الكتاب هو : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام » الذى نشر أخيرا للاستاذ عبد الحليم الجندى . . . فلا يكون كتاب أسى هدا أو أعظم عناء . أو أجمل موضوعا . أو آتق عرضا من هذا الكتاب . لم يدخر كاتبه تحقيقا ولا ضن عليه مجهود . ولا اجتزا فيه موضوعا ولا حبسه عنه إيمانا . لا يكتب إيمانا عميقا داعيا ومندركا وهاديا . . . فى كل هذا الايمان بالامام الأعظم يقدم لنا المؤلف لوحة فائقة أصيلة لشخصية أعظم فقهاء المسلمين . . . »

٨ - مجلة المقطف : (القاهرة) عدد ديسمبر ١٩٤٥

الترجمة لأبى حنيفة إمام الاسلام وصاحب القياس وبطل الطرية الفكرية إندى الخلق التى تنقص أدبنا العربى الصميم
مضى المؤلف الفاضل فى ترجمته لرجل الاسلام العظيم مضى الكتاب المرن الحاذق . فمالج موضوعه معالجة لعارف بدقائقه وتفصيلاته وبأسلوب سهل رقيق . أحاط على التصوير فهو قوى ومدقق حيث يقتضى الموقف القوة والتدقيق . لين مرن حيث يقتضى الموقف اللين والمرونة هذا ما جعل الكتاب قطعة من أدبنا الحديث .

٩ - مجلة الاديب (لسانه) : عدد كانون الاول ١٩٤٥ (الاستاذ وريع فلسطين)

« ... لا يسع المصنف إلا أن يقر أن النهضة الثقافية الحالية تبعث على الاعجاب وتعجب الثناء غصبا . ومن خير الكتب التى أتيج لى أن أقرأها أخيرا كتاب أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام الذى أصدره الأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى بأقسام قضايا الحكومة المصرية فهو دراسة عالم ثبت . أتفق فى جمع مواده وترتيبها وتبويبها وتحريرها وقتا طويلا . وآلى على نفسه ألا يكون مؤلفه غنا رخيصا سطحيا . بل أراد أن يحى كتابه سفرا جديلا يتناسب مع شخصية أبى حنيفة ومقامه وفقهه وشرعه
والحق أن المصنف الذى دججه الأستاذ الجندى خلى بالثناء فقد تحرى فيه أمانة المؤرخ الفطن . ورصانة الكاتب الأديب . وجمال الراوية اللبيب . ووفق فى الاماطة عن أبى حنيفة وفلسفته السماحة . وفى تبيان ماسما من خلقه وأدبه وسجاياه ونواياه . . . »

وكان الجندى فى كل هذا أديبا بارعا طاوخته اللغة ولانت له قناتها وقبض على دغاليقها . . . »

١٠ - مجلة المصور : ١٦ نوفمبر ١٩٤٥

... وهذا الكتاب الذى أصدره الباحث المحقق الأستاذ عبد الحليم الجندى صورة رائعة لشخصية الامام الاعظم وسماحه بعد أن قرأ ما يقرب من مائة كتاب لجاءت تحليلا صادقا نزيها لرجل كان بمفرده حادنا ضخما فى تاريخ الفقه والتشريع . . . »

١١ - مجلة الحوارات : في ٢٠ مارس (الاستاذ محمد الشافعي البنا)

« ... على أن ما يروعك منه في هذا السفر الجليل هو الدقة في النقل والمقابلة بين الروايات واستخلاص الحقيقة الواضحة من ثنايا سطورها . ثم ما فيه من براعة في الوصل بين مدلول تلك الأحكام وبين مسائل العصر التي نحن في أمس الحاجة إليها فإذا أضفنا إلى ذلك حلاوة الأسلوب . وسلاسة التعبير . وهدوء اللفظ أدركنا أي جهد جبار بذله صديقنا الفاضل في تحليله شخصية الامام الأعظم حتى لكان هذه الشخصية في الكتاب صورة حية تتحرك وتتحدث »

١٢ - صحيفة الاهرام : ١٤ أكتوبر ١٩٤٥

« ... هذه صورة رائدة للامام الأعظم أبي حنيفة أحد الأئمة الأربعة في الفقه الاسلامي رسمها الاستاذ عبد الحليم الجندى المحامي بقضايا الحكومة وحاول فيها أن يجعل ملامح هذا الرجل الحر الشجاع الذي يمد التارخ بطلا الحرية الرأي والتسامح في الاسلام .

والكتاب قوى الأسلوب سليم اللغة متزن الرأي ... »

١٣ - المقطم : ٥ أكتوبر سنة ١٩٤٥

أصدر حضرة الاستاذ عبد الحليم الجندى سفرا جليلا عن « أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح في الاسلام » يشتمل على درس واف مسهب لنواحي عظمة هذا المفكر الاسلامي الكبير الذي يعد من أعظم فقهاء الاسلام ومن أساطين القانون في العالم العربي .

ويقول المؤلف في مقدمته إنه يقدم هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح إلى الجيل الذي تلت يمنة ويسرة يبعث عن الرجل الحر الشجاع ... وليس هذا البعث البعيد الغور المتسع الاطراف الا صورة لا سيرة - لامام الاسلام الأعظم

وان الجهد المضي الذي بذله الاستاذ الجندى في تصنيف مؤلفه يبدو جليا للقاريء في الأسلوب الرصين ، السكين ، الراسخ ، وفي الآراء العالية الناضجة وفي الموازنة العالية الدقيقة ، وفي النرد الحسن المتمتع . وفي الامام بما خفي وما ظهر من نواحي حياة أبي حنيفة

استدراك

صفحة	السطر	خطأ	صواب	صفحة	السطر	خطأ	صواب
١١	١٨	باسمة	باسمه	١٠٤	٧	الرسل	المرسل
١٥	١٤	جلالة	جلاله	١١٠	١٤	وعمر	دار
١٨	٧	اذا	اذ	١١٠	١٥	دارها	وعمرها
٣٤	١٢	السوداني	السودان	١١١	٢٣	وما لان يزال لهم	ما يزال لان لهم
٢٧	٨	اكرم	نبت اكرم	١٦٠	٢	بعض المواضع	في بعض المواضع
٣٣	١١	حبله	حبله	١٦٣	١٥	التميد	التميد
٣٤	٩	يسف	يسلف	٢٣	٢٣	ر	ترى
٣٦	٥	بتخيف	بتخيف	١٦٧	٦	وأما إلى جنة	وأما جنة
٠٠	٧	عاده	عاده	١٦٨	١١	فجها	فجبه
٤٢	١١	الطعمه	الطعمه	١٧٤	٢١	أعد	أن أعد
٤٣	١٢	فتمز	فتمز	١٧٨	٢٢	تؤدد	تؤدد
٤٣	١٦	قدامه	قدامه	١٧٩	١٩	فصل	فضل
٧٤	٨	المشروط	المشروط	٢٠	٢٠	بصلحون	بصلطعون
٨١	١٦	اسماءهم	اسماؤهم	١٨٥	٢٣	وذكر	واذكر
٨٩	٦	الطلب	الطلب	١٨٨	٢	المدينة	بالمدينة
	٧	مجسه	مجلسه	١٩١	٨	كلام	كلام
٩٦	١٦	ياأبو	ياأبا	٢٠٣	٥	العالم	العلم
٩٩	١٤	أبو	أبي	٢٠٩	١١	القضاء	القضاء